



دكتور محمد رجب النجار



# توفيق الحكيم والأدب الشعبي

أنماط من التناسق الفولكلوري



# توفيق الحكيم والأدب الشعبي

## أنماط من التناسق الفولكلوري

تأليف

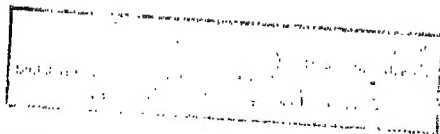
دكتور محمد رجب النجار

أستاذ الفولكلور

كلية الآداب - جامعة الكويت

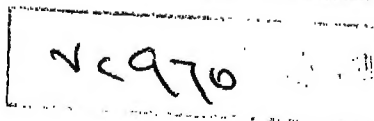
الطبعة الأولى

٢٠٠١م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES



المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

#### المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهواري

د . شوقي عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفي

تصميم الغلاف : منى العيسوي

---

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ه شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون وفاكس ٢٨٧١٦٩٣

Publisher: EYN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693



**إهداء**

**إليها**

فى نبضها الصادق ..

فى صمتها الناطق ..

فى صبرها الخلاق ..

**فى زمان الغربة**

إلى عفاف الزوجة والصديقة

رمزاً حياً لإنسانية الإنسان

فى صفاء القلب ..

فى نقاء السريرة ..

فى عودة الروح ..

**فى زمن البراءة**

**د.د. محمد رجب النجار**



## مِثْرَةُ آدَبِ الشَّعْبِ الْعَرَبِيِّ

### إضاءة وتأسيس

**الريادة :** لا أعتقد أن رائدًا من رواد التنوير العربى ، قد عنى - بوعى معرفى ، نقدى ، تاريخى - بفنوننا الشعبية عامة والأدب الشعبى العربى خاصة<sup>(١)</sup> (الشفهى والمدون ) قدر ما عنى به - جماليًا وفكريًا ، أدبيًا وفنيًا - توفيق الحكيم ( ١٨٩٨ - ١٩٨٧ ) ومن ثم كانت دعوته الرائدة والمبكرة فى العشرينيات للمفكرين والمبدعين - على حد سواء - للعناية بهذا الأدب ، باعتباره تعبيرًا جماليًا جميعًا عن " روح الشعب " و " قضايا المجتمع " و " ضمير الأمة " و " شخصيتها الوطنية القومية " ... « وهذه المفردات جميعها للحكيم نفسه » إذا شاء هؤلاء المفكرون والمبدعون - كما يقول - إقامة مشروعهم الثقافى والإبداعى ، وإذا شاءوا حقًا أن يؤدوا رسالتهم الثقافية والحضارية ، الفكرية والإبداعية ، فى " تنوير وتشوير " الشعب على حد قوله .

من هنا تتجلى شرعية " الاعتراف " بهذا الأدب بدلًا من الاستعلاء عليه أو تجاهله وتهميشه أو تغييبه ، كما تتجلى أيضًا شرعية " استلهامه وتوظيفه " والتناص معه والتعلق به باعتباره طرُقًا - وليس ترقًا - فى التعبير عن واقع الشعوب وأحلامها الجمعية ، وفى تفسير آمالها وآلامها ، تعبيرًا أو تفسيرًا جماليًا خلّاقًا افتقده الأدب العربى الرسمى « والحكيم أول من استخدم هذا المصطلح » الذى كان فى معظمه حتى ذلك الوقت ( فى العشرينيات من هذا القرن ) ليس إلا " أدبًا لفظيًا لا إنشائيًا " ، على حد تعبيره !

---

(١) كان من المفترض أن يكون عنوان هذه الدراسة " توفيق الحكيم والفنون الشعبية " ولما كان الأدب الشعبى بما هو فن قولى يشكل محور الاهتمام الأول عند الحكيم بالفنون الشعبية ، فقد أثرنا اختيار الأدب فى العنوان من باب التغليب أو تسمية الكل باسم الجزء .

من هنا كان هجوم الحكيم الحاد في بدء حياته الفنية والفكرية على الأدب الرسمي ، ومن هنا أيضاً كان دفاعه المستميت عن الأدب الشعبي ، بما هو شكل من أشكال الوعي الجمالى والفكرى المعبر عن حدس إبداعى عند الحكيم ؛ بضرورة فتح آفاق جديدة لفن المسرح وغرس خطابه فى بنية الثقافة العربية خارج دائرة التبعية الغربية .

**منابع الريادة :** شرع الحكيم منذ البداية وفى إطار مشروعه الإبداعى يستلهم الأدب الشعبى بكل أنماطه التعبيرية ، من أساطير وحكايات ونوادر وأغان شعبية ... إلخ ؛ استلهاماً جزئياً أو كلياً فى معظم أعماله الإبداعية ، المسرحية والروائية ، على نحو ما هو معترف به بين نقاده ودارسيه على نحو من الأنحاء . وتسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن تجليات النص الشعبى<sup>(١)</sup> وتظهره وموضعه فى تأسيس أو تكوين المشروع المسرحى للحكيم - إبداعاً وتأصيلاً ، تأليفاً وتجريباً - على مستويات متعددة ، ربما كان أكثرها أهمية هنا والآن : المستوى الموضوعاتى ، والمستوى التجريبى ، والمستوى النوعى أو التأصيلى ( البحث عن قالب مسرحى عربى الهوية ) ، والكشف عن تنوع أنماط التناص الفولكلورى فى النص الحكيمى ، على نحو يلتقى عليه ضوءاً جديداً لأول مرة ، ليس لأن الأدب الشعبى عند الحكيم - كما يقول نقاده ودارسوه - رافد ثمر من روافد التجربة الإبداعية فحسب ، باعتباره «إطاراً» للنص المسرحى ، أو «قناعاً» تتشكل من خلاله أو تتجلى به رؤية الحكيم للعالم ، بل هو - فى الوقت نفسه - " مُحفِّزٌ " إبداعى نشط أيضاً - على المستويين البنائى والوظيفى أو التركيبى والدلالى - بما هو حافظ لبناء " الوقائع " وبما هو حافظ لتنشيط " الدلالات " فى آن .

هذه القراءة الفولكلورية للحكيم سوف تأخذ خطوة أخرى إلى الأمام بهدف الوقوف - بمنهج نقدى تناصى - على منابع هذه التجربة ومصادرها الأولية ، كاشفة لأول مرة عن جذورها

---

(١) يقصد بالنص الشعبى من الآن فصلاً : كل أنماط الإبداع الشعبى الشفاهى والمدون التى تنطوى عليها الثقافة الشعبية المتمثلة فى الكلمة والنغمة والحركة وتشكيل المادة ؛ ابتداء من الإبداع الأدبى (كالملاحم ، والتمثيل الشعبى ، بما فى ذلك الأراجوز وخيال الظل ، والحكايات الشعبية والأمثال والعبارات الدارجة والمسكوكات اللغوية والألغاز الشعبية ... إلخ ) وانتهاءً بجماليات الطقوس والمعتقدات والعادات والتقاليد والمعارف الشعبية ، مروراً بجماليات التشكيل الفنى والتعبيرى والحركى ( كالرقص والألعاب والرسوم الجدارية واللوحات الشعبية .. إلخ . ) .

وأصولها النصية الشعبية التى لم يسبق لنقاد الحكيم ودارسيه الإشارة إليها ، أو الوقوف على دلالتها ورموزها الثقافية السائدة فى الثقافة الشعبية ، وكيف تعالق معها أو تماهى فيها الحكيم ( من غير أن يعلن ذلك ، تصريحاً أو تلميحاً ) على نحو تناصى باحث عن أنماط التفاعل أو التداخل النصوى وآلياته وطرائق اشتغاله وغاياته ووظائفه وعلاقاته وتعالقاته بالسياقات المتعددة ، أو البنى السوسيونصية ( المعرفية والثقافية ، السياسية والتاريخية ، المحلية والعالمية ) التى تم فيها إنتاج بعض نصوصه الإبداعية التى اخترناها - فى هذه الدراسة - بمثابة عينة مختارة ، ليس فقط لأن أصولها الفولكلورية أو مضامينها الثقافية غير معروفة فحسب ، بل لأنها أيضاً تشترك من حيث الوظيفة - بالمعنى الفولكلورى - فى حقل دلالى أو ثقافى واحد ؛ يمثل هماً سياسياً وثقافياً فى فكر توفيق الحكيم وإبداعه المسرحى ( رؤية الحكيم للعالم ) .

**ملاحظتان منهجيتان :** ربما كان الأجدى والأجدر - فى مثل هذه القراءة التناسية - أن نهدى لها بملاحظتين ؛ إحداهما إجرائية : تتعلق بمرجعية التناص ( الفولكلورى ) ، بما هى محددة هنا فقط بالنص الشعبى غير المعروف ( المحلى والقومى ، الشفاهى والمدون ) فى علاقته وتعالقه بالنص الحكيمى . وأخرى منهجية متلازمة معها : وتتعلق بالتعرف على الحكيم - باعتباره الذات المبدعة - وعلى تكوينه الفولكلونفسى ( الفولكلورى والنفسى ) والسوسيوثقافى من حيث هو تعريف ذاتى يشكل الخلفية النصية عنده ، أو بالأحرى الإطار المرجعى الذى انطلق منه الحكيم فى معظم نصوصه الإبداعية ، وذلك بالقدر الذى يكشف فقط عن مدى تغلغل النص الشعبى فى تشكيل الوعى الوجدان والمعرفى والنقدى للحكيم منذ سنوات الطفولة الأولى ؛ باعتبارها " سنوات التكوين " وكيف تأثر الحكيم - مبدعاً - بهذا التكوين الفولكلورى - إن صح التعبير - فى تخليق وتشكيل نصوصه الدرامية ( المسرحية ) والسردية على سواء ، وفى تحقيق مشروعه المسرحى . وهذا يعنى بداهة أن نصوصه - فى ضوء نظرية أو بالأحرى منهج التناص - ليست إلا نصوصاً مخترقة ؛ متلاعبة أو متعاقبة مع نصوص أخرى ، وتأتى فى مقدمتها النصوص الفولكلورية ؛ باعتبارها جوهر نصوص الثقافة الشعبية وموضع التبئير الثقافى والجمالى فى الذاكرة الجمعية التى تتفق بالضرورة مع الوظيفة الجمعية للإبداع المسرحى ، بل إن المسرح نفسه فعل جمعى .

**أما قبل :** فهذا الكتاب ليس دفاعاً عن الفولكلور ... ولا تحاملاً على الأدب الرسمى ... وإنما هو محاولة لإعادة اكتشاف الحكيم من وجهة نظر باحث فولكلورى يسعى - بأدوات نقدية معاصرة - ليس بهدف الكشف عن جدوى استجابات الحكيم الفولكلورية فى تأسيس مشروعه الإبداعى فحسب ، بل أيضاً لقراءة بعض نصوصه المسرحية قراءة كاشفة عن النصوص الفولكلورية / الأصل فقط ؛ بما هى نصوص سابقة تفاعل معها الحكيم فى نصوصه المسرحية ؛ بما هى نصوص لاحقة ، تفاعلاً نصياً جديلاً إلى حد التماهى فيها أحياناً ، وعلى نحو جعل هذه النصوص الفولكلورية / الأصل تغيب تماماً - فى حقيقتها عن كثير جداً من نقاد الحكيم ودارسيه على كثرتهم حتى الآن . ( وهذا يعنى أن هذه الدراسة لن تتناول نصوص الحكيم الروائية والمسرحية التى اتفق نقاد الحكيم ودارسوه على أصولها النصية ومصادرها ورموزها الفولكلورية الذائعة ) .

مثل هذه الرؤية المنهجية هى التى حكمت اختيارنا لنصوص هذه الدراسة ، بما هى نصوص فولكلورية مجهولة ، أو معروفة على نحو خاطئ ، أو غير دقيق . فكان بعضها من مسرحياته ذات الفصل الواحد ، وبعضها الآخر من مسرحياته الطويلة .

ومن الأهمية بمكان أن نؤكد مرة أخرى أن قراءتنا لهذه النصوص محددة بمنظورها الفولكلورى الباحث عن أوجه مظهر النص الشعبى الذى لا يزال مجهولاً - من حيث هو مناص - فى النص المسرحى ، وبيان علاقاته أو تعالقاته التى تربط الخطاب المسرحى الحديث بالخطاب الشعبى الموروث ، فيما أطلقنا عليه : أنماط التناص الفولكلورى ، وذلك على النحو التالى :

- ١ - مسرحية نهر الجنون (١٩٣٨) نموذجاً للتماهى النصى .
- ٢ - مسرحية مجلس العدل (١٩٧٢) نموذجاً للتوالد النصى .
- ٣ - مسرحية السلطان الحائر (١٩٦٠) نموذجاً للتناص المضمر .
- ٤ - مسرحية يا طالع الشجرة (١٩٦٢) نموذجاً للميتا - تناص .

بما هى نصوص لم يكشف عن أصولها الفولكلورية الحقيقية المتناصة أو المتعاقبة معها حتى اليوم ، أو كان قد أشار إليها الدارسون على نحو خاطئ ، أو غير دقيق . الأمر الذى يحتم على دارسى الفولكلور عامة والأدب الشعبى خاصة أن يدلوا بدلوهم فى هذا المجال ،

لعل فيه بعض الفائدة لدارسى مسرح الحكيم ونقاده ، عبر ما يسمى بالدراسات أو المعارف العلمية المتضافرة Interdisciplinary .

كما يحتم أيضاً على علماء الفولكلور العرب أن يعرفوا للحكيم موقعه (التاريخي) وموضعه (العلمي) من تاريخ ظهور أو نشأة علوم الفولكلور والدراسات الشعبية فى بلادنا وجامعاتنا ، وأن يقدروا للحكيم دعوته الرائدة والمبكرة للعناية بالتراث الشعبى العربى المدون والشفاهى - جمعاً وتصنيفاً ودراسة - يوم لم يكن ثمة صوت إلا صوته ، قبل أن تظهر إلى الوجود بأكثر من ربع قرن دعوة جيل الرواد الأكاديميين من علماء الفولكلور فى مصر والعالم العربى (١) .

وكان الحكيم يتغيا من وراء دعوته يومئذ غايات علمية وثقافية وفنية وحضارية ، سوف نأتى على ذكرها " على لسانه " فى هذه الدراسة ، وحسبنا هنا أن نشير إلى أن دعوته الرائدة للعناية بهذا التراث الشعبى ودراسته هى - كما يقول - سبيلنا الأمثل إلى معرفة أساليب استلهامه فى الثقافة والفنون والآداب العربية استلهاً معاصراً ، ديناميكياً لا استاتيكيًا ، وكيفية الاشتغال عليها ، على نحو يثرى حياتنا الثقافية والعلمية والفنية والأدبية على حد سواء . مثلما هو سبيلنا - كما يقول - إلى غرس الظاهرة المسرحية المستحدثة فى بنية الثقافة العربية : من حيث النص والموضوع والقالب والعرض والاتجاه الفنى ... إلخ . وقد جعل ذلك كله نصب عينيه فى مؤلفاته الفكرية وأعماله الروائية والمسرحية جميعاً كما يعرف معظم دارسيه ، وعلى نحو تأمل معه هذه الدراسة فى الكشف عن بعض منابعه الفولكلورية غير المعروفة لهم من قبل ، وذلك بشئ من التفصيل العلمى الدقيق ، ويأمل صاحبها معها - وهو متخصص فى علم الفولكلور - ألا يكون متطفلاً على مائدة النقد الأدبى أو المسرحى ، وألا يكون دخيلاً على علمائه المتخصصين . وحسبه سعيًا محاولته لفهم اشتغال النص الحكيمى ( المسرحى ) وانفتاحه المبكر على النص الشعبى وتعالقه معه ، على نحو تأسيسى غير مسبوق . لعلنا فى هذه المحاولة نلقى بعض الضوء الجديد على توفيق الحكيم مفكرًا

---

(١) للأمانة التاريخية ، ذكر لى أ.د. حسين مؤنس رحمه الله مشافهة أنه كان أول مصرى يكتب مقالاً فى أوائل الثلاثينيات يدعو فيه إلى دراسة الفولكلور ، ووعدنى بإعطائى نسخة منه ، ولكن ظروف الغربة حالت دون ذلك ، ولكنى أسرق هذه الملاحظة للأمانة العلمية ، والرجل اليوم فى ذمة الله .

ومبدعاً ، على الرغم من مئات البحوث وعشرات الدراسات الأدبية والنقدية عنه وعن مشروعه المسرحي - تحديداً - بما هي محاولة للدراسة كما هو مخطط لها منهجياً ، وعلى نحو يصب في مجرى رئيسي واحد هو ( الأدب الشعبي ) وكيفية ( توظيفه ) درامياً ودلالياً - في بعض نصوصه المسرحية - عبر قراءة أو مقارنة نقدية محددة سبيلها الاستعصاء بنظرية التناص ، ومن ثم تجد هذه الدراسة نفسها في صلب العملية النقدية بالضرورة ، ويجد صاحبها نفسه مثل " الضيف الثقيل " أولى مسرحيات الحكيم (١٩١٩) على موائد الآخرين ، وراجياً ألا يكون كذلك .

وأما بعد : في ضوء نظرية التناص التي اتخذتها هذه الدراسة منهجاً لقراءة النص الحكيم ، أو مقارنته نقدياً ، فالسائد بين أصحاب هذه النظرية أن التناص شيء لا مناص منه في النصوص الإبداعية ، قديمها وحديثها ، لأنه لا فكاك للإنسان من شروطه الزمانية والمكانية ومعطياتها التاريخية والثقافية - بالمعنى الشامل للثقافة - ومن ثم لا فكاك لمنتج النص أيضاً من تكوينه الشخصي ، الذاتي والجمعي ، أعني لا فكاك له من ذاكرته النصية "قأساس إنتاج أي نص هو معرفة صاحبة للعالم ، وهذه المعرفة هي ركيزة تأويل النص من قبل المتلقي أيضاً" (١) بما هي خلفية مرجعية أساسية في عميلتي إنتاج النص وتلقيه ، قراءته ومشاهدته ، إخراجه وعرضه جميعاً ، وهذا هو مفهوم الخطاب المسرحي في هذه الدراسة (٢) (بكوناته الثلاثة : نص التأليف ونص الإخراج ونص العرض ) لكننا في هذه الدراسة سوف نعني فقط بالمكون الأول وحده ( النص المسرحي ) ، ليس لأهميته فحسب ، وبـل لأن الدراسة نفسها معنية بالخطاب الأدبي ( الشعبي والمسرحي ) أساساً .

ومن المعروف أن الحكيم - عبقرى الحوار في الخطاب المسرحي العربى - هو أيضاً عبقرى الحوار مع الخطاب الشعبى العربى ، يبحث عنه وفيه ، فإذا ما تلقاه اختزنه في ذاكرته النصية تلقائياً ، بعد امتصاصه وهضمه على حد تعبيره ، فإذا ما " اغترف " منه حاوره أو تحاور معه

---

(١) محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري ( استراتيجيات التناص ) ص ١٢٣ . المركز الثقافى العربى ، الدار البيضاء ، ١٩٨٦ .

(٢) حول مفهوم الخطاب المسرحي ( خصوصية الخطاب ، خصوصية القراءة ) انظر مقالاً بهذا العنوان بقلم عبد المجيد شكير ص ص ٧ - ١٣ فى مجلة البيان ، الكويت ، العدد ٣٥٧ أبريل ٢٠٠٠ .



ثم تجاوزه فى بنيته النوعية إلى بنية نوعية مغايرة ( مسرحية أو قصصية ) تنطوى على إنتاج أو تكوين دلالات جديدة ، بحسب الموقع والموضع ، أو بحسب المقام والمقال . لذلك كان طبيعياً أن تسعى هذه الدراسة إلى " موضعة " نصوص الحكيم المختارة للدراسة مكانياً فى خريطة الثقافة العربية - بمعناها الأنثروبولوجى - التى ينتمى إليها ، وزمانياً فى حيز تاريخى محدد ، لتلمس دروب الاختلاف والاختلاف ، تحقيقاً لما بين النص والسياق من تفاعل على رأى التوليديين .

بمثل ذلك يتشكل الإطار المرجعى لقراءتنا للنص المسرحى فى هذه الدراسة ؛ فهى لن تقف عند ولوجنا لعالمه النصى فى علاقاته وتعالقاته ، فى تناصه واشتغاله مع النص الشعبى وحسب ، بل تتجاوزه أيضاً إلى المتناص للمنتج الذاتى ( كالتشأ والتكوين والتربية والفكر ... إلخ ) . والمتناص الخارجى ( كالأهـن الثقافى والسياسى والاجتماعى والفنى ... إلخ ) . مما يجعل لغة التناص هنا تتشكل قراءتها من مجموعة من الاستدعاءات الذاتية أو " خارج - النصية " ابتداءً من عتبات النص وتعالقاتها مع النص نفسه أو مع نصوص أخرى للحكيم وسياق إنتاجها ، وانتهاءً بتعالقاتها مع نصوص أخرى معاصرة لمؤلفين آخرين ، مسرحية أو روائية ، تشكل فى مجملها رؤية بعينها للعصر أو المرحلة التاريخية التى تعالقت فيها نصوص هذه المرحلة ، وكيف تم إدماج ذلك كله ( التناص الذاتى - الخارجى ) وفق شروط بنيوية خاضعة للنص الجديد ومتعلقة معه .

ومن الجدير بالذكر أن مثل هذه القراءة الفولكلورية - التناصية سوف تتوالد أو تتناسل أو تتوالج بدورها فيما بينها بحثاً عن أمرين :

١ - مدى إسهام النصوص الشعبية فى توليد النصوص المسرحية للحكيم ، وتحقيق مشروع المسرحى .

٢ - مدى إسهام النصوص المسرحية للحكيم ومشروعه المسرحى فى إبراز النصوص الشعبية ذاتها ، وتفجير معناها - الظاهر والخفى - وإعادة إحيائها وقراءتها وتفسيرها فى زمن اندثار التراث الشعبى ! .

وسبيلنا إلى عقد المقارنات النصية بين ما هو مسرحى وما هو شعبى سوف يتحدد بالأطر الزمانية والمكانية لكلا النصين ، وبالشخصيات والوقائع ( الأحداث أو الوحدات السردية ) لكليهما ، على نحو يكشف - على المستوى الدلالى خاصة - عن مدى التماهى أو التوازى ،

المشابهة والاختلاف ، التشابه والتضاد ، التماثل والتعارض ، التماثل والتجاوز بين هذه النصوص جميعاً<sup>(١)</sup> .

وفى ضوء هذه العلاقة ، علاقة المجاورة والمحاورة ثم المجاوزة ، تتجلى المعانى الناتجة عن تلك العلاقة التى يوجد بها الطرفان معاً ، وتتحدد هوية التناص وتتوحد أنماطه ، على النحو الذى انتهت إليه قراءة النص الحكيمى ومشروعه المسرحى ، تأسيساً وتأصيلاً ، تأليفاً وتجريباً .

وفى الحالين ؛ فإن هذه الدراسة تسعى إلى تشخيص ظاهرة جديدة فى مسار المسرح العربى الحديث ، بقدر ما تتغيا تلمس مفاصل التناص الأساسية من خلال تقصى واقع النص الشعبى ( جذوره ، أصوله ، نصوصه البكر ، مكوناته الإبداعية ) كما ورد فى مصادره الأصلية ، المخطوطة أو المطبوعة ، وكيفية إنشاء نص مسرحى حديث على تخومه القديمة ، وفى إقامة علاقة جدلية بينهما ، تتجلى من خلالها خصوصية النص الجديد وتفرد وقمازيه ، بوصفه نصاً قائماً بذاته ينطوى على سماته الخاصة ومكوناته الذاتية ، فى بنيته النوعية : التركيبية المتعارف عليها بين المنتج والمتلقى ، وفى مستواه الدلالى المفارق لتناصه السابق عليه .

وعندئذ يصبح النص الشعبى قناعاً سيميولوجياً أو استعارياً موازياً أو مناسباً تماماً للعبة الكتابة المسرحية وسيميولوجيا العرض المسرحى نفسه ( حيث لعبة الاستعارة هنا هى اللعبة المفضلة والأثيرة فى الخطاب المسرحى العربى الحديث والمعاصر لأسباب سياسية لا تخفى على أحد ) ووسيلة " سابقة التجهيز " عند المتلقى لإيصال ما تعجز عنه الكتابة المسرحية المباشرة التى يمكن القبض على دلالتها ( ومعها صاحبها بالطبع ) بسهولة ويسر . إن النص الشعبى والتناص معه عندئذ ليس إلا تورية بلاغية إزاء الراهن الواقعى ، أو ضرباً من المحايلة أو المحايلة للالتفاف حول المسكوت عنه ، بما هى كتابة تقوم على الترميز والأسطورة والأقنعة الشعبية التى تقول بالتلميح ما لا تقول بالتصريح ، فهذا هو السبيل الأمثل للخروج من مأزق الصمت العقيم - على حد تعبير الحكيم - حتى لا تصادفه المؤسسات الرسمية والدينية والاجتماعية ... إلخ .

---

(١) انظر : عبد الله الغذامى : الخطيئة والتكفير ، الفصلين الأول والثانى ، الطبعة الثالثة ، دار سعاد الصباح ، الكويت ١٩٩٣ م .

إن التناص قبل الحكيم كان ذا روح استاتيكية تجعل من النص المسرحي عند رواد المسرح الأوائل " طفيلياً " على موائد النص الشعبي الشفاهي أو المدون وعالة عليه ، تعتمد على مسرحية نصوصها ( مثل مشاهد أو مقاطع سردية من السير الشعبية أو حكايات ألف ليلة وليلة ، ذرة التراث الشعبي العربي العالمي ) ، وعندئذ يصبح النص المسرحي - آنذاك - مجرد عرض لحكاية شعبية مسرحية على خشبة المسرح بدلاً من حكيها في المقاهي والبيوت ، أو حتى في الجرن الذي كان الحكواتي أو الراوي الشعبي يربطه الشعبية يمارس في فضاءاتها فعله الأدائي أو " لعبة التمثيل المونودرامي " مارساً بنفسه كل أدوار أبطاله وكأنه " مسرح الممثل الواحد " . وأقصى ما يفعله هؤلاء المسرحيون هو تحويل النص الشعبي المروي إلى نص مشاهد . إنها مرحلة أوتر تسميتها بمرحلة التطويع أو التطبيق بين النص الشعبي المروي القديم والنص المسرحي الوليد .

أما التناص عند الحكيم - كما سنرى فيما بعد - فكان ذا روح ديناميكية وفاعلاً - بطابعه - الجدلي - لا منفعلاً فحسب ، يأخذ بقدر ما يعطى ؛ محاوراً ومتجاوزاً في ضوء رؤية مستقبلية آنذاك - إبان زمن البدايات - تنم عن حدس إبداعى ، أو بالأحرى عن هاجس تأسيسى مبكر ؛ بضرورة فتح آفاق جديدة لفن الكتابة المسرحية فى الأدب العربى الحديث لأول مرة (١١) . وهنا تتحقق ريادة الحكيم لا فى المشروع المسرحي له وعلاقته بالنص الشعبي وإعادة " تخليقه " مسرحياً فحسب ؛ وفقاً لصيغة تناصية خارجية تأخذ فى اعتبارها جملة المتغيرات المعاصرة السوسيو ثقافية والسوسيو فنية والسوسيو مادية ، بل تتحقق أيضاً ريادة الفذة

---

(١١) يبدو أن حافزه إلى إنجاز هذه الرؤية التأسيسية - برؤيتها الفولكلورية - ورسم أبعادها وبلورة مضامينها هو الكاتب المسرحي ، المترجم والمعرف والمقتبس والمؤلف المسرحي المعروف آنذاك الأستاذ مصطفى ممتاز ( ١٨٩٢ - ١٩٥٤ ) الذى ينبغى أن لا نتجاهل دوره باعتباره الأب الروحي للحكيم فى مجال الكتابة المسرحية قبل المرحلة الباريسية فى تاريخ الحكيم ، كما كشفت عنه بعض الدراسات الجادة الأخيرة ( انظر فى ذلك : بحثاً مبتكراً أطلعت عليه - أثناء بروفات هذا الكتاب - للدكتور سيد إسماعيل بعنوان " مصطفى ممتاز " بين الفن والحياة " مجلة البيان ، الكويت ، عدد ٣٣٤ ، مارس ١٩٩٩ ) . لذلك ليس محض مصادفة أن يكون العمل التأليفى الأول المشترك بينهما وهو مسرحية " خاتم سليمان " التى كتبت فى عام ١٩٢٢ تقريباً ، مستلهماً من الأدب الشعبي العربى ولا سيما ألف ليلة وليلة .

فى المشروع الفولكلورى والنهوض به ؛ باعتباره أول دعاة العناية بالأدب الشعبى وتوجيه الدراسات الأكاديمية نحوه خاصة والفن الشعبى عامة .

وهنا تكمن عبقرية الريادة عند الحكيم وخصوبتها وخصوصيتها فى آن وذلك منذ أواخر العشرينيات حتى اليوم ، بما هى فترة تتجاوز التطبيع أو التطويع أو الاتباع للنص الشعبى إلى مرحلة التجاوز والإبداع وتكرين المشروع المسرحى ، تأسيساً وتأصيلاً ، تأليفاً وتجريباً ، حيث عرف النص الحكيمى - منذئذ طريقه الخصب إلى التعالق الفاعل وليس التماهى المنفعل مع النص الشعبى ، موضوع هذه الدراسة .

لذلك لا غرو أن نقول إن مثل هذه الريادة للحكيم تمثل انعطافاً خطيراً فى تطور الكتابة المسرحية العربية التى واصلت مسيرتها التأسيسية حتى بلغت ذروتها فى فترة الستينيات ، فترة التجريب المسرحى المتجاوز للمراحل السابقة ، بقدر ما يمثل انعطافاً آخر مماثلاً فى دعوته لرائدة لاستلهام الأدب الشعبى بوعى نقدى متجاوز ، وضرورة دراسته - بوعى ابستمولوجى- علمياً وأكاديمياً ، وهى الدعوة أو بالأحرى هما الدعوتان اللتان وجدتا صداهما الإيجابى فيما بعد على المستويين الإبداعى والعلمى<sup>(١)</sup> .

**استطراد كاشف :** استمىح القارىء الكريم عذراً فى هذا الاستطراد ، وإن كنت أخاله استطراداً غير بعيد عن موضوعنا ، فهو يلقي الضوء على بعض آراء الحكيم التى لم تنشر ، وعلى بعض أحلامه وأمانيه الشخصية فى مشروعه الإبداعى التى لم يقدر لها أن ترى النور لظروف خارجة عن إرادته . وقد أتيج لى معرفة بعضها ؛ فبادرت إلى تسجيلها .

إثر حديث نادر حصلت عليه مصادفة أثناء لقاء تم بينى وبين الحكيم ، فى مكتبه فى الأهرام عام ١٩٧٨ ، وكنت قد ذهبت لزيارته وإهدائه نسخة من هذا البحث<sup>(٢)</sup> يوم كان فى

(١) من المعروف أن أول مركز أنشئ لرعاية الفنون الشعبية فى مصر كان عام ١٩٥٧ . ومن المعروف أيضاً أن أول كرسي لدراسة الأدب الشعبى كان قد تأسس فى جامعة القاهرة عام ١٩٦٠ ، أى بعد أكثر من ربع قرن على دعوة الحكيم .

(٢) إن من حق القارىء الكريم على أن يعرف أن " نواة " هذه الدراسة كانت بحثاً استكشافياً قصيراً عنوانه " توفيق الحكيم والإبداع الشعبى العربى " كان قد تم نشره منذ بضعة وعشرين عاماً فى مجلة البيان التى تصدرها رابطة الأدباء الكويتية ( العدد ١٤٥ ، ص ٧٦٨ - ٧٤ ، أبريل ١٩٧٨ - الكويت ) إلى أن=

مرحلته الاستكشافية (١٩٧٨) ونسخة من كتابي "جحا العربي وفلسفته في الحياة والتعبير"<sup>(١)</sup> الذي كان قد صدر في العام نفسه . واهتمم بالانصراف لعلمي أنه ضنين بالحديث مع أحد على غير معرفة به من قبل ، لولا أن استمهلني قليلاً ويادر إلى تصفح كتاب جحا ، ثم طالع سريعاً المحتوى العلمي للكتاب كما ورد في الفهرست بشيء من الدهشة والإعجاب .

ما لبث بعدها أن أخذ يطرني بالأسئلة - على غير العادة - ومن غير انتظار لإجابة - عن حقيقة جحا التاريخية ، وعن شخصيته الفنية ، وعن رؤيته في الحياة والأحياء ، في المجتمع والناس ، وهل هو شخص واحد أم عدة شخصيات تجمعت فيه ؟ ولماذا اختلطت نوادره بنوادر غيره على ما بينها من اختلاف وتنوع في المضامين والآراء والرؤى ؟ ولما أثره الشعب العربي كله - على اختلاف أقطاره وامتداد أزماته - نموذجاً قومياً للفكاهة العربية حتى أصبح - فيما أعرف - في كل قطر جحاه ؟ وكيف تحول كما تقول إلى " مشجب " فني يعلق عليه الشعب مواقف السخرة وآراء التهكمية في نقد السلطتين أو الهيئتين السياسية والاجتماعية على مر العصور ؟ وهل الفكاهة المصرية - تحديداً - ظاهرة صحية وإيجابية - في رأيك - أم هي ظاهرة مرضية وسلبية ؟ ثم ماذا عن امرأة جحا المشاكسة الحمقاء ( أو نموذج المرأة الجحوية كما تسميها ) التي تذكرني دائماً بامرأة سقراط ! وماذا عن حمار جحا أو ( الحمار الجحوى ) الذي كان جحا متعاطفاً معه - كما تقول - بأكثر من تعاطفه مع البشر ؟ وماذا عن المواقف والطرائف التي حدثت بين جحا وحماره ؟ وكيف استطاع جحا - بذكائه الفطري وحسه

---

= جاء تني دعوة كريمة من الصديق جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة للمشاركة في مؤتمر قومي عن " الإنجاز الإبداعي والفكري " لتوفيق الحكيم بعنوان " توفيق الحكيم حضوراً متجدداً " في الفترة من ٢١ - ٢٦ من نوفمبر ١٩٩٨ بمناسبة مرور مائة عام على ميلاده ، فحمدت للمجلس ولأمينه العام هذه الدعوة الكريمة ، ووجدتها فرصة مواتية لإعادة النظر في ما كنت قد كتبت في هذا البحث الاستكشافي المشار إليه ، خاصة بعد لقائي بتوفيق الحكيم سنة ١٩٧٨ وإعجابه - يومئذ - المقرون بالدهشة على وقوفي على منابعه الشعبية المستلهمة في مسرحيته السلطان الحائر ومجلس العدل ، فكانت هذه الدراسة التي بين يدي القارئ الكريم .

(١) من إصدارات سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ( في طبعته الأولى سنة ١٩٧٨ ) .

الإنسانى الساخر - أن يقول على لسان حمارة ما لا نستطيع قوله من آراء ومواقف فى الناس والحياة بهذا الحجم من السخر والتهكم ، وبهذا القدر من الصراحة والصدق ؟ وكيف ... وكيف ... ؟ .

ثم توقف الحكيم فجأة عن استرساله وقال : هل تعرف أننى أول من دعوت إلى العناية بالأدب الشعبى ( الذى تسمونه الفولكلور فى هذه الأيام ) وذلك فى بواكير حياتى عندما ذهبت لدراسة القانون فى باريس عام ١٩٢٥ ورأيت كبار المسرحيين يستلهمونه ، وكبار المفكرين يدعون إلى دراسته والعناية به قبل أن يندثر بسبب طغيان الحضارة الصناعية الحديثة. كنا يومئذ نحتقر كل ما هو شعبى فى بلادنا وكل ما له صلة بأدب الشعب ، قبل أن يكتب سلامة موسى شيئاً على ما أذكر عن أدب الشعب ، وربما كان ذلك سبب إعجابى بالفنان العالمى محمود مختار عندما عرض بعض أعماله ذات الطابع الشعبى المصرى فى باريس ، ولعله أيضاً سبب إعجابى بالفقيه الموسيقى الدكتور حسين فوزى الذى حبب إلى أو بالأحرى كشف لى عن عبقرية موسيقانا الشعبية .

صمت الحكيم بعد ذلك برهة ( يبدو خلالها أنه عاد بذاكرته للوراء ... فأثرت أن أتركه مع ذكريات الشباب والزمن الجميل ) وكدت أهم بالانصراف ، لكنه سرعان ما التفت نحوى ثانية قائلاً : هل تعرف أننى كنت أقتنى أن أكتب كتاباً عن جحا لكنى لم أكن أمتلك مثل هذه المعلومات التى تبينتها سريعاً من خلال موضوعات الفهرست فى كتابك ، مثلما فعلت مع "أشعب" فى كتابى "أشعب ملك الطفيليين" الذى كتبتة عام ١٩٣٨ حيث كنت أعلم أن له واقعاً تاريخياً محدداً ، وغمطاً من أنماط النوادر الفكاهية ؛ محدداً بالبخل والجشع والطمع<sup>(١)</sup>. ولم يكن كتاب "جحا الضاحك المضحك" لعباس محمود العقاد قد صدر بعد ، وحتى عندما صدر فى عام ١٩٥٦ ( دار الهلال ) وقرأته لم أجد فيه ما يشبع فضولى عن جحا ، أتدرى لماذا لقد تحدث العقاد فيه فلسفة الضحك عن الشعوب أكثر مما تحدث عن جحا وفلسفته الشعبية فى مصر ! .

---

(١) بالعودة إلى مقدمة كتابه عن أشعب ذكر الحكيم بالفعل أنه اعتمد فى جمع أخبار أشعب التاريخية والفنية على مرويوات الجاحظ وابن عبد ربه والخطيب البغدادى بما هى مصادر معتمدة ومتاحة آنذاك فى هذا الموضوع .

ثم فتح الحكيم الكتاب ثانية لإعادة تصفح ما كتبتة عن الحمار الجحوى الأكثر ذكاء وعن نوادره الأكثر شخراً ، وقرأ بعضاً منها وهو يضحك بصوت عال ، ثم قال لى : صدقنى لم أكن أعلم أن جحا شخصية حقيقية ، وأن نوادر جحا مع حمارة بهذا الحجم من الكثرة ، ولا على هذا القدر من العمق ، يبدو أننى كنت " جحوىاً " بالفطرة أو لعلى - لا شعورياً - تقمصت روحه المرحية وشخصيته الساخرة التى تتفق وشخصيتى وأنا أكتب كتابى : حمارى قال لى الذى كان فى الأصل سلسلة من المقالات كتبها فى عام (١٩٣٨) ، ثم ابتسم قائلاً لقد سميت " الفيلسوف " هل تعرف ذلك (١) ؟ إننى شخصياً تعلمت من صمته على الاضطهاد أشياء كثيرة جعلتنى أتعالى على تفاهات الحياة ، وأتجاهل حماقات البشر ، وأبتعد عن سفاسف الأمور ، بل دفعنى صمته وصبره على الإشفاق على الناس الأغبياء ... لازلت أذكر نادرة " جحا وابنه وحمارة " التى لم يكن والدى يمل من تكرار روايتها على مسمع منى ومن عائلتى الصغيرة ، منها تعلمت أن إرضاء الناس غاية لا تدرك ، فعصمنى ذلك من حساسية النقد عندما اشتغلت بالفكر والفن والمسرح . ثم كتبت بعد ذلك روايتى حمار الحكيم (١٩٤٠) ، وأخيراً مسرحية : الحمير (١٩٧٥) ، معبراً فيها جميعاً عن الكثير من آرائى الشخصية فى الحياة العامة والمشكلات التى ظلت تؤرقنى فى دنيا الناس ، كالسياسة والقضاء ، أو فى المرأة والمجتمع ، أو فى نفاق البشر وريائهم الممجرج ، ولو عدت لقراءته سوف تتجلى لك مواقفى وآرائى الثقافية والفكرية والروحية والاجتماعية والسياسية المعاصرة. ثم أردف ضاحكاً : هل تعلم أننى عضو مؤسس فى " جمعية الحمير " المصرية ؟ أجبته ضاحكاً بالإيجاب ، ثم هممت بالانصراف ، فعاد وأستمهلىنى - على غير طبعه - متسائلاً :

هل تحفظ شيئاً من أغانى الأطفال الشعبية فى الريف المصرى ؟ وهل يدرك أطفال اليوم مدلولاتها ومعانيها ... حتى وصلنا إلى الأغنية التالية التى يتكرر مطلعها الآتى على لسان أكبر الأولاد أو البنات :

---

(١) كان الحكيم يرى فى الحمار كائنًا عاقلًا فى إحدى مقالاته بعنوان " من هو حمارى " ، ويقول عنه : "أنه عندى كائن مقدس ... لقد أسميته الفيلسوف ، وقد علمنى أشياء كثيرة بمجرد صمته وارتفاعه عن لجج هذا البحر الخضم ، بحر السخف الإنسانى ... " .

انظر للحكيم : حمارى قال لى ( ١٩٣٨ ) ص ١١ - ١٢ . مكتبة مصر ، القاهرة (ب.ت) . انظر أيضًا ما نشره الحكيم بعنوان " حمارى الفيلسوف " ، طبعة كتاب أخبار اليوم .

يا عمّ ياللى ورا الحيط

إنتِ حلى ... واللا ضيف<sup>(١)</sup>

فترد المجموعة :

أنا ضيف ومعايا سيف

جائى أقطع روس الظالمين<sup>(٢)</sup> .... إلخ .

وفى كل مرة يكرر أكبر الأولاد المطلع وترد عليه المجموعة ردًا مغايرًا ، تستعرض معه الأغنية ضروب الظلم وأفراط الظالمين الذين يستحقون قطع رؤوسهم . فلما ذكرت له أنها أغنية من أغاني العمل التى كان يرددها فى الماضى أبناء الفلاحين الذين يعملون فى الحقول لتنقية أوراق شجيرات القطن من « الدودة » أو « اللّطع » التى يمكن أن تدمر محصول القطن (المحصول الرئيسى للفلاح المصرى آنذاك ) : ففرح الحكيم وأعاد ترديدها - مع تغيير طفيف- كما حفظها أثناء عمله وكيلًا للنائب العام فى الريف المصرى . ثم سألتنى بفتة هل يعرف الأطفال معناها ؟ قلت : نعم ، قال : كيف ؟ فلما هممت بالإجابة قاطعنى قائلاً : لا أظن ، سأقول أنا لك المعنى ، لأن لهذه الأغنية قصة معى .

إن المعنى فى هذه الأغنية مباشر ، إنه دعوة إلى الحلم بالخلاص وتحقيق العدل ومنع الظلم الواقع على الفلاح المصرى منذ أقدم العصور ... ولكنها فى رأى دعوة سلبية يائسة لأنها تنشد التغيير من الخارج لا من الداخل ! فالعمّ المنتظر أو البطل المخلص القادم " من ورا الحيط " الذى يحلم الشعب بالخلاص على يديه ليس بطلاً محلياً ( مصرياً ) ولكنه بطل من الخارج ، أى ضيف ليس من أهل البلاد بل أجنبى . ثم تساءل مستنكراً : أليست هذه الأغنية غريبة فى مغزاها ؟ وهل وصل بنا اليأس إلى حد طلب الخلاص من الخارج ؟ إنها كارثة وطنية بكل المعانى ، فأومات برأسى موافقاً ، فقال :

(١) معنى الكلام : يا أيها السيد. أو العم القادم من وراء الحائط ( كناية عن المجهول المكانى والزمانى ) ليخلصنا من ضروب الظلم ، وينقذنا من براثن الطغاة ، وتحقيق العدل : هل أنت من أبناء البلد أو المحلة أم أنت ضيف قادم من بلاد بعيدة ؟

(٢) وتكون الإجابة : ( على لسان مجموع الأطفال ) غريبة عجيبة ، فالبطل القادم للخلاص ضيف غريب وليس من أهل البلد ، وقد جاء حاملاً سيفه للقضاء على رؤوس الظالمين فى هذا البلد .



إننى كنت أنوى كتابة رواية أو مسرحية تجريبية ( طليعية ) على غرار المسرح الملحمى مستلهماً هذه الأغنية ومعارضاً لها ( على نحو ما فعلت فى عودة الروح ) . ثم قامت فجأة ثورة ٢٣ يوليو (١٩٥٢) وجاء البطل المخلص محلياً مغرقاً فى المصرية ، أعنى الزعيم جمال عبد الناصر . من الغريب أنه جاء مطابقاً للبطل أو لصورة الزعيم الذى كان من صنع خيالى ، وكنت أنتظره منذ ثلاثين عاماً ( لعله يقصد الفترة التى تقع بين كتابته لرواية عودة الروح حتى قيام الثورة ) كنت أرى فيه صورة وجدت فيه تحقيقاً لنبوءتى أنا أيضاً التى تنبأت فيها أو بالأحرى حلمت فيها بالبطل المخلص أو المنتقد ، كما ذكرت ذلك فى كتابى شجرة الحكم . هل قرأته ؟ وكما حلمت به أيضاً فى رواية عودة الروح قبل ذلك<sup>(١)</sup> ، فبادرت قائلاً : ولماذا تكون عبارة " من وراء الحيط " بالمعنى المكانى فقط ؟ لماذا لا تكون أيضاً بالمعنى الزمانى ؟ فقال كيف ؟ قلت أى من وراء الغيب : فى المستقبل مثلاً ، أليست هذه هى طبيعة الحلم الجمعى فى البطل المخلص القادم أو المنتظر فى الزمان الآتى دائماً ؟ فابتسم ثم قال : على كل حال ، لقد انتهت اليوم موجة التجريب فى المسرح الملحمى ، ومن ثم لا معنى للكتابة الآن و"البركة فى المسرحيين الجدد ، والأمل معقود على أدهاء الشباب " .

وطال الحديث الذى لم أكن أتوقعه ، معرباً عن سعادته باهتمام الدولة ومؤسساتها الرسمية الثقافية والأكاديمية والفنية بالعناية بالتراث الشعبى وتجلياته الأدبية والفنية . وأخيراً ودعته شاكرًا وانصرفت إلى بيتى فوراً لأسجل هذا الحوار الخاص الذى دار بيننا على غير سابق اتفاق ( وعندئذ كان لابد من تدوينه كتابة ، بحكم تكوينى المنهجى فى علم الفولكلور ، وهو ما

---

(١) بالعودة إلى كتاب شجرة الحكيم ( ١٩٤٥ ) نجد بالفعل أن الحكيم كان قد تنبأ بقيام " ثورة مباركة " سرعان ما تحققت بعد سبع سنوات بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . وهو ما يؤكد مرة أخرى فى كتابه " عودة الوعى " : " كان من الطبيعى أن أستقبلها بالحماسة وبالدهشة . فقد تحققت نبوءتى ، كأنما كنت أخط سطور المستقبل للوطن ... وظهر عبد الناصر ، وتبلورت شخصيته على أنه محط الآمال ، وتوثقت بينى وبينه أواصر المحبة القلبية ... وكان كما بلغنى يقدرنى ويكاد يعتبرنى أباً روحياً للثورة التى تنبأت بها ودعوت إليها " . انظر عودة الوعى : ص ١١٤ ، مكتبة مصر ، ١٩٧٤ .

وبالعودة إلى رواية عودة الروح ( ١٩٣٣ ) نرى الحكيم يتحدث عن ثورة ( ١٩١٩ ) وعن زعيمها الشعبى سعد زغلول ، باعتباره البطل المحلى المنتظر ، المنتقد أو المخلص ، فيقول " وها هى مصر التى نامت قروناً تنهض على أقدامها فى يوم واحد . إنها كانت تنتظر ... تنتظر ابنها المعبود ، رمز آلامها وآمالها المدفونة ينبعث من جديد ... ويعث هذا المولود من صلب فلاح " .

أنقل عنه ، وإن ظل محفوظاً ، بل محفوراً فى الذاكرة لأهميته القصوى بالنسبة لى ، ولم تكن فى النية نشره ) مكتفياً بترديده أمام طلابى فى مقاعد الدرس الفولكلورى كلما تحدثت عن تاريخ نشأة علم الفولكلور فى بلادنا وجامعاتنا ، أو كلما تحدثت - فى دروس الأدب - عن الحكيم ؛ فنائاً مبدعاً ومفكراً رائداً ، ومثقفاً وفولكلورياً حقيقياً مهموماً بقضايا وطنه وأمتة وشعبه ، وتحقيق إنسانية الإنسان .

قبل أن نختتم هذه الإضاءة التأسيسية ثمة أمل ورجاء : أن يأخذ هذا الكتاب - بطابعه التعليمى أحياناً - حظه من عناية القارىء ، وأن يحتشد له فى قراءته كاحتشادى له فى كتابته ، وأن يغفر لى ضنى بدراسة النصوص الأخرى للحكيم ؛ بما هى - على كثرتها - نصوص متفاعلة أو متداخلة مع نصوص الإبداع الشعبى الثقافى والدينى والتاريخى والأسطورى والخيالى ، فذلك معروف ذائع ، أو بالأحرى خارج عن حدود المنهج الذى التزمت به هذه الدراسة ، والغاية التى تغيتها ، على أمل أن يتصدى لهذا الموضوع آخرون بشئ من التفصيل ، ناهيك عن ندرة الدراسات النقدية المتعلقة بالحكيم ، وقلة المراجع المتاحة لى فى الكويت عنه ، إبان كتابة هذه الدراسة التى يمكن أن تنبئ - عن كثير ، وأن تحفز زملاى من الشباب المشتغلين فى حقول النقد والمسرح والفولكلور ؛ فيكون جزائى عنها بقدر ما فيها " هنا والآن " من منفعة ومتعة فى آن .

وفى المختتم الأخير ثمة شكر وتقدير : لثلاثة أصدقاء أعزاء على القلب والعقل معاً استدعت هذه الدراسة - أثناء إعدادها - حضورهم العلمى فى رؤيتها ومنهجها وغايتها ؛ هم : أحمد مرسى : أستاذ الفولكلور بجامعة القاهرة الذى غرس فى وجدانى عشق الأصالة الشعبية ، فى معناها الإنسانى النبيل ، إبداعها الجمالى والفكرى الأصيل .

جابر عصفور : أستاذ النقد بجامعة القاهرة الذى أضاء - بدراساته النقدية الرائدة - أمامى الطريق إلى " نقد ما بعد الحداثة " فكان أن تجاوزت به ومن خلاله عقم المناهج التقليدية فى الدراسات الأدبية الفولكلورية .

فوزى فهمى : الناقد والكاتب المسرحى المتيم بعشق التراث الشعبى والتعالتى معه فى نصوصه الإبداعية . ولن أنسى له - أثناء رئاسته لأكاديمية الفنون - أن أتاح لى القيام بتدريس مقرر إلزامى على طلبة الدراسات العليا فى الأكاديمية ، على تعدد معاهدها ؛ هو مقرر سوسيولوجيا الفولكلور ، يومها ازدادت إيماناً - فى هذا الجو الفنى والأكاديمى - بأن

٢١

اعتصامنا الإبداعى بفنوننا الشعبية - قبل غيرها - هو سبيلنا إلى العالمية - فى مجال فنوننا المعاصرة - تأسيساً وتأصيلاً وتجريباً فى آن .

كذلك يتوجب الشكر إلى كل من أبنائى الأعزاء : فوزى الزيات وجاسم الفريح وهانى النجار وطارق جاد الله ونادر جلال الشايبورى الذين تعاونوا فى طباعة هذه الدراسة ومراجعتها؛ جزاهم الله عنى وعن العلم خير الجزاء وعظيم الإحسان

والحمد لله من قبل ومن بعد ، على ما وفق وأعان

**محمد رجب النجار**

أستاذ الفولكلور - جامعة الكويت

١ / ٦ / ٢٠٠٠ م



## أولاً التكوين الفولكلورى للحكيم

كثير من النصوص الإبداعية للحكيم تدين فى تخلقها وتشكيلها إلى هذا التكوين الفولكلورى الذاتى المبكر ( جنباً إلى جنب مع الروافد الأخرى التى رفدت - وبالقدر نفسه - الذات الإبداعية للحكيم ) والحديث هنا عن هذه الذات الفولكلورية للحكيم إنما يعنى ببساطة الحديث عن مراحل تكوين المخزون الثقافى الفولكلورى أو الشعبى الذى يحلو للحكيم أن يطلق عليه " مخزون المواد الأولية فى الأدب " (١) الذى ظل الحكيم يتمتع منه معظم إبداعاته ولا سيما مسرحياته الذهنية أو التجريبية ، ومن ثم يعنى أيضاً الحديث عن مصادره التكوينية ( الفولكلورية خاصة ) المؤسسة للمنابع الأولى لمشروعه المسرحى ، والأكثر تأثيراً فى حياته الفنية وفى تكوينه النفسى والفكرى ، الجمالى والمعرفى ؛ وقد تجلّى هذا التكوين عبر مرحلتين مائزتين هما :

### مرحلة التنشئة الاجتماعية : « فولكلورياً » :

نجد هنا ما قاله الحكيم تفصيلاً فى كتابه حياتى أو ( سجن العمر ) أنه نشأ فى أسرة تؤمن بالمعتقدات الشعبية وما يتعلق بها من إيمان بالجن والقرى الخارقة والسحر والتنجيم والأحجية والتمائم ... إلخ (٢) وأنه كان فى طفولته المبكرة ( مرحلة ما قبل المدرسة ) يشارك أمه وجدته الاستماع " إلى أعاجيب ألف ليلة وليلة والقصص الشعبى " التى كان يقرأها عليهم بعض أفراد الأسرة وكان لأمه ولع خاص بذلك ( ألبست المرأة حاملة التراث الشعبى ؟ )

---

(١) توفيق الحكيم : أدب الحياة ، ص ١٢٢ ، ١٢٥ ، مكتبة مصر ، ١٩٧٦ .

(٢) حياتى : ص ١١ ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٤ .

حتى إنها تعلمت القراءة كما يقول : " من أجل أن تقرأ بنفسها هذه القصص والروايات التى سحرت بها " (١) كما أنها أيضاً كانت تصحبه كثيراً لزيارة أولياء الله الصالحين طلباً لشفاة من الأمراض التى ألمت به فى طفولته (٢). ثم شعر الحكيم بالفن الشعبى - على حد تعبيره - فى صورة أخرى تجلت له فى مشاهدة " مولد " سيدى إبراهيم الدسوقى ، وإعجابه بالطقوس الاحتفالية الشعبية المصاحبة لهذا " المولد الشعبى " . كما تجلت أيضاً فى مشاهدته للمواكب الشعبية ( الكرنفالية ) التى كانت تمر سنوياً تحت نوافذ منزل الأسرة ، ومنها " ركبة الخليفة على حصانه شاهراً سيفه " (٣).

كذلك كان لدى أسرته خادم يذهب فى الليل إلى مقهى بلدى فيه " شاعر بريابة " يروى عليها قصة أبى زيد الهلالى ودياب بن غانم والسفيرة عزيزة . وعندما يعود الخادم إلى المنزل يشرح فى رواية ما قاله الشاعر الشعبى على الحكيم ( الطفل ) فى اليوم التالى مباشرة ، والطريف أن هذا الخادم كان يتقمص هو والحكيم - الطفل - بعض شخصيات هذه القصص إذ يقول على لسان هذا الخادم :

" أنا أبو زيد الهلالى وأنت الزناتى خليفة ... ثم يسرد على ما سمعه من الشاعر ليلاً ... فكانت تقع هذه القصص من نفسى موقعاً حسناً ، ونمضى أوقات العصر كلها فمثلاً وتبارز " (٤).

ثم يضيف الحكيم :

" على أن الذى جعلنى أعيش هذه القصص بكل وجدانى ، على نحو أعمق ، هو ظرف آخر : طول رقاد والدتى ، فقد اضطرها إلى شغل الوقت بقراءة قصص ألف ليلة وليلة ، عنتره ، حمزة البهلوان ، سيف بن ذى يزن ... ونحوها . كانت فى أجزاء طويلة ، لا تكاد تنتهى من جزء حتى تقص علينا ما قرأت ، لا تترك تفصيلاً إلا حاولت تفصيله ، فكنت أنا وجدتى نجلس إليها ، وكلنا آذان تصفى

---

(١) نفسه : ص ١٧ .

(٢) نفسه : ص ٥٩ .

(٣) نفسه : ص ٧٨ .

(٤) نفسه : ص ٨١ .

بانبيهار ، وكان أحياناً ينضم إلينا والدى ( القاضى ) وكأنه أصيب بالعدوى منا ، فإذا انتهى السرد بأبطال القصة فى موقف ، لم يزدنا إلا اشتياقاً إلى البقية ... قالت والدتى : انتظروا حتى أقرأ الجزء التالى ، وتتركنا على أحر من الجمر ، ونحن نعيش بكل أرواحنا على أولئك الأبطال ، ننتظر العودة إليهم ... حتى فرغت كل تلك الملاحم الشعبية القديمة بطبعاتها الرخيصة المشوهة ... كان لهذا ولا شك فضل كبير لوالدتى لا ينكر فى تفتيق خيالى منذ الصغر" (١) .

ما كاد الحكيم يدخل المدرسة الابتدائية ، ويتعلم أوليات القراءة حتى بادر - معتمداً على نفسه - فأعاد قراءة هذه القصص والملاحم الشعبية ( وبالنسبة فإن الحكيم أيضاً كان أول من استخدم مصطلح " ملحمة شعبية " موازياً لمصطلح " السير الشعبية " كما هو ذائع فى بيناتها التداولية ) ، ثم يقول :

" ... صرت أبحث عن هذه القصص والروايات التى كنت أراها فى يد والدتى ، فاستخرجها من صناديق الأمتعة القديمة ، وأعكف على قراءتها بسرعة " (٢) .

وظل تأثير أمد حاضراً متواصلاً فى تنشئته مثل هذه التنشئة التقليدية ( الفولكلورية ) ، فقد كانت أيضاً هى سبيله للتعرف أيضاً على عالم " عوالم الفرح " ومنهم الأسطى حميدة التى يتحدث الحكيم كثيراً عنها بإعجاب قائلاً :

" كان صوتها يشجيني وحفظت كثيراً من الأغاني الشعبية التى كانت تغنيها " (٣) ويذكر الحكيم أيضاً أنه " ورث عن أبيه روح السخرية والفكاهة الشعبية التى تنبعث من أقواله وأفعاله دون تعمد " (٤) كما يذكر أيضاً أنه بسبب عمل والده قاضياً ، فإنه كان دائم الترحال بأسرته من بلد إلى بلد فى كل

---

(١) نفسه : ص ٨١ - ٨٣ .

(٢) نفسه : ص ٨٣ .

(٣) نفسه : ص ٩١ .

(٤) نفسه : ص ٢٧٨ .

أرجاء مصر ، الأمر الذى أتاح للحكيم أن يرى فى طفولته وصباه صوراً أخرى للبولكلور الريفى وأن يعايشه ، كما أتيح له أن يعيش فولكلور المدينة ، من قبل ومن بعد .

يضيف الحكيم أيضاً فى فصل بعنوان " من فن الطفولة " من كتابه فن الأدب (١٩٥٢) ، معبراً عما اختزنه فى ذاكرته النصية من مرحلة التنشئة الاجتماعية ، فيقول :

" إذا أردت أن تعرف ما هو أروع صوت كان يبهز مشاعرنا ونحن صغار ، فاعلم أنه صوت الطبل لا " الجيش المطفر " ولا طبل " حراس المحمل " تدق من فوق الجمال المذوقة ، ولا حتى طبل " المسحراتى " فى ليالى رمضان الساحرة (وكلها احتفاليات شعبية ) بل طبل صغيرة متواضعة هى طبل " الأراجوز " إذا اقترب من حيناً .

عند ذاك ترى العجب : أفواجاً من الأطفال يخرجون من بيوتهم ركضاً ، كأنهم جنود ، يهبنون من ثكناتهم على دقات طبل " الطابور " ! ويجتمعون كالنمل فى تلك الساحة ، حيث ينصب الأراجوز مسرحه الضيق المرتفع ... بشخصه المتحركة المتكلمة الصاخبة ، أو تلك التى نسميها نحن الكبار الآن "دمى" .

إن كل فنون الأرض اليوم لتعجز عن أن تجعلنى أرى ما كنت أراه فى دمي الأراجوز الرخيص ... وأن كل قرح الدنيا لا يثير فى مشاعرنا ما كانت تثيره دقات طبلته المتواضعة وهو يقترب من حيناً .. " (١) .

ويرى الحكيم - فيما بعد - أن الأراجوز يتسم - فنياً وجمالياً - بالبساطة الشديدة "ولكنه يمتلئ بالفن الأصيل " ومن ثم فأصحابه لا يكلفون أنفسهم جهداً ولا نفقة ولا حذقاً فى إخراج دُمَاهم أو صورهم على نحو متقن ... مبرراً ذلك بأن :

" الطفل لا يرى الأشياء بعينه ، بل يراها بخياله ... وأن الحقيقة عنده ليست فى الإطار الخارجى للأشياء ، بل فى المعنى الذى ترمز له ... ليس يعنى الصبى أن يكون سيفه من صفيح أو من حديد أو خشب . إنه سيف و كفى ...

---

(١) فن الأدب : ص ٣٩ ، مكتبة مصر (١٩٧٤) .



فطن إلى ذلك أصحاب " الأراجوز " أو " صندوق الدنيا " : فتراهم لا يكلفون أنفسهم جهداً ولا نفقة ولا حذقاً ، فى إخراج دُمَاهم أو صورهم على نحو متقن كل الاتقان ! ... لكنهم يقولون لأنفسهم : " وما فائدة ذلك ؟ ... إن المخرج الحقيقى هو الطفل نفسه ! " ... نعم ... يكفى أن يظهروا له قطعة من الخشب ، رديشة الحفر والنحت والنقش ، يلفونها فى خرقة سوداء قائلين : إنها امرأة شرقاوية ، وعلى الطفل الباقي ! ... إنه هو الذى يلبس هذه الخشبة لحماً ودماً ، ويُنحها حجماً وروحاً ، ويخلقها إنساناً حياً يعرفه ويحادثه ويعيش معه! (١) ..

أما نحن الكبار فقد ضاعت منا القدرة على الحياة فى " المعنى " ، ولم نعد نستطيع العيش إلا فى " المادة " ! ... وقد انكششت الحقائق فى نظرنا : فلم تعد نبصر غير حقيقة الإطار الخارجى للأشياء ، ولم يعد فى مقدورنا أن ننفع الروح فى شيء ... لا بد لنا إذن من فنان - وما الفنان إلا إنسان احتفظ ببعض قوى الطفولة - ينسج لنا أوهاماً وأخيلة وصوراً ، توسع لنا قليلاً من أفق حياتنا المادية الضيقة .

يقرع صاحب " الأراجوز " طبلته ، وهو يعلم أنه سيجتمع حوله رهط من الفنانين الخالقين فى صورة أطفال وصبيان ! .. ويعرض صاحب المسرح روايته حاشداً لها خيرة المؤلفين والمخرجين والممثلين ، وهو يوجس خيفة من أن يخفقوا فى رفع جمهور الكبار ، من حياتهم الأرضية إلى عالم المعنى والخيال! (٢) .

ذلك أن " المخرج الحقيقى هو الطفل نفسه " على حد تعبيره ، ثم يضيف : أنه شاهد فى أوروبا سنة ١٩٣٦ مسرحية " فاوست " لجوته مرتين ، مرة يقوم بتمثيلها ممثلون كبار ، ومرة يقوم بتشخيصها دُمى الأراجوز ... فعجب بهذه المشاهدة أكثر من الأولى ، ذلك أن هذه الدمى كما يقول : " كَمْ حركت مخيلتنا بما يذكروننا بماضينا " (٣) وهى روية فنية ورومانسية فى آن ، سواء أخذنا بمقولة " إن الفولكلور يخاطب الطفل الكامن فينا " أو أخذنا بمقولة الحكيم نفسه " وما الفنان إلا إنسان احتفظ ببعض قوى الطفولة فى ذاته " (٤) .

(١) نفسه : ص ٤٤ .

(٢) نفسه : ص ٤١ .

(٣) نفسه : ص ٤٣ .

(٤) نفسه : ص ٤٥ .

ولم تكن قوى الطفولة عندئذ إلا المخزون الفولكلورى المتراكم الذى اختزنته - منذ نعومة أظفاره - ذاكرته النصية - أو مخازن وعينا الظاهر والباطن على حد تعبيره ، فإذا هو - هذا المخزون - مع الزمن شئ ثمين ولا يعرف قيمته إلا المبدعون . وإذا كان بعض علماء الفولكلور فى القرن الماضى يرون أن الفولكلور هو الغرفة الخلفية للتاريخ فإن الحكيم كان يسميها الحجرة الفقيرة التى تتحول محتوياتها يوماً أو عند الحاجة إلى كنز دفين أو مخبوء لا يقدر بشئ فى رأيه وخاصة فى مجال الحديث عن مصادر " الإلهام فى الأدب والفن " حيث يقول ما نصه :

" ولكن هناك الحجرة المعدمة الفقيرة ، شاء لها حظها أن توجد فى قبر مظلم كالقبر ، لا قيمة لها فى ذاتها ، ولكن صاحبها يكسب فيها من حين إلى حين كل ما يصادف من غال ونفيس ، فإذا هى مع الزمن كنز مخبوء لا يقوم بمال... " (١) .

يصف الحكيم هذه المرحلة من حياته فى كتابه حياتى ( أو سجن العمر ) بما هو سيرة ذاتية بقلبه بأنها سنوات " تكوين الطبع " على حد تعبيره (٢) وإن كان لم ينته إلى تسجيلها وكتابتها إلا متأخراً ( أى بعد أن كتب كتابه الذائع زهرة العمر الذى وصف فيه سنوات التكوين الفكرى إبان المرحلة الباريسية ) ، إذ أدرك عندئذ أنه مسدين فى تكوينه السوسيوثقافى والفنى العام أساساً إلى سنوات الطفولة والصبا فى مصر (٣) وهو ما يفسر لنا سبب اعتذاره عن خطأ صدور كتابه زهرة العمر (١٩٤٣) قبل أن يصدر كتابه الآخر حياتى أو سجن العمر (١٩٦٤) حيث " وعى الطبع سابق - بالضرورة - على وعى الفكر " على حد

---

(١) انظر للحكيم مقالاً بعنوان الإلهام فى الفن والأدب فى كتابة أدب الحياة ، ص ١٥١ - ١٥٤ ، مع ملاحظة أن تعبير القبو المظلم يعنى الذاكرة النصية اللاواعية التى يمكن أن يستدعيها واعياً متى شاء ذلك .

(٢) حياتى : ص ٢٨٢ .

(٣) فى كتبه الأخرى - مثل فن الأدب وحياتى وتحت شمس الفكر ومع الزمن - يذكر الحكيم أنه عندما بلغ العشرين من عمره ( فترة التحصيل الجامعى ) كان قد تأثر بالروح الشعبية لشوة ١٩١٩ التى أنجبت سعد زغلول ( البطل الشعبى العظيم ) كما أنجبت نخبة من المبدعين الشعبيين الذين تأثر بهم ، وعلى رأسهم سيد درويش ( عبقرى الموسيقى الشعبية ) وبيرم التونسي ( أعظم شعراء مصر الشعبيين ) وهذه النعوت الموضوعية بين قوسين هى للحكيم نفسه .

قوله ، مشيراً في الوقت نفسه إلى أثر هذه المرحلة في تكوين ذاته الإبداعية ، مستشهداً على ذلك بمقولة شارلز ديكنز وهو في سن الستين : " إنني دائماً أتغذى وأغذى قصصى ومؤلفاتي بذكريات الطفولة والصبا " (١).

### مرحلة التنشئة الثقافية « فولكلورياً » :

يطلق الحكيم في ( حياتي ) على هذه المرحلة اسم مرحلة " تكوين الفكر " كما يطلق عليه أيضاً في كتابه أدب الحياة : مرحلة " التكوين الثقافي " ، ويعنى بهذا التكوين " الإحاطة بالمعرفة من منابعها الأولى إلى آخر ما وصلت إليه " (٢) في أوروبا وهي مرحلة التي بلغت ذروتها أثناء دراسته في باريس (١٩٢٥ - ١٩٢٨) ولهذا لا غرو أن يصفها بأنها " أيام الجهاد الثقافي الشامل الذي ألقى بنفسى كلها في لجته ، مع النهم الفكري الذي استولى على " ، أمام موائد الحضارة الكبرى " (٣) وسبق أن وصف أيضاً هذه المرحلة الباريسية بأنها أيضاً " سنوات الكد في سبيل التكوين الفني " (٤) التي عمقت لديه الوعي المعرفي والثقافي ، والفكري والفلسفي ، والتاريخي والنقدي ، والجمالي والفني . وأن باريس كما وصفها في إحدى رسائله ، بالنسبة إليه " إنما كانت كتاباً مفتوحاً هو سفر الحياة العليا " بكل ثرائه الحضاري والثقافي والفكري والعلمي والإبداعي .

فانكب الحكيم على هذا السفر يلتهم - ما وسعه الالتهام - كل ما تصل إليه يده ، أو تشاهده عينه ، أو تسمعه أذنه ، في دهشة وانبهار عظيمين على نحو ما ذكر في كتابه زهرة العمر : حتى عاش حياة الكفاف من أجل أن يتعرف على هذا الآخر وثقافة الآخر ، وتراث الآخر . وحاول أن يغترف من كل شيء وأن يهضم كل شيء ، قديمة وحديثه على السواء ، أكان هذا الآخر متجلياً في الثقافة الإغريقية والعالمية الموروثة أم في الثقافة الأوروبية الحديثة. وقد بدا له يومئذ كل شيء جديداً يتعرف عليه لأول مرة ، الأمر الذي أتاح له أن يمتلك رؤية شمولية نحو ثقافات العالم ، قديمها وحديثها ، وأن يرى ذاته في مرآة الآخر " ولم يبق لى إلا

(١) أدب الحياة : ص ١٢٦ .

(٢) توفيق الحكيم : أدب الحياة ، ص ١٣ ، ص ١٥٢ .

(٣) نفسه : ص ٢٩٣ .

(٤) زهرة العمر : ص ٦ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٥ .

الحسرة على نفسى والإقرار بعجزى " على حد تعبيره <sup>(١)</sup>. إزاء هذه الصدمة الحضارية التى مر بها الحكيم ، شأنه شأن كل أبناء جيله على الرغم من عراقة الثقافة الشرقية ( المصرية والإسلامية ) التى يحملونها بين جوانبهم .

وسرعان ما احتدم الصراع فى نفسه بين الثقافتين ، فانحاز أول الأمر إلى ثقافة الآخر المتقدم والغالب ، إلى حد التماهى فيه والانحياز الأعمى له . ولم يعرف عندئذ ماذا يأخذ من ثقافة الآخر وماذا يترك حينئذ ، حتى على مستوى الرؤية المسرحية واتجاهاتها الفنية : فكل شىء بالنسبة إليه جديد :

" لكنى فى الوقت ذاته شرقى جاء ليرى ثقافة الغرب من أصولها ، فأنا بين ما ترى بين الكلاسيك والمودرن . لا أسطيع مع الثائرين فليستقط القديم ؛ لأن هذا القديم أيضاً جديد على فأنا مع أولئك وهؤلاء " <sup>(٢)</sup>.

ويعنيانا من ذلك كله ما يتعلق بالوعى أو البعد الفولكلورى ، إذ اكتشف كما يقول أن الروائع من المسرحيات العالمية التى شاهدها لكبار الكتاب مثل أريستوفان ويوربيدس وسوفوكل وشكسبير وكورنى ورأسين وموليير وفولتير ومترلنك وجيرودر وبيرانديلو وأبسن وبرنارد شو وجان كوكتر وبريخت وسارتر وكامى وأونسكو وبيكت ... إلخ . وجدها تتأسس أو تتناص ( إذا شئنا استخدام المصطلح النقدي الجديد ) أو كما يقول تستلهم فى تكوينها وتشكيلها الأساطير والنصوص الشعبية الأوربية والإغريقية والعالمية ( بما فى ذلك الليالى العربية ) .

وقد صحب هذا الوعى بالآخر لديه وعى آخر ، هو الذى يعنيانا هنا ، بما هو وعى مواز بضرورة استلهام التراث العربى ، على نحو ما يفعل كبار كتاب المسرح العالميين فلما عاد إلى مصر سنة ١٩٢٨ عكف فوراً على إعادة قراءة الأدب العربى ، برؤية جديدة هذه المرة ، رؤية قوامها الوعى بالآخر ، وبتراث الآخر ، وتجاريبه الإبداعية ورؤاه الفنية والجمالية المتنوعة . وهذا يعنى - بالطبع - أنها لم تكن قراءة محايدة ، وإنما كانت قراءة تتحكم فيها وتسيرها علة غائية ، ولذلك لا يتردد الحكيم - رجل القانون الأول - فى إحدى رسائله الشهيرة إلى صديقه الفرنسى أندريه ، أن يبرح له قائلاً :

(١) صلاح طاهر : أحاديث مع توفيق الحكيم ص ١٢٢ ، دار الكتاب ، القاهرة ١٩٧١م .

(٢) زهرة العمر : ص ٣٣ .

إنى الآن غارق فى الأدب العربى أريد أن أدرس قضيته من أساسها ، أريد أن أعيد النظر فى أمر اللغة العربية - لغتى - وأكشف أسرارها وأضع إصبعى على مواطن ضعفها وقوتها . هذا الوقت هو خير وقت أستطيع فيه أن أرى وأميز وأحسن الحكم ، فلى عينان قد طافتا - منذ أمد ليس بالبعيد - بمختلف الآداب العالمية . ولقد نجحت فكرتى حقاً . إنى أقرأ نصوص هذا الأدب فى عصوره المتعاقبة بعين جديدة ، عين عامرة بالصور حافلة بالمقارنات ، وينفس رحيمة عادلة صابرة تلتمس العلل والأسباب ، وتطيل التريث والبحث قبل أن تصدر الأحكام" (١) .

غير أن هذه الأحكام لم تكن فى نهاية الأمر لصالح الأدب العربى الرسمى ، فإذا هو : "خلق فنى يبدو لى ناقص التكوين ... والسبب فى ذلك بسيط أيضاً ، إذا تأملت الآداب القديمة كلها وجدت أنها قد عاصرتها فنون كبرى ، خذ مثلاً مصر القديمة والهند والإغريق والرومان ... لقد كانت المعابد العظيمة والتماثيل الرائعة خليفة أن يعاصرها أدب يضارعها فى قوة البناء ودقة التركيب وروعة الفن ( الملاحم والتماثيل والقصص ) ... " (٢) .

ويرجع الحكيم ذلك النقص الإبداعى التكوينى إلى أسباب ثقافية واجتماعية واقتصادية كانت قائمة قبل الإسلام ، غير أنها سرعان ما تلاشت بقيام الحضارة العربية الإسلامية وما صاحبها من استقرار سياسى ومن ثراء مادى وفكرى عالمى ، فضلاً عن ازدهار للفنون الأخرى باستثناء الإبداع الأدبى ( يعنى الأدب الرسمى ) ، إذ ظل عاجزاً عن مسايرة تلك النهضة الحضارية الجديدة (٣) فقد ظل على حاله :

" بما فى ذلك النثر ( الكتابى ) الذى لم يحاول أن يزيد فى قوالب نشره ، أو أن يساير تلك الفنون المعاصرة حتى بدا للأجيال اللاحقة فى ذلك الفقر الظاهر ... والواقع أن الأدب العربى الإنشائى لا يختال للأنتظار إلا فى ثوين معروفين :

(١) نفسه : ص ١٢٨ .

(٢) نفسه : ص ١٣٤ .

(٣) نفسه : ص ١٣٤ - ١٣٥ .

الرسائل والمقامات ... والمقامات أعمال قصصية ، قصد بها سرد حكاية وتصوير أشخاص ، ولكن الإغراق فى الوشى اللفظى ، والاحتفال بالوضع اللغوى صرف هم الكاتب عن التعمق فى التحليل ، وبالإفاضة فى السرد ، والإجادة فى البناء . فالأدب العربى الإنشائى قد عنى باللفظ أكثر مما يجب ، ولم يشأ أن ينزل عن تكلفه الذى يعتبره فصاحة وبلاغة ، ليصور ما يجيش فى نفس الشعب من إحساس ، ولا ما يهيج من خيال " (١) .

وقد ظل الأمر على حاله - كما يقول - حتى ازداد سوءاً فى عصور المالك والعثمانيين ، فإذا ما جاء عصر النهضة الحديثة لم يتغير أدبنا ، وظل على ما هو عليه حتى الثلاثينيات من هذا القرن ، باعتباره كما يقول :

" أدب علب محفوظ من التعبيرات المستعارة ، والأساليب ( الأكلشييات ) المستخرجة من خزائن الأقدمين " (٢) .

ويبرر الحكيم ذلك الجمود الأدبى بقوله إنه " أدب الغرف المظلمة " وليس " أدب الحياة النابضة " أو " أدب الهواء الطلق " على حد قوله (٣) . وهذا يعنى - فى المعصلة الأخيرة أن الحكيم يعلن أنه لم يستفد فى تنشئته الثقافية بالأدب العربى الرسمى فى شىء قدر ما أفاد بعد ذلك من الأدب العربى الشعبى كما يقول ، حيث وجد فيه " ضالته " الفنية التى تشبع " ذائقته " الأدبية والجمالية والفنية .

الأمر الذى انتهى بالحكيم آنذاك إلى أن يكتب أيضاً رسالة مماثلة إلى عميد الأدب العربى ( مؤرخة فى مايو ١٩٣٣ ) نشرها فى كتابه تحت شمس الفكر ( ١٩٣٨ ) يؤكد فيها رأيه ورؤيته فى الأدب العربى الرسمى بأنه أدب :

" لا يقوم على البناء ، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ، إنما هو شىء مرصع جميل يلذ للحس ، فسيفساء اللفظ والمعنى ، وآرابيسك العبارات والجمل ... وحتى إذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل أدب قائم على البناء ، فلم ينقلوا

(١) نفسه : ص ١٣٥ .

(٢) توفيق الحكيم : بقطة الفكر ، ص ١٠٦ ، مكتبة مصر ، طبعة ١٩٨٨ م .

(٣) لمزيد من التفصيل : انظر المصدر السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٨ .

ملحمة واحدة ، ولا تراجيديا واحدة ، ولا قصة واحدة . العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية فى العمل الفنى الكبير ... إلخ " (١) .

وفى ضوء هذه الدراسة الجريئة والرائدة فى رؤيتها (١٩٣٣) يتأكد لدينا أن الحكيم بدأ حياته الثقافية والأدبية فاقداً الثقة بالأدب العربى الرسمى (٢) ، بما هو خلو من التسرّات الملحمى والإبداع القصصى والنتاج التمثيلى ، وكأن أدبنا بدع بين آداب الشعوب ... ألم أقل أن قراءة الحكيم للأدب العربى الرسمى كانت قراءة غائبة تبحث عن منابع صالحة للاستلهاهم المسرحى وتحقيق مشروعه الإبداعى ، كما هو الشأن فى الأدب الغربى ، وعلى نحو ما يفعل كتابه الكبار ؟ ومن ثم كان السؤال الفارق الذى لا يبارح ذهن الحكيم : ما العمل ؟ وكيف السبيل إلى الخروج من هذا المأزق التراثى الرسمى : تراث الصفوة أو النخبة التى لم يجد الحكيم فى تراثها ضالته التأسيسية ؟ .

---

(١) نفسه ، ص ١٣٨ . انظر أيضاً تحت شمس الفكر ص ٤٤ - ٥٤ ، والنص منقول من ص ٤٩ . مكتبة مصر (١٩٣٨) وإن كان ثمة استثناءات محدودة عنده مثل أدب ابن المقفع والجاحظ والهمداني والتنوخي والأصفهاني والحريري والمنتبى وأبى العلاء المعري وابن خلدون ، خاصة فى إبداعاتهم الفكرية والسردية ، الشعرية والقصصية .

انظر أيضاً : مقدمة كتاب الحكيم " أشعب ملك الطفيليين " للوقوف على مدى اهتمام الحكيم بالتراث السردى القديم ، ص ١١ - ١٣ . مكتبة مصر (١٩٣٨) .

عن النشر العربى القديم من الشفاهية إلى الكتابية ص ٢٤٩ - ٣٣٤ ، دار الكتاب الجامعى ، الكويت ، ١٩٩٦م .

(٢) لا معنى لمناقشة الحكيم فى رؤيته القاسية والغائبة للأدب العربى الرسمى لسبب بسيط ، هو أنه سوف يتصلح معه فيما بعد ، كما سيأتى فى هذه الدراسة .





## ثانياً الحكيم والبحث عن منابع جديدة لمشروعه المسرحي

فى ضوء هذا المأزق الثقافى والأدبى التراثى انكب الحكيم على قراءة الأدب الشعبى الإسلامى ( والمصطلح له ) باعتباره جزءاً من موروثه الثقافى والأدبى ؛ لعله يجد فيه سبيلاً إلى الخروج من هذا المأزق ، أو بالأحرى سبيلاً إلى الخروج بمشروعه المسرحى إلى حيز التنفيذ . وعلى الرغم من أن هذه القراءة لم تكن بريئة تماماً عندئذ ، بما هى قراءة باحثة عن منابع الاستلهام من ناحية ، وطريقة إلى التأصيل والتأسيس لأدب مسرحى عربى قادر على الانتماء ، والاندماج فى بنية الثقافة العربية من ناحية أخرى ، وبما هى أيضاً سبيله - كما يصرح فيما بعد - إلى الانتصار فى معركته " معركة المجددين مع الجامدين " على حد تعبيره من ناحية ثالثة ( كان الجامدون - على حد تعبيره يرون فى الكتابة المسرحية والقصصية - آنذاك - فنوناً " سوقية ولقيطة " لا تليق بأرباب الأدب الرفيع . فقد انتهت هذه القراءة به إلى كثير من " الاكتشافات الإبداعية " التى لم يكن يتوقعها - كما يقول - على هذا النحو من الشراء المعرفى والتاريخى ، الفنى والنقدى .

### الحكيم والوعى المعرفى والتاريخى بالأدب الشعبى :

وكانت هذه الاكتشافات التى لم يكن يتوقعها كامنة فى الأدب الشعبى ، حيث عثر على ضالته ينبوعية التى افتقدها - وافتقدها معه العقل العربى والمخيلة العربية - على مستوى الثقافة العالمية والأدب الرسمى . ولترك الحكيم يحدثنا عن دهشته بالأدب الشعبى الذى سد هذه الثغرة الفنية والحضارية ، وأعاد - كما يقول - للأدب العربى وجوده وكيونته الفنية والأدبية ، وأظهر وجهه الحقيقى وتكامله الإبداعى وثرأه الفنى وجماليات تشكيله ، شأنه

عندئذ شأن الآداب العالمية الأخرى ، حيث يقول الحكيم عام ١٩٢٨ معبراً عن دهشة الاكتشاف وثناء النتائج ، وذلك فى إحدى رسائله إلى صديقه الفرنسى أندريه ، ونعتذر سلفاً عن نقلها كاملة - على طولها - باعتبارها رسالة / وثيقة تاريخية وعلمية ينبغى أن تأخذ مكانها فى تاريخ الدراسات الفولكلورية العربية ، وتكشف عن وعى تاريخى مبكر بجدوى التراث الشعبى فى هذا الزمن المبكر ، وقبل أن يحظى الأدب الشعبى العربى بأى اعتراف أكاديمى . يقول فى هذه الرسالة / الوثيقة معبراً عن رؤيته ودهشته واكتشافه العظيم لكنوز التراث الشعبى العربى :

" وهنا حدث أمر عجيب ، إن روح الشعب لا تقهر ، هذا الشعب فى عصور الحضارة الإسلامية المختلفة قد تعطش للون جديد من الأدب ، غير لون البداوة الأولى ، لون من الأدب مستمد من إحساسه هو بالحياة الجديدة المتطورة والمتغيرة ، أدب جديد قائم على فن مشابه ومسائر للفنون الزاهرة المعاصرة ... فلما لم يشأ أدباء الفصحى أن يمدوا الناس بحاجاتهم ، لجأ الناس إلى أدباء من بينهم ، لا يملكون أداة اللغة ، ولا جمال الشكل ، ولكن يملكون السليقة الفنية وروح الخلق . وهنا ظهر الأدب الشعبى ...

فما ظهور الأدب الشعبى أحياناً إلا علامة قصور أو تقصير من الأدب الرسمى ( لاحظ مصطلحات الحكيم ) أو صرخة احتجاج على جمود الفصحاء ... هكذا ظهر القصص الشعبى الشعبى فى صورة عنترة ومجنون ليلى ... إلخ.

وسارت الحضارة الإسلامية فسار معها الأدب الخيالى الاجتماعى الشعبى ، فإذا نحن أمام عمل فنى رائع هو ألف ليلة وليلة ، وقصة أبى زيد الهلالي وسيف بن ذى يزن ، والظاهر بيبرس ... إلخ .

ومن الغريب أنك إذا تأملت التصميم الفنى والبناء الروائى لهذا الأدب الشعبى وجدته من حيث الفن لا اللغة هو السائر فى الطريق الصحيح ، محاذياً تلك الفنون الجديدة التى قامت بقيام الحضارة الجديدة . فلقد كان من المستغرب حقاً للباحث أن يرى حضارة إسلامية عظيمة ذات فنون زاهرة وعلوم راقية ولا يجد فى أدبها أثراً إنشائياً مثل " الشاهنامة " أو " الرامايانة " أو " الإلياذة "

... حتى كادت تتهم العقلية الإسلامية بعقمها ( بعقم خيالها )<sup>(١)</sup> ولكن الأدب الشعبي الإسلامي صحح الوضع أمام التاريخ ، وأثبت أن الحضارة الإسلامية سارت في مجراها الطبيعي ، مع هذا الفارق : وهو أنه في الحضارات الأخرى الهندية أو الفارسية أو الإغريقية كان خاصة الشعراء والأدباء هم المخالفين لتلك الآثار .

أما في حضارة الإسلام فقد تخطى الخاصة عن بعض هذه المهمة لعامة أدباء الشعب وشعرائه ، ووقفوا بعيدون عن كل تغيير أو ابتكار ... حتى القرآن ما حاولوا أن ينتفعوا به انتفاعاً فنياً . لقد أتى القرآن بجديد في فن الكتابة : لا اللغة وحدها بل القصص ( والأساطير ) لقد استخدم القرآن الفن القصصى في التعبير عن المرامي الدينية السامية ، ولكن المدهش أن الأدب العربي لم ير في القرآن إلا نموذجاً لغوياً ، ولم ير فيه النموذج الفني : فلم يخطر له استلهام قصصه أو الاسترشاد بها أو استغلالها استفلافاً فنياً مستفيظاً . إن وحي الأدب العربي لم يرد أن يتحرك ، لا إلى أعلى ولا إلى أسفل ، لا نحو القرآن ولا نحو الشعب .

ومن الإنصاف أن أستثنى واحداً هو " الجاحظ " . إن هذا الكاتب شعر فيما يبدو لى بالغلظة ، فسلك مسلكاً آخر ، ونزل إلى الشعب يستوحيه ، ويصور أسواقه وبخلاءه ولصوصه وتجاره وشرفاءه وخبثاءه ، في أسلوب بسيط حتى ، يعد مثلاً طيباً للنثر التصويرى في عصور الحضارة وال عمران ... وهو بعينه الأسلوب الذى أثار على الجاحظ المسكين<sup>(٢)</sup> نقد المتنطعين من أدباء عصره ،

---

(١) ما بين المعرفتين هنا - وفيما يأتى فى هذه الرسالة - مأخوذة من كتابه فن الأدب الذى أعاد فيه الحكيم نشر هذه الرسالة منقحة .

(٢) إذا استثنينا كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، فإن معظم نتاجه الفكرى والأدبى نتاج سردي ذو طابع شعبي ، الأمر الذى دفع علماء الفولكلور العرب إلى النظر للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) باعتباره رائد الجمع الفولكلورى (الميدانى والمكتبى) فى تراثنا العربى ؛ حيث لم يفرق يومئذ بين ثقافة الخاصة وثقافة العامة ، كما يجمعون أيضاً على ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) هو أول من دعا - بوعى إبستمولوجى - إلى العناية =

فرموه بالعامية والركاكة والابتذال ... وأريد أن أستثنى أيضاً بعض الجانِب  
الفنى من المقامات لبديع الزمان ( والحريرى ) من حيث رسم الشخصيات  
وتصوير المجتمع ، تكاد تعطينا أحياناً صوراً ناطقة على صفرها تذكرنى بصور  
" المنياتور " الفارسى . ولم يفسد هذه الآثار الفنية إلا أسلوبها اللغوى .

على أننا بعد ذلك إذا طرحنا أعمال مؤرخى الأدب ورواة أخباره ، على  
أهميتها وسلاسة لغتها ، وأردنا أن نبحت عن فن أدبى يعد فى ذاته خلقاً  
إنشائياً فنياً لما وجدنا شيئاً يضارع الأدب الشعبى فى ألف ليلة وليلة وعنترة  
ومجنون ليلى وأبى زيد الهلالي ... إلخ . فهذه الآثار على الرغم من انعدام  
الروعة اللغوية فيها وضياع الجانِب الشكلى اللفظى ، قد استطاعت أن تؤثر  
بمجرد فنها . ذلك أن القوة الخالقة فى روح الشعب لم تضل لحظة طريقها إلى  
الخلق الفنى .

ومع ذلك فقد ظل الأدب الشعبى حتى اليوم غير معترف به فى تاريخ الأدب  
العربى . بل إن أثره خالداً مثل ألف ليلة وليلة اعترفت به كل أمم العالم ،  
ونقلت قصصه إلى كل لغة ، ووضعت فى كل يد ، حتى أيدي الأطفال ...  
( تذكرت الآن أن ولدك الصغير جانو أدهشنى يوم قابلته أول مرة فى كورنفا ،  
فقص على أقصوصة علاء الدين والمصباح ، على نحو آثار إعجابى ) .

هذا الأثر الفنى المشرف لم يعترف به أديب عربى اعترافاً صريحاً . لقد  
انطوت قرون وما يزال هذا السد قائماً كأنه سد الصين بين النشر العربى فى  
سجعه وبلاغته المصطنعة وبين خيال الشعب ورغباته وآماله . لو أن أدباء اللغة  
الفصحى هدموا هذا السد من قديم ، ونزلوا عن بعض جمودهم وسايروا تقدم

---

= بالأدب الملحون ( الشعبى ) جمعاً وتدويناً ، باعتباره مصدراً من مصادر المعرفة التاريخية إلى جانب قيمته  
الجمالية والفكرية .

انظر دراستنا الموسومة : مصادر دراسة الفولكلور فى التراث العربى ، مجلة عالم الفكر م ٢١ ع ٢ ص  
١٦٦ ومابعدها ، أكتوبر ١٩٩١ ، الكويت .

الفنون فى زمانهم ، وعبروا عن مطالب عصرهم وشعبهم لكان الأدب العربى اليوم فى مقدمة الآداب العالمية فليس الروس هم أساتذة القصة ولا الإنجليز ولا الفرنسيون ، بل نحن بما لدينا من قرآن عرف القصص ( كان الحكيم معجباً كل الإعجاب بقصة يوسف ) وبما خلقنا فى مجتمعنا من أشباه عنصرة وألف ليلة وليلة . وبما وضعنا فى لغتنا من مقامات تعد أساساً لفن الأقصوصة لأحق من يزعم بأننا أساتذة هذا الفن الروائى ... ( لاحظ أن هذا القول كان عام ١٩٢٨ ) ولكن وأسفاه ... هم أولئك الجامدون الذين وقفوا حيث هم وتركوا لغيرهم تلك الكنوز يغترفون منها ويربون عليها .

إن هذا الذى أسميه سداً بين الجامدين والمجددين ، أو هذا السد بين الأموات والأحياء كان دائماً موجوداً فى تاريخ كل لغة .. ألا تذكر " دانتي " وكيف حطم هذا السد يوم أصر على أن يكتب " الكوميديا الإلهية " لا باللاتينية لغة العلماء فى عصره بل بالإيطالية لغة العامة فى زمانه ... و " مسترال " يوم وضع ملحمة الشعرية الرائعة " ميراي " بلغة الريف الفرنسى ، وهى لغة لم استطع فهمها مما ألجأنى إلى قراءة ملحمة فى ترجمتها الفرنسية العصرية ، ومع ذلك لم تحل لغة الريف دون تسنيم ذلك الشاعر قمة المجد ، واعتباره من أكبر شعراء فرنسا والعالم ، لأن اللغة لم تكن يوماً حائلاً فى أوروبا دون تقدير الأثر الفنى فى ذاته .

أما عندنا فهى حائل دون مجرد الاقتراب منه ، كأنما هو شىء مزر بمقام فضلاء الأدباء . لهذا لم تجد أديباً عربياً جرؤ على النظر فى آثارنا الشعبية الرائعة ، من حيث هى فن وخلق ، طارحاً مسألة لغتها جانباً ... لقد رضى الفضلاء أن ينظروا فى تاريخ الجبرتى وهو تقريباً باللغة العامية ، ولم يرضوا أن ينظروا فى ألف ليلة وليلة وهو أسلم لغة فى نظرى من كتاب الجبرتى ، لكن السبب عندهم أن ذلك تاريخ وهذا أدب ، والأدب فى عرفهم مرادف اللغة ، فاللغة هى لدينا شبح الأدباء المخيف . نحن عبيد ذلك الميراث من الألفاظ والعبارات والتراكيب التى وجدناها داخل صناديق المعاجم العتيقة ... إننا ننظر

إليها بحرص خشية أن ينفذ إليها نور هذا العصر أو نسيم هذا الزمن ، فيعيب  
بنسج عنكبوتها المقدس ! بالشيخ القدام المروع ! بالشيخ الأموات الذى يهرب  
كل من يعتبر اللغة كائنًا حيًا يتغير ويتطور ، وكل من يحاول التصرف فيها  
طبقًا لمطالب العصر وروح الزمن ... " (١).

وتنتهى هذه الرسالة التى نعتذر عن إطالتها ، حيث نرى فى نقلها هنا كاملة وثيقة  
تاريخية بالغة الأهمية ، فى دعوتها إلى التجديد فى ضوء " الشعور العام بضرورة التنوع فى  
الأساليب والقوالب الذى بدأ يسرى الآن فى الطبقات المستنيرة " . على حد تعبيره . والمتأمل  
لهذه الرسالة التى كتبت فى أواخر العشرينيات ونشرت فى أوائل الثلاثينيات يمكن أن يقدر  
الدور الريادى والتنويرى للحكيم من خلال :

(أ) ريادته الداعية إلى أن الخروج من مأزق جمود الأدب العربى التقليدى أو الكلاسى ،  
وعقم قوالبه الفنية - آنذاك - يكمن فى ضرورة احترام الأدب الشعبى والاعتراف به ، وبشراء  
أشكاله الفنية والتعبيرية ، بما هو تشكيل أو تعبير جمالى عن روح الشعب ؛ بدلاً من تغييبه  
أو تهميشه والاستعلاء عليه ، وبذلك نسد أو نستكمل ما يفتقد أو يقتصر إليه الأدب العربى  
الرسمى من ثغرات ونواقص فى اتجاهاته وقوالبه وأشكاله الفنية أو نقص فى أغاطه أو أجناسه  
التعبيرية كالملاحم والإبداع القصصى والدراما الشعبية ( نغنى السير الشعبية وقشليات خيال  
الظل والروايات السردية الأخرى التى يزخر بها التراث العربى ، دون العناية بها ) ونؤكد أنه  
ليس بدعاً بين آداب الشعوب ، وأن المخيلة العربية أيضاً ليست عقيمة كما وُصفت بذلك .

(ب) ريادته الداعية إلى الإفادة من الأدب الشعبى باعتباره منبعاً خصباً من منابع  
الاسترفاد أو الاستلham الفن الحديث ، وأن هذا الاستلham هو سبيلنا إلى التجديد وإلى  
الرقى بالأدب العربى المعاصر " على حد تعبيره ، على نحو ما صنعت الشعوب الأخرى  
بآدابها (٢).

(١) زهرة العمر : ص ١٣٥ - ١٤١ .

(٢) من اللافت للنظر أن أول من استجاب لهذه الدعوى هو طه حسين عميد الأدب العربى ، عندما كتب  
سويًا " القصر المسحور " سنة ١٩٣٦ ، ثم كتب بعدها طه حسين " أحلام شهرزاد " سنة ١٩٤١ .

(ج) ريادة الداعية إلى العناية العلمية بهذا الأدب ودراسته ، باعتباره صنواً للأدب الرسمي ( وذلك قبل أن يحظى الأدب بنصف قرن تقريباً بالعناية العلمية والأكاديمية فى بعض الجامعات العربية ) كما يفعلون فى الجامعات الغربية ، إيماناً منه بأن هذا الأدب ليس نقيضاً للأدب الرسمي ، بل متمم له ، وبهما معاً تتكامل صورة الأدب العربى وتثرى ، كما هو الشأن فى الآداب العالمية العريقة .

والحكيم لا يرى فى دعوته إلى العناية بالفنون الشعبية واستلهاها نشاراً قومياً أو تفريداً خارج السرب ، بل هذا هو صنيع الأمم المتحضرة والشعوب المتقدمة مع " فنونها العصرية " التى تمتد جذورها إلى " فنونها البدائية " تغترف منها وتستلهمها أيّاً كان مصدرها .

إن العودة إلى المنابع البدائية فى الفن للإغتراف منها واستلهاها قد تنبه إليها أيضاً أصحاب المدارس الحديثة فى الفن العالمى ، سواء فى الفنون التشكيلية أو الموسيقية أو الشعرية أو الفكرية . وسواء أكان المنبع البدائى فى شعوب وقارات ، أم فى هبات أطفال (أغانيهم ) ، فالبدائية لم تعد تدل اليوم على جهل أو قصور بقدر ما تكشف كل يوم عن مدلولات للتفوق تشير الدهشة ... فالفن البدائى أقرب إلى أن يكون فناً سماوياً ... " (١)

على حد قوله .

لم يتوقف الحكيم عند دعوته التنظيرية الرائدة بل بادر إلى ممارستها بنفسه فى الفعل الإبداعى والنقدى لديه ، وذلك فى وقت مبكر ، عندما تمكن " أخيراً " من العثور على منابعه التراثية التى استصفاها لنفسه ، وشرع يحقق - من خلال استلهاها لها - مشروعه الإبداعى الحدائى والتأسيسى ، وهو مشروع قوامه وغايته غرس الخطاب المسرحى فى بنية الثقافة العربية والخطاب المعرفى العربى . وهذه المنابع أو الينابيع الجمعية التى عثر عليها الحكيم ، تكمن كما قال لصديقه أندريه فى أنه أخيراً عثر على منابع الاستلها الفنى الثلاثة " هذه المصادر الثلاثة التى استلهمها فنياً : القرآن ، ألف ليلة وليلة ، الشعب " (٢) . وهو ما تجلّى وقتئذ فى مسرحيته الفارقتين والمؤسستين فى تاريخ الأدب المسرحى العربى : مسرحية أهل الكهف (١٩٣٣) ومسرحية شهرزاد (١٩٣٤) التى كان قد انتهى من كتابتها سنة (١٩٢٨)

(١) توفيق الحكيم : قالبنا المسرحى : ص ١٦ ، مكتبة مصر ١٩٦٧م .

(٢) زهرة العمر : ص ١٤٢ .

فكان بذلك أول فنان مسرحى عربى - كما سنرى وشيكًا - يستحضر التراث استحضارًا جديًا معاصرًا ، إيجابيًا ، تأسيسًا وتجاوزًا فى آن .

### الحكيم والوعى الفنى والنقدى بالأدب الشعبى :

فيما بين مسرحية شهرزاد أو قبل شهرزاد ( منذ أول نص مسرحى وصلنا للحكيم وهو أوبريت على بابا ١٩٢٥ التى استلهم فيها ألف ليلة وليلة ، ومسرحية الزمار ١٩٣٠ التى استلهم فيها السامر الشعبى ) وبين مسرحية يا طالع الشجرة (١٩٦٢) ما يقارب أربعين عامًا ظل خلالها الحكيم يارس وعيه المعرفى والتاريخى بالإبداع الشعبى العربى استلهمًا وتوظيفًا ، إبداعًا وتجريبًا ، كما نضج خلالها وعيه الفنى والنقدى بأنماط استلهم الأدب الشعبى وطرائقه فى نصوصه وتشكيلاته الإبداعية ، على نحو مفارق تمامًا لما كانت عليه طرائق استلهم النصوص المسرحية السابقة التى كتبها جيل الرواد من المسرحيين العرب . فمن المعروف أن المسرح العربى الحديث (الشعرى والنثرى ) مدين فى معظم نصوصه للأدب الشعبى العربى<sup>(١)</sup> وذلك منذ نشأته (١٨٤٧) على يد التاجر مارون النقاش (١٨١٧-١٨٥٥) إثر

---

(١) انظر فى نشأة المسرح العربى ، ونصوصه الأولى المستلهمة من التراث الشعبى - وأنماط استلهمها - بعض المراجع التالية ، على سبيل المثال ، طبقًا للترتيب الأبجدي :

- ١ - إبراهيم درديرى : تراثنا العربى فى الأدب المسرحى الحديث . الرياض (١٩٨٠) .
- ٢ - أحمد صقر : توظيف التراث الشعبى فى المسرح العربى ، مركز الإسكندرية للكتاب ، ١٩٩٨ .
- ٣ - أحمد شمس الدين الحجاجى : الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر ، دار الثقافة ، القاهرة (١٩٧٥)
- ٤ - بول شاوول : المسرح العربى الحديث ، رياض الريس للنشر ، لندن (١٩٨٩) .
- ٥ - حسن بحراوى : المسرح المغربى ، بحث فى الأصول السوسيوثقافية ، المركز الثقافى العربى ، بيروت (١٩٩٤) .
- ٦ - حسن عطية : الثابت والمتغير ، دراسات فى المسرح والتراث الشعبى ، الهيئة المصرية للكتاب (١٩٩٠) .
- ٧ - سعد الدين حسن دغمان : الأصول التاريخية لنشأة الدراما فى الأدب العربى ، جامعة الدول العربية (١٩٧٣) .
- ٨ - سعيد الناجى : التجريب فى المسرح ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء (١٩٩٨) .
- ٩ - صالح سعد : تقاليد الكوميديا الشعبية ، وزارة الثقافة ، القاهرة (١٩٩٤) .
- ١٠ - عبد الكريم برشيد : المسرح الاحتفالى ، الدار الجماهيرية للنشر ، ليبيا (١٩٩٠) .
- ١١ - عبد الله شقرون : فجر المسرح العربى بالمغرب ، منشورات اتحاد إذاعات الدول العربية ، تونس (١٩٩٨) .



تعرفه على المسرح الغربى فى إحدى رحلاته التجارية إلى إيطاليا ، حيث عاد منها مبهوراً بهذا الفن الجديد ليقدمه لنا ، باعتباره " ذهباً إفريقياً مسبوکاً عربياً " على حد قوله (١) ،  
فقدم - أول ما قدم - مسرحية البخيل الذى اكتشف أثناء اقتباسها وإعدادها للمسرح العربى ثراء التراث الشعبى العربى ، بما هو منبع غنى للاستلهام والتأليف ، فكان البدء بمسرحية أبو الحسن المغفل أو هارون الرشيد (سنة ١٨٥٠ ) التى استلهم فيها إحدى حكايات ألف ليلة

- 
- = ١٢ - على الراعى : فن الكوميديا من خيال الظل إلى الريحانى ، دار الهلال (١٩٧١) . وكتابه : المسرح فى الوطن العربى ، الكويت (١٩٨٠) . وكتابه الكوميديا المرتجلة - دار الهلال - القاهرة (١٩٦٨) .
- ١٣ - على عقله عرسان : وقفات مع المسرح العربى ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق (١٩٦٦) . وكتابه الظواهر المسرحية عند العرب ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق (١٩٨١) .
- ١٤ - فؤاد رشيد : تاريخ المسرح العربى ، سلسلة كتب للجميع ، ع ١٤٩ ، القاهرة (١٩٦٠) .
- ١٥ - فائق مصطفى أحمد : أثر التراث الشعبى فى الأدب المسرحى النثرى فى مصر ، بغداد (١٩٨٠) .
- ١٦ - فاروق خورشيد : الموروث الشعبى فى المسرح ، دار الشروق (١٩٩٢) .
- ١٧ - كمال الدين حسين : التراث الشعبى فى المسرح المصرى الحديث ، الدار المصرية اللبنانية ، (١٩٩٣) .
- ١٨ - محمد عبد الرحمن يونس ( وآخرون ) : تأثير ألف ليلة وليلة فى المسرح العربى المعاصر والحديث ، دار الكتوز الأدبية ، بيروت (١٩٩٥) .
- ١٩ - محمد عزيزه : الإسلام والمسرح ، ترجمة رفيق الصبان . دار الهلال القاهرة (١٩٧١) .
- ٢٠ - محمد كمال الدين : رواد المسرح المصرى ، الهيئة المصرية للكتاب (١٩٧٠) .
- ٢١ - محمد مندور : المسرح النثرى ، نهضة مصر ، القاهرة (ب . ت ) .
- ٢٢ - محمد يوسف نجم : المسرحية فى الأدب العربى الحديث ، ط ٢ ، دار الثقافة ، بيروت (١٩٦٧) .
- ٢٣ - محمود تيمور : طلائع الفن المسرحى ، مكتبة الآداب ، القاهرة (ب،ت) .
- ٢٤ - محمود حامد شوكت : الفن المسرحى فى الأدب العربى الحديث ، دار الفكر العربى ، القاهرة (١٩٧٠) .
- ٢٥ - نجوى عاتوس : المسرح الضاحك ، كتاب الهلال ، مصر (١٩٨٩) .
- ٢٦ - يعقوب لاندو : تاريخ المسرح العربى ( ترجمة يوسف عوض ) دار القلم ، بيروت (١٩٨٠) .
- (١) انظر : محمد مسكين : المسرح العربى الحديث ، مجلة الوحدة عدد ٩٤ ص ١١ ( يوليو ١٩٩٢ ) المجلس القومى للثقافة العربية الرباط .

وليلة (١١)، وسار على هديه سائر الرواد مثل أبى خليل القباني (١٨٣٨ - ١٩٠٢) وله خمس مسرحيات مستلهمة من التراث الشعبي ، وفرح أنطون ( ١٨٧٤ - ١٩٢٢ ) وغيرهم كثير ممن اعتمدوا فى تأليف نصوصهم المسرحية على النصوص الشعبية - على المستويين البنائى والدلالى - ولا سيما تقاليد الفرجة الشعبية ، وكثيراً ما كان يقوم بعض هؤلاء الكتاب أنفسهم بدور الحكواتى .

حيث ظل استلهامهم للنص الشعبى ( على الرغم من ثقافتهم الأوروبية وتبعيتهم للمسرح الغربى ) استلهاماً سلبياً أو استنساخاً على المستويين التركيبى والدلالى ، بمعنى أنه لم ينشأ عن وعى حقيقى ، تاريخى ومعرفى ونقدى ، لا بأهمية الموروث الشعبى ، ولا بطبيعة استلهامه الإيجابية أو الجدلية ، باعتباره مصدراً من مصادر التجربة الإبداعية ، وليس هو التجربة ذاتها ، ومن ثم كان استلهامهم استاتيكيّاً ( على نحو سكونى ) فلم يتجاوزوا فى أعمالهم بنيتة الحكائية - برغم مسرحتها - ولا مضامينه وقيمه وأفكاره الموروثة ، بل ظل طابع السرد الحكائى مهيمنًا على النص المسرحى - آنذاك - على نحو غدا معه هذا النص مجرد " حكاية شعبية ممسحة " ، ومن ثم لم يضيفوا إليه معنى جديداً أو دلالة معاصرة أو يدخلوا معه فى علاقة جدلية فاعلة لا متفاعلة ، فهى علاقة أحادية البعد والمستوى ، لا تغير ولا تتغير . بل كانت غايتهم " إحياء أمجاد الماضى " على حد تعبيرهم ، وهو ما دفعهم إلى الإبقاء على الدلالة التراثية فى نصوصهم المسرحية ، مع إلقاء بعض الخطب التمهيدية ذات الطابع الوطنى أو الحماسى أو الوعظى المباشر ، قبيل أو أثناء العرض ، وهذا كل ما يربطها بحاضر العرض المسرحى بطريقة مفتعلة ، لكنها تبقى طبيعة " البدايات " الإبداعية فى أرض غير ممهدة من قبل .

على النقيض من ذلك كان الحكيم ، فقد جاءت العلاقة بينه وبين التراث الشعبى علاقة جدلية منذ البداية ، علاقة تأخذ من التراث شيئاً وتعطيه أشياء ، علاقة تقرأ منطوقه وصامته ، تلامس سطحه وتحفر فى أغواره ، تترجم غيابه حضوراً ، وسكونه حركة ، وماضيه

---

(١١) يرى محمد غنيمى هلال أن هذه المسرحية ( الملهاة ) أول مسرحية عربية أصيلة ، وله فى ذلك أسباب وجيهة ، يعيننا منها فقط إشارته الرائدة إلى أهمية الأدب الشعبى ، باعتباره المصدر الأول المتاح أمام الفنان المسرحى العربى آنذاك . انظر : الأدب المقارن ، ص ١٤٧ ، دار العودة ، بيروت (١٩٨٧) .

حاضرًا ومستقبلًا ، علاقة تتدخل فى وجهة هذا التراث ، وتجعله يسير فى اتجاه ما هو إنسانى وحيوى وعقلى وعلمى معاصر كما يقول التجريبيون وأنصار الحداثة . يقول الحكيم :

ووسائلنا فى هذا ، هضم كل ثقافة موجودة ، قديمة أو حديثة ، وإخراج ثقافة جديدة تنم عن روحنا وشخصيتنا الشرقية " الإسلامية " (١).

وكان الحكيم يرى هذا الضرب من " الاستيحاء " أو " الاستلهام " على حد تعبيره ( أو التناس على حد تعبير نقاد ما بعد الحداثة ) للتراث الشعبى وأساطيره هو :

" النوع الأرقى فى الأدب " فى كل أدب " لا فى الماضى وحده ولا فى الحاضر " بل فى الغد أيضًا وبعد آلاف السنين " مادام الإنسان إنسانًا ، ومادام رقيه الذهنى بخير " (٢).

وحتى يتحقق هذا النمط من " التناس " أو الاستلهام الإيجابى الذى يرقى بالنس الأدبى فى نظر الحكيم ، فإنه يشترط له شرطان - وهذا هو مفهومه للاستلهام ، شرطًا فارقًا ومائزًا عما فعله المسرحيون العرب من قبل ، هو شرط المعاصرة الموضوعية ؛ فيقول :

" ولكن الأدب الجديد عندما يستلهم المادة الجديدة ( الشعبية أو الأسطورية ) إنما يهدف إلى غرض آخر : هو بعثها فى الحياة الجديدة بلباسها الجديد وأفكارها الحديثة . إنه يجرب عليها عملية استنبات أو تطعيم - كما يقال فى لغة الزراعة - لتلائم الجو الحديث ، وتعيش فيه ، وتخدم أغراضه . لم يعد الأدب الجديد مجرد تسجيل للقديم ، بل هو إعطاء روح جديدة للزمن الغابر ، وبعث جسد قديم برأس حديثة " .

ولذلك لا غرو حين يتحدث عن " شعبية " كتاب ألف ليلة وليلة الذى لا يختلف على " شعبيته " اثنان يقول : إن ثمة شرطًا جوهريًا ينقصه يكمن فى كونه :

---

(١) تحت شمس الفكر : ص ٩٢ .

(٢) من مقال للحكيم بعنوان " غاية الأدب والفن " نشر عام ١٩٣٤ ، ثم أعاد نشره فى كتابه " تحت شمس الفكر " ، ص ٧٠ .

" لا يعالج شئون الشعب بالطريقة التي نريدها اليوم ، وإنما المفترض أن يكون الإحياء والتجديد بعث جسد قديم برأس حديث " على قوله (١).

لقد كان الكتاب المسرحيون الرواد الأوائل الذين سبقوه يتمثلون التراث الشعبي أولاً ثم الواقع ثانياً ، أما الحكيم فكان يتمثل الواقع أولاً ثم ينتخب من التراث ما يراه وفيما يحتاجه الإبداعية ، قميناً برؤيته الفنية للعالم ، وإعادة صياغة بنائياً وإيحائياً ورمزاً ، ليدخل معه بذلك فى علاقة تفاعل تناسى جدلى ( وشتان بين الأسلوبين أو النمطين فى استلهاهم التراث). ومن ثم لا غرو أن نقول إن الحكيم قد عرف كيف يتمثل هذا الموروث قشلاً جديلاً ، إيجابياً ديناميكياً كاشفاً عن بنياته ، ومفجراً لطاقاته ودلالاته ، ومستوعباً له وقادراً على إعادة صياغته وإنتاجه على نحو جديد - فى مشروعه المسرحى - بدلالات جديدة معاصرة " تبرز صورة فى نفسى " على حد قوله (٢). بحيث أصبح الأدب الشعبى معه وبه مصدراً خصباً للاستعارات والرموز والنماذج العليا التى تعبر عن رؤيته الجديدة ، وتساهم فى تشكيل نصوصه فى آن ، وبطريقة قوامها الخلقة النصية للنصوص الشعبية المولدة ذاتها كما هى معروفة فى صورتها المخزونة فى الذاكرة النصية للشقافة الشعبية " بعض هضمها ومزجها وخلطها وجعلها عجينة واحدة جديدة " (٣). وذلك على نحو يشاغب أفق توقعات المتلقى أو المشاهد وذاكرته النصية على نحو ما نرى وشيكاً .

(١) نفسه : ص ٧ .

(٢) يقول توفيق الحكيم فى مقدمته الافتتاحية لمسرحية سليمان الحكيم (١٩٤٣) ما يلى :

بنيت هذه القصة على كتب ثلاثة : القرآن الكريم ، والتوراة ، وألف ليلة وليلة ، وقد سرت فيها على نهجى فى أهلك الكهف وشهرزاد وجمالون ، من حيث استخدام النصوص القديمة ، والأساطير الغابرة ، استخداماً يبرز صورة فى نفسى ، " لا أكثر ولا أقل " . انظر : مسرحية سليمان الحكيم : ص ١٠ مكتبة مصر (١٩٣٤) .

(٣) انظر أسلوب الحكيم فى عمليات التناص فى كتابه " أشعب ملك الطفيلين " ص ١٢ - ١٣ . حيث يقول الحكيم ما نصه : " لقد أدرك الأدب العربى من احتكاكه بأوروبا أن وسائل التعبير فى الأدب قد تطورت ، وأن الكتاب على اختلاف جنسياتهم قد تواصلوا على أن يلبسوا أفكارهم ثياباً متشابهة فى أغلب الممالك المتحضرة ، كما ألبسوا أبدانهم ثياباً متشابهة ، هى القبة والسترة ، سواء فى ذلك الإنجليزى والفرنسى والروسى والإيطالى ... إلخ . فكان من الطبيعى أيضاً للأدب العربى الحديث أن يتأثر بهذا اللباس الأدبى =

وإن كان ذلك كله قد تحقق ضمن قالب مسرحى تقليدى ( الشكل الأرسطى الأوربى ، العلبة الإيطالية المغلقة ) من حيث هو بنية كلية عالمية ، حيث كانت صياغته لتلك العناصر الشعبية تتحقق فى إطارها ، ووفق معطيات هذه البنية الغربية التى ظل الحكيم يؤمن بها ؛ لأسباب لا مجال لذكرها الآن ( حتى بعد تقديم اقتراحه المعروف فى قالبنا المسرحى ) ، ومن دون أن يرى فى ذلك تناقضاً ( فارتداء الزى الغربى لا يغير من هويتنا ) على حد تعبيره وتبريره . وربما كان الحكيم على حق فى ظل الشرط الحضارى الراهن ، أو بالأحرى فى ظل غياب المشروع الحضارى العربى المتكامل الذى ظل الحكيم يحلم به حتى وفاته سنة (١٩٨٧) . ومن هنا كان حرصه الدائم وتحريضه الدائم لأدباء العربية من الشباب - ضمن رؤية مستقبلية واثقة - بضرورة الانفتاح على الآخر الغربى ، شريطة الوعى بذلك ، ولن تكون كذلك إلا من خلال الأنا فى مرآة الآخر <sup>(١)</sup> ، ولكن من غير إحساس بالدونية أو شعور بعقد النقص الحضارى ، أو هكذا ينبغي أن يكون شرط انفتاحنا عليه بهدف المشاقفة الإيجابية والتناص الحضارى معه ، ليس لأننا أصحاب حضارة عريقة فحسب ، بل لأن الحضارة نفسها صناعة عالمية ، وكثيراً ما ألح الحكيم على أدبائنا الشباب بذلك فى ثقة بالذات عند مواجهة الآخر :

" لا تجعل مركب النقص يستولى عليك ؛ فتخاف على حضارتك المغلوبة أن تغزوها الحضارات الغالبة ... اغترف بشجاعة من كل منبع ، وخذ من كل ميراث ، لتثرى نفسك الغالبة .. وتوسع أفقك ... إن روحنا أقوى وأعمق من أن تطفئ عليها حضارة من الحضارات " <sup>(٢)</sup> .

---

= الشائع ، كما تأثر الزى الشرقى إلى حد كبير بالزى الغربى . على أن الزى أو اللباس شىء ، والروح أو الشخصية التى فى جوف هذا الزى واللباس شىء آخر ! ... ومهما يكن الاتحاد الإنجليزي والإيطالى والإسباني والروسي فى شكل الزى ، فإن الدم الذى يجرى فى شرايين كل منهم مختلف كل الاختلاف ؛ ... لذلك أحب أن أقول لأدباء العربية الحديثة : لا تخشوا مطلقاً من إلباس أفكاركم الأثواب الأوربية ، على شرط أن يكون طابع الأفكار وروحها شرقياً محضاً ، وأن يحس القارىء الأوربى إزاء أعمالكم أنه أمام نفس غير نفسه ، وشخصية غير شخصيته ، وإن كان الرداء ليس غربياً عليه ، لأن الرداء ليس ملكاً لأحد ؛ إنه ملك الحضارة ، والحضارة وليدة الحضارات التى سبقتها ! .. " .

(١) انظر ؛ تحت شمس الفكر : ص ٩٥ - ٩٦ . وقالبنا المسرحى : ص ١١ وما بعدها .

(٢) تحت شمس الفكر : ص ١٠٤ - ١٠٥ ( بتصرف ) .

فإذا ما وصلنا إلى بداية الستينيات - ذروة المد القومي - حتى تكون البنية السوسيوثقافية والسياسية للمجتمع العربى قد تغيرت ، واحتل فيها المسرح مكانه ومكانته ، باعتباره خطاباً معرفياً ( قومياً وسياسياً على وجه التحديد ) ، على مستوى الثقافة السائدة ، ( فضلاً عما واكب هذه الفترة من تيارات فنية جديدة ومذاهب مسرحية عالمية مستحدثة ) كما أصبحت الظاهرة المسرحية - فى بلادنا - مهياً للبحث عن قوالب أو أشكال مسرحية عربية ( محلية ) تحقق للفنان المسرحى خلاصه من التبعية الغربية ، حيث لم يجد أمامه من جذور - إذا شاء التأنيث والتأصيل - إلا التراث الشعبى وما يحتويه من أنماط وأشكال أو قوالب مسرحية شعبية ( بدءاً من خيال الظل والحكواتى والقرهقوز أو الأراجوز أو صندوق الدنيا ... مروراً بفنون الفرجة الشعبية العربية ... وانتهاءً بفنون السامر والطقوس الاحتفالية الجماعية والتعازى الشعبية )<sup>(١)</sup> شريطة أن تكون الإفادة من هذا التراث - على مستوى التناص - ضمن رؤية مستقبلية ذلك :

" إن من واجب الكاتب أحياناً عندما يفتح عيناً على الماضى الغائر ... أن يفتح العين الأخرى على المستقبل الآخذ فى التكون عند الأفق " (٢) .

فى هذه الفترة كان الوعى المعرفى والنقدى للحكيم بالإبداع الشعبى العربى قد بلغ ذروته ، فكتب آنذاك مسرحيته الشهيرة " يا طالع الشجرة " (١٩٦٢) مقدماً لها بنص مصاحب (فيما يشبه البيان المسرحى ) على غاية من الأهمية : يفصح بامتياز عن هذا الوعى الفنى والنقدى ، بفنوننا الشعبية ، باعتبارها عندئذ حافزاً على التجريب الذى ظل الحكيم يتجاهله طويلاً أو

---

(١) انظر على سبيل المثال :

- سعيد الناجى : التجريب فى المسرح ، م.س (١٩٩٨) .
- أحمد صقر : توظيف التراث الشعبى فى المسرح العربى ، م.س (١٩٩٨) .
- فاروق خورشيد : الموروث الشعبى والمسرح ، م.س (١٩٩٢) .
- عبد الكريم برشيد : المسرح الاحتفالى ، م.س (١٩٩٠) .
- على الراعى : الكوميديا المرتجلة ، م.س (١٩٦٨) .
- عبد الله شقرون : فجر المسرح العربى فى المغرب ، م.س (١٩٩٨) .
- يوسف إدريس : نحو مسرح عربى ، مطبعة الوطن العربى ، بيروت (١٩٧٤) .
- (٢) مسرحية الطعام لكل فم : ص ١٨٦ ، مكتبة مصر (١٩٦٣) .

يتردد فى ممارسته ( لأسباب سوسيوقافية وفنية ) ولكن اكتشافه لجوهر فنوننا الشعبية هو الذى حسم الأمر ... إذ على الرغم من وعيه بتيارات المسرح السائدة التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية ، وعلى الأخص فى فترة الخمسينيات وما أحرزته هذه التيارات من نجاحات عالمية ، ولم يصبح فى الإمكان تجاهلها على حد تعبيره :

" وقد حاولت تجاهلها فعلاً على الرغم من مطالعتى وتتبعى لإنتاجها ، ولم أفكر أثناء إقامتى فى باريس عام ١٩٥٩ - ١٩٦٠ أن أقرب منها ؛ فقد رأيت جيل من شباب السنوات العشرين لهذا القرن قد أصبحوا كهولاً وشيوخاً داخل مجامع الأدب ( مثل كوكتو ، مارسيل باتيول ومارسيل آشار ) ، وكانوا كلهم أبعد ما يكونون عن هذه المدرسة الجديدة لجيل " اونسكو " و " فوتيه " و " بيكيت " و " آراموف " . إذن ، ما الذى يدعونى أنا إلى النظر إلى هذه الحركة نظرة الجد ؟ لم أكن أتصور أنى سأهتم بها يوماً ، وقد غرست قدمى كل تلك الأعوام الطويلة فى أرض أخرى . ما الذى تغير إذن ؟

هنا بعد عودتى إلى بلادى منذ عامين أخذت أتأمل فنوننا الشعبية وإذا بى أجد الأرض الحقيقية التى احتوت معدن هذا الفن الحديث كله . إذا كانت السعة الظاهرة فى الفن الحديث من تصوير ونحت ومسرح ... إلخ . هى التعبير عن الواقع بغير الواقع ، والالتجاء اللامعقول واللامنطقى فى كل تعبير فنى ، وابتداع التجريد فى الوصول إلى إيقاعات ومؤثرات جديدة ، فإن كل ذلك قد عرفه فنانونا القديم والشعبى على أرض بلادنا منذ القدم<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا النحو يفصح الحكيم فى مقدمة مسرحية يا طالع الشجرة ( بما هى - المقدمة - نص مصاحب لا يقل أهمية عن نص المسرحية ) عن دور الفن الشعبى فى تحفيزه على فعل التجريب ، باعتباره - فى ضوء النص الشعبى العربى - فعلاً تأسيسياً وتأصيلياً فى آن . ويمارس الحكيم فعل التجريب التأسيسى فى مسرحيته ( يا طالع الشجرة ) متناً أو متعالقاً مع أغنية شعبية موعلة فى القدم - كما سئرى فى تفسيرها -<sup>(٢)</sup> مؤكداً بذلك صدق

(١) يا طالع الشجرة : المقدمة ، ص ٩ - ١٠ ، الشركة العالمية للكتاب - بيروت - لبنان .

(٢) انظر النمط الرابع من أفاط التناص فى نهاية هذه الدراسة .

رؤيته وثاقب نظره المبكر فى الموروث الشعبى ، عندما يكون التناص جدلياً ومتجاوزاً ؛ وهذا التجاوز هو مبرز التناص عنده ، فيقول مشيراً إلى ذلك :

" فى هذه المسرحية أستلهم المنبع الشعبى فى إطار موضوع عصرى .. وهكذا يثبت المنبع الشعبى حيويته وصلاحيته للوحى والإلهام ... " (١).

من هنا لا غرو أن تعتبر مقدمة المسرحية أو عتبتها مناصاً خارجياً يستحق أن نقف عليه وقوفنا على النص المسرحى نفسه ، على نحو ما حاولنا - ليس فقط باعتبارها أفقاً يحدد قراءة النص ورؤية فى " الإخراج " أو " العرض " المسرحى ، ولا باعتبارها " وثيقة " أو " بياناً " مسرحياً فى مجال التجريب المسرحى العربى ، أو حتى عريضة دفاع عن التراث الشعبى وأهمية استلهامه وطرائق التناص معه ، وإنما فوق ذلك كله باعتبارها - المقدمة - نصاً كاشفاً عن وعى الحكيم المعرفى والجمالى والنقدي بهذا التراث من حيث هو مادة خام يمكن أن تدخل فى نسج النص المسرحى أو تكمن على تخومه ، على المستويين الدلالى والتركيبى - فيساهم بذلك فى " مجال الابتكار والتجديد " على حد تعبيره ، بل أيضاً على ممارسة فعل التجريب ، باعتباره - النص الشعبى - أيضاً قادراً فى رأيه على مسايرة أحدث التيارات أو المذاهب الفنية العالمية المعاصرة ، فإذا هو كما يقول " على الرغم من منبعه البدائى فإنه يتصل بأحدث نظريات المسرح المعاصرة " (٢).

الأمر الذى دهش له الحكيم نفسه ، وإن لم تشاركه رأى أو غواية الدهشة لأسباب لا محل لذكر تفاصيلها هنا ( على الرغم مما ينطوى عليه رأى الحكيم من " حادثة " الرؤية للأدب الشعبى ؛ فإن هذه الرؤية للحكيم - فى رأينا - تتناسى تاريخية المعرفة وخصوصية الإبداع ، وتتجاهل نشأة المذاهب الفنية وتاريخية المذاهب الأدبية ، وانبثاقها أساساً من أفكار واتجاهات فلسفية وفكرية ليست لدينا أصلاً ) فإنه لم يتردد عندئذ فى الاعتراف بأنه قد أعاد اكتشاف هذه القيمة ( أو القيم الفنية والجمالية والأدبية الكامنة فى الإبداع الشعبى ) . مما أشعل - من جديد - فى داخله رغبة دفينية - منذ المرحلة الباريسية - فى التجريب المسرحى باعتباره فعلاً حداثياً من شأنه أن يساعده على تحقيق مشروعه الإبداعى الطموح ، وأن يطور به المسرح

(١) يا طالع الشجرة : ص ٢١ .

(٢) قالبنا المسرحى ، ص ١٩ ، مكتبة الآداب (١٩٦٧) .



العربى ، وأن يخلخل كثيراً من البنيات السائدة إبان عصر النهضة ، إذ يقول إيماناً منه بحتمية التطور وضرورة التطوير :

" ولولا دواعى النهضة التى تقضى بأن تكون كل أنواع الفن ، فى المسرح وغيره ممثلة لدينا ... وأن تفتح جميع الأبواب أمام كل السبل والطرق والأساليب. حتى يستطيع كل جيل أن يتحرك ويسير ، لا يعوقه باب مغلق عن اختيار النوع الذى يؤهله له استعداداه ، لولا هذا الاعتبار الهام لما رأيت ضرورة لفتح هذا الباب ... فإن ما ينبغى أن نخشاه هو أن يجمد فننا فى قالب واحد ، فى الوقت الذى يتحرك فيه الفن العالمى فى مختلف الاتجاهات " (١).

وهو ما تحقق له - بامتياز - عندما شرع عقب عودته من باريس عام ١٩٦٠م يكتب مسرحية طليعية هى مسرحية يا طالع الشجرة التى يعارض بها تيار مسرح العبث أو بالأحرى يشاكله فنياً ، متناصاً مع تفنيته على وجه التحديد ، ولكنه يخالفه فى الوقت نفسه على المستوى الفكرى ، بما هو دعوة إلى الاتجاه العدمى Nihilism الذى يروج لعدمية الوجود وعبثية الكون ، وهو ما يرفضه الحكيم بحكم كونه شرقياً مسلماً ، وورث ديانات سماوية ثلاث . ومن ثم فالمشكلة فى الفلسفة الغربية كانت قد انتهت بالإنسان الغربى إلى تجاهل الخالق سبحانه وعجزت - من ثم - عن فهم حكمة الوجود وفلسفة الكون الخفية ، وقد بدت الفلسفة العبثية حينئذ مشابهة لبعض أغانينا العبثية التى اعتقد الحكيم فى عبثيتها وزعم أننا نردها دون أن نفقه معناها .

وعندئذ - كما يقول - طفت على سطح ذاكرته النصية ( الفولكلورية ) أغنية شعبية ذائعة من أغاني الأطفال بدت له بلا معنى فى نظره ، هى أغنية " يا طالع الشجرة " ، وكان يحفظها منذ أيام الطفولة ووجد فيها ضالته التجريبية ( الطليعية ) واستحضر معها نصوصاً شعبية أخرى طالما استمع إليها دون أن يكون لها معنى منطقى ظاهر أو معقول فى رأيه ، وتسبق فى ظهورها مدارس الفن الحديثة من تجريدية وتكعيبية وسريالية ... إلخ . وذلك قبل أن تخطر هذه المدارس الفنية على بال الأوربيين ، وشرع فى التدليل على ذلك من خلال الكثير من أشكال التعبير الشعبى :

---

(١) مسرحية يا طالع الشجرة : المقدمة ، ص ١٣ (ط٢) الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، (ب.ت).

" فإذا انتقلنا إلى التصوير الشعبي المصرى وجدنا العجب .... فهو قد زاول " السريالية" وما فوق الواقعية قبل أن يخطر هذا المذهب للأوربيين على بال ... ويكفى أن ننظر إلى تلك الصور المرسومة على حيطان الحجاج ، أو على صفحات كتاب ألف ليلة وليلة ، أو على لوحات الورق التى تمثل مبارزات أبى زيد الهلالى سلامة ، والزناتى خليفة ، وغيرهما من أبطال الأساطير الشعبية ... من ذلك صورة كنت أراها فى صباى لفارس من أولئك الفرسان الشعبيين وهو يضرب بسيفه رأس خصمه ، فإذا السيف قد شق الرأس والجسم معاً ، وإذا الصورة تمثل الخصم مشقوق الجسم وهو لم يزل فى مكانه فوق حصانه ، وكأنه لم يدرك بعد ما أصابه ... ونفس هذه الصورة عبر عنها بالكلام الأديب الشعبى فى مثل هذا الموقف وقد ضرب فارس من فرسان الأساطير الشعبية " لعله أبو زيد أو الزناتى " ضربة سيف شطر بها عدوه من منتصفه ، وظل العدو على فرسه لم يفتن إلى إصابته ، بل قال ساخراً للفارس الضارب : " طاشت منك الضربة " فأجابه الفارس : " اهتز يا ملعون ! " ... فلما اهتز بجسمه انشطر الجسم نصفين ووقع على الأرض !!! هذه الصورة غير الواقعية قصد بها قصداً مصوراً كان أو أدبياً - قد أدرك بالسليقة هذه المنطقة الغنية العميقة من مناطق التعبير الفنى ، قل أن يدركها الفنان الغربى ويضع لها المذاهب ... هذا هو السبب الذى دعانى اليوم إلى كتابة هذه المسرحية ، فنحن أولى من غيرنا باستلهم أساليبنا الشعبية فى الاتجاهات الفنية المختلفة (١).

وإذا كان حملة التراث من أبناء الشعب العاديين كثيراً ما يجهلون الأصول الأنطولوجية والمعانى الاعتقادية التى تنطوى عليها بعض نصوص الإبداع الشعبى ( باعتبارها نصوصاً قولية أو فنية أو اعتقادية موروثة من حقب طويلة أو سحيقة ) فلا أدري هل حقاً كان الحكيم لا يعرف المعنى الكامن فى أغنية يا طالع الشجرة التى استعار مطلعها عنواناً لمسرحيته التجريبية أو الطليعية ( يا طالع الشجرة ) ؟ أم كان يتجاهل هذا المعنى مكرراً وخبثاً ؟! وهذا هو الأرجح كما سنرى فى معالجتنا للمسرحية . ذلك أن دلالة المعنى التى أنتجها نص

---

(١) يا طالع الشجرة ص ١١ - ١٢ .

المسرحية يتفق تمامًا مع دلالة المعنى الكامن فى الأغنية التى تبدو فى ظاهرها بلا معنى منطقي أو معقول لغير العارفين المتخصصين . ولما لم يكن من شأننا أن نناقش هنا الآن نوايا الحكيم ، أو رؤيته النقدية فإننا نترك له المقام ليحدثنا عن رؤيته النقدية لهذه النصوص الشعبية التى تكشف بدورها - على مستوى التجريب والتجريد - عن كفاءته القرائية العالية لها التى انتهت به إلى أن يكتشف أن ثمة شيئاً " خفياً فى هذا الكلام الشعبى يستطيع أن يقوم بنفسه دون حاجة إلى معنى أو منطق ظاهرين " (١). وكيف أنه سرعان ما ربط بين هذا الشيء الخفى الذى ما يزال يحفظ على النص الشعبى حياته حتى اليوم ( وإن لم يحدد لنا هذا المعنى باعتبار أن اللامعنى هو نفسه معنى ، كما نقول فلسفة اللافلسفة ) ، وبين الفن الحديث الذى شرع اليوم يتجه إلى :

" تعميق منطقة هذا الشيء الخفى ، وكانت وسيلته التجرد أولاً من المعنى والمنطق " (٢).

ثم يقول الحكيم : إن هذا الفن الجديد ( الطليعى ) فى أوروبا كان قد أغراه منذ العشرينيات بالكتابة فيه ( وإن كان قد هم بالشروع فيه فى محاولاته الشعرية المبكرة حين كتب بعض قصائد " شعرية نثرية " من هذا النوع ، ولكنه عاد فأهملها على حد تعبيره : " لأن اتجاهى الأصلى كان إلى المسرح " (٣). لكنه لم يشأ ذلك ، لأن الأدب المسرحى العربى ذاته لما يكن قد رأى النور ، وإن كان قد رآه - من قبل - فى نصوصه العربية المترجمة أو المعربة أو المقتبسة باعتبارها نصوصاً تقوم على المعنى والمنطق والعقل ، وهو بهذا المفهوم مسرح تقليدى ، ولذلك كان من المنطق - سوسيولوجياً وفنياً - أن يسايره الحكيم :

" ذلك أنى لم أشعر فى ذلك الوقت أن مجتمعى قد تهيأ بعد ... فكان أن تناولت قضايا ذهنية تنبع من تفكيرنا الشرقى مثل أهل الكهف وشهرزاد وسليمان الحكيم ... إلخ " (٤).

(١) يا طالع الشجرة ، المقدمة ، ص ٥ .

(٢) نفسه ، ص ٥ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه ، ص ٦ .

ثم جاءت موجة المسرح البرختى ( الملحمى ) عالمياً وعربياً وراحت تناوش أفقه الإبداعى ، فتأججت ثانية رغبة الحكيم الكامنة فى الكتابة الطليعية ( التجريبية ) ... ولكن الشرط التاريخى أو بالأحرى السوسيوثقافى لم يكن مواتياً فى المجتمع المصرى والعربى حتى ذلك الوقت للتجريب المسرحى برغم قدرته عليه ، ومن هنا قال :

" وقد حاولت تجاهلها على الرغم من مطالعتى ومتابعتى لإنتاجها ، ولم أفكر أثناء إقامتى فى باريس عامى ١٩٥٩ - ١٩٦٠ أن أقرب منها " (١) .

وفيما بين ذهاب الحكيم إلى فرنسا أول مرة ( ١٩٢٥ ) ثم عودته إلى مصر عام ( ١٩٦٠ ) قرابة أربعين عاماً ظل خلالها الحكيم يتردد بين باريس والقاهرة ، وهو فى كل مرة يحلم بالتجريب ، محاكاة أو متابعة لما هو سائد فى الغرب ( المركز أو القطب الحضارى الجاذب آنذاك ) . وعلى الرغم من تجاهل الحكيم - مضطراً - لهذه الموجة ، موجة المسرح الملحمى ، ومن قبلها موجة المسرح العبثى ، فقد ظلت رغبته فى التجريب متأججة ، ولها حضورها الملحاح ، فظلت تناوشه من حيث إلى حين حتى كانت عودته إلى مصر - كما ذكر - سنة ١٩٦٠ ( بعد فترة عمل استمرت عامين فى باريس ) إذ وجد واقعاً مصرياً ، سوسيوثقافياً وفنياً جديداً ومغايراً يسمح له حينئذ بالتجريب وقبول التجريب ( قبل به المؤلف والجمهور معاً ) . وعندئذ هرع الحكيم إلى فنونا الشعبية ( كنزه المخبوء أو الدفين ) ومضى يتأملها ويحاورها ويستنطقها - جمالياً ووظيفياً ، فنياً ودلالياً - فى سعيه التجريبى المتنامى ، وفى ظل وعيه الفنى والمعرفى والنقدى المتسارع . وحاول عندئذ أن يستصفى منها بعض العناصر الفولكلورية الحافزة على فعل الكتابة التجريبية ، حتى عثر عليها فى أغنية يا طالع الشجرة ، وفى معتقد شعبى آخر هو " السحلية " ، وقد رأى فيهما عناصر لا معقولة يمكن أن تحفزه على فعل التجريب ، على غرار المسرح العبثى الغربى ، فكتب عندئذ أن يستصفى منها بعض العناصر الفولكلورية الحافزة على فعل الكتابة التجريبية ، حتى عثر عليها فى أغنية لا معقولة يمكن أن تحفزه على فعل التجريب ، على غرار المسرح العبثى الغربى ، فكتب عندئذ مسرحيته التجريبية أو الطليعية على الفور ( ١٩٦٢ ) وهى مسرحية يا طالع الشجرة يجارى بها التيار العبثى التجريبى الغربى ، ولكن بمنظور شرقى كما يقول ، وغايته أن يجعل من هذه

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩ .

التجربة التأسيسية تجربة عربية إذا ما ربطها بالعنصرية الشعبية كما يقول ومن ثم كان السؤال الملحاح لحظة تخلق المسرحية يكمن فى قوله :

" محاولة أخرى لربط بعض ملامحنا الشعبية القديمة بأحدث مظاهر الفن المعاصر فى يا طالع الشجرة ، وكان تساؤلى فيها هو : هل نستطيع أن نلحق بأحدث اتجاهات الفن العالمى عن طريق فننا وتراثنا الشعبى ؟ .. " (١) .

وهو ما حاول الإجابة عنه بالفعل من خلال بعض العناصر الشعبية التى ظلت تشاغب أفقه الإبداعى ، لا كعنصرين بنائين يتناصان مع نص مسرحى ، أو يدخلان فى نسيجه النصى أو البنائى ، كما هو الحال فى نصوصه الدرامية السابقة وإنما كعنصرين دالين على اتجاه أو مذهب أو أسلوب فنى عربى الجذور مواز لتيار المسرح العبثى باعتباره أحدث المذاهب الفنية الأوروبية آنذاك .

إنه فى هذه المرة يسعى إلى استلهم أسلوب أو اتجاه فنى فى التعبير نابع من فنوننا الشعبية وثقافتنا الجمعية ، يمكن أن يشاكل أو يشابه الأسلوب أو الاتجاه الفنى لمسرح العبث . وقد أطلق عليه اللامعقول الشعبى ، واعتبر ذلك كما يقول كشفاً أو سبقاً فنياً لم يعرفه الفن الأوروبى الحديث من قبل :

" وهنا بعد عودتى إلى بلادى أخذت أتأمل فنون شعبنا ، وإذا بهى أجد الأرض الحقيقية التى احتوت معدن هذا الفن الحديث كله ... وإذا كانت السمة الظاهرة فى الفن الحديث من تصوير ونحت ومسرح ... إلخ هى التعبير عن الواقع بغير الواقع ، والالتجاء إلى اللامعقول واللامنطقى فى كل تعبير فنى ... فإن كل ذلك قد عرفه فنانونا القديم الشعبى على أرض بلادنا منذ القدم... " (٢) .

وهذا يعنى أن الحكيم الباحث عن التأصيل ، وتحقيق فعل التجريب التأسيسى لم يشأ أن يدخل فى علاقة تناصية قوامها التبعية الفنية المطلقة للمسرح الأوروبى على طول الخط كما

(١) توفيق الحكيم : قالبنا المسرحى ، ص ١١ - ١٢ .

(٢) يا طالع الشجرة ، المقدمة ، ص ١٠ .

يعتقد ( برغم حضور فعل التجريب الغربى حضوراً طاعياً ، فنياً وفكرياً ، بالمشاكلة أو الاختلاف ، عند الحكيم ، مبدعاً ومفكراً ) ، أو بالأحرى لم يشأ أن يتماهى فيه على نحو مطلق ، وآثر أن يتناص مع الشكل العبثى الشعبى العربى . ذلك أن الفن الشعبى العربى - فى جانب منه - فن طليعى حتى بالمفهوم الغربى ، بل سابق عليه ، كما يقول ، اعتماداً على قناعاته الخاصة بأن :

" فننا الشعبى قد عرف قبل كل هذه المدارس - هذه الأسرار دون أن نلقى إلى مقصده بالاً ، ولطالما اتهمنا عرائس المولد الحلاوة ، ومخلوقات العجيبية المختلفة من طيور وحيوان وزهور ورسوم وأشكال وأوراق ملونة ومذهبة ومفضضة وقطع زجاج وصينى بأنها أعمال بدائية قبيحة ساذجة ... دون أن ندرك أنها بصورتها الشعبية إنما تكاد تمثل أحدث مدارس الفن فى أوروبا ، قبل أن تظهر هذه المدارس بأجيال ... وأعرف من الأوربيين من اشترى من بلادنا عروسة مولد من الحلاوة ، ووضعها فى داره بباريس بين لوحات " البراك " و " موديلاتى " و " ماتيس " ولا يخشى على هذه القطع الفنية فى نظره إلا من النمل !! (١) .

إن هذه القراءة التأملية المقارنة للحكيم جعلته يفتن إلى خطأ الرؤية الثقافية المهيمنة (الثقافة العالمة) فى نظرتها إلى الأدب الشعبى فضلاً عن استعلاء الرؤية النقدية عليه آنذاك، وقد رفضها الحكيم ، وما دام الأمر كذلك فينبغى تقدير الفن الشعبى العربى حق قدره على نحو ما يفعل الأوربيون معه ، وأيضاً ينبغى مجاراتهم ، ليس فى الاحتفاء به فحسب ، وإنما أيضاً فى استلهامه على نحو ما يفعلون مع تراثهم . على أن يكون هذا الاستلهام حافزاً ، على التجديد والتجريب ، بمعنى أنه لا ينبغى أن نتوقف عند حدود الشكل أو الاتجاه الفنى ، بل يكون أيضاً على مستوى المضمون (٢) . وهكذا يكون التجديد ويكون التجريب فى رأيه ؛ فالمسرح التقليدى " يقوم على المعنى والمنطق والعقل " (٣) . أو " الواقعية الفكرية " (٤) ،

(١) نفسه : ص ١٥ - ١٦ .

(٢) انظر الطعام لكل فم : ص ١٩١ .

(٣) يا طالع الشجرة . المقدمة ، ص ٦ .

(٤) نفسه : ص ٧ .

ومن ثم فقد انطفاً بريقه ، على النقيض من التيارات أو المذاهب المسرحية الأخرى ، الصاعدة أو التجريبية .

أما وقد تأججت الرغبة فى التجريب لديه تلبية لدواعى النهضة ( المسرحية ) كما يقول ، فقد حدث أن تزامنت هذه الرغبة التجريبية مع تجريبية المسرح العبثى فى الغرب . ومن ثم لم يجد الحكيم فكاً من مجاراتها أو محاكاتها فى مشروعه التجريبى الذى تجلّى فى مسرحية يا طالع الشجرة ، شريطة أن تكون هذه المجارة أو المحاكاة بشروطه " الثقافية " الخاصة ، حيث يقول :

" هذا الاتجاه الذى تسير فيه المسرحية وإن كان مسaireً لاتجاه ما يسمى بالمسرح الجديد اليوم فى تحرره من الواقعية إلا أنه لا يخضع لنوع معين فيه ، فإن طبيعته الشخصية من جهة ، واستلهاماته الشعبية المصرية من جهة أخرى لها دون شك - وربما على رضى - دخل كبير فى تكييف نوعها تكييفاً خاصاً يمكن أن أسميه الآن مثلاً : اللاواقعية الشعبية الفكرية " (١) .

وتنطوى هذه التسمية كما يقول الحكيم على تناقض ظاهر أول الأمر ( وكأن الشعبية لا تنطوى على فكرها الخاص ! ) وأنه سعى - من خلال وعيه المعرفى والنقدى بالنصوص الشعبية - إلى الخروج من هذا التناقض بهذا التفسير الذاتى :

" غير إننى أعتقد شخصياً ، وأحب دائماً أن أرى وأن استخرج - كما حدث عندي فى مسرحية شهرزاد - من فتننا الشعبى أساساً فكرياً ، حتى عندما لا يريد الفن الشعبى أن يقول شيئاً ، بل على الأخص عندما لا يريد أن يقول شيئاً وليس هذا من قبيل المزاح . حيث اللامعنى هو فى ذاته معنى ، وأن هذا هو الجوهر الحقيقى للفن الحديث " وهو أيضاً " جوهر إبداعنا الشعبى " (٢) .

الأمر الذى دفع الحكيم - على مستوى التجريب والتجديد - إلى القول إن الفنان الشعبى العربى - ذلك العبقرى المجهول - قد :

(١) نفسه : ص ١٣ .

(٢) نفسه : ص ١٤ .

" أدرك بالسليقة هذه المنطقة الغنية العميقة من مناطق التعبير الفنى قبل أن يدركها الفنان الغربى ، ويضع لها المذاهب ... هذا هو السبب الذى دعانى اليوم إلى كتابة هذه المسرحية فنحن أولى من غيرنا باستلهاهم أساليبنا الشعبية فى الاتجاهات الفنية المختلفة " (١) .

بهذا الاعتراف " التناصى " المباشر ، بعلاقاته وتعالقاته جاء " اشتغال " النص الحكيمى على النص الشعبى ... ومنفتحاً عليه ، ومنقباً عن " الكنز الدفين " الذى به يتأسس المشروع المسرحى فى جانبه التجريبى للحكيم ... وما كان ذلك ليستحقق لولا هذا الوعى العميق للحكيم بالتراث الشعبى ، وعياً تاريخياً ومعرفياً وفنياً ونقدياً .

وبهذا الاعتراف التناصى أيضاً ، وبهذا العمل الإبداعى الجديد أو التجريبى ( يا طالع الشجرة ) وعرضها على المسرح عام ١٩٦٢ ، يكون الحكيم قد دشّن تيار المسرح العبثى فى الظاهرة المسرحية العربية ، وسرعان ما أكد هذا التيار بكتاباته مسرحية الطعام لكل فم عام (١٩٦٣) ومسرحية مصير صرصار عام (١٩٦٤) ومسرحية الصرصار ملكاً عام (١٩٦٥) ممهداً ومؤكداً خلالها الطريق إلى مسرح العبث المصرى والعربى ، ومفهومه الخاص لهذا التيار والفرق بينه وبين مسرح العبث الأوروبى .

بهذا الوعى أيضاً بعبقريّة التراث الشعبى يشرع الحكيم فى التصالح مع الأدب الرسمى الذى انتبه إليه أخيراً فى إطار وعيه المعرفى بضرورة تكامل أدبنا القومى على حد تعبيره الاصطلاحي المبكر ، ومن ثم فلن يتكامل هذا " الأدب القومى " إذا ما ظلت هناك قطيعة قائمة بين الأدبين الرسمى والشعبى ، وأن لا سبيل إلى الإفادة - على مستوى التناص - منهما إلا بإسقاط الحواجز بينهما إذا شئنا التجديد والابتكار فى أدبنا المعاصر على حد قوله:

" هذا الأدب الرسمى إذن ، بسقوط الجدار القائم بينه وبين الأدب الشعبى إلى أدب واحد ، ومنطقة واحدة ، ودولة واحدة هى " أدبنا " ... يستلهم منها الأديب الشعبى والرسمى - أو ما كان يسميان كذلك - على السواء " .

بهذا الوعى المبكر (١٩٢٨) لا ينادى الحكيم باستلهاهم التراث الشعبى فحسب ، وإنما سوف يحاول - فيما بعد - الدعوة إلى تكامل الأدب العربى ووحدة أدبنا القومى ... ومن



هنا شرع فى التصالح مع " الأدب الرسمى " . على نحو ما أطلق عليه<sup>(١)</sup> يومئذ ( مقابلاً لمصطلح الأدب الفصيح ) ، وهو التصالح الذى انتهى به إلى الرؤية التكاملية فى النظر للآداب والفنون الشعبية والرسمية القديمة والحديثة على السواء ، وأن مثل هذه الرؤية التكاملية كانت وستبقى سبيله إلى الابتكار والتجديد وتحقيق التناص الإيجابى ؛ والتفاعل التراكمى الخلاق بين الأجيال والنصوص الأدبية على حد سواء ؛ فيقول :

" لهذا عتيت بالفن التقليدى وبالفن الحديث معاً ، وأحببت الفن الرسمى والفن الشعبى معاً ... على أنى عندما أذكر التجديد والابتكار لست أعنى وجود قطعة تامة بينه وبين الفن التقليدى السابق عليه ، بل إن الذى يحدث عادة هو أن الجديد يخرج من القديم " (٢).

وهى رؤية متقدمة للحكيم - بمقاييس عصره - على المستوى العلمى والأكاديمى أيضاً<sup>(٣)</sup>. مثل هذه الرؤية التكاملية لم تتوقف عند حد التصالح مع الأدب الرسمى والفن الرسمى فحسب ، بل تتجاوزها كذلك إلى " إنصاف " الأدب الرسمى والفن الرسمى ، وتقائز ما هو

(١) نفسه : ص ٢٠ . وفى هذا السياق يؤكد الحكيم مرة أخرى أنه أول من استخدام مصطلح أدب رسمى فى مقابل مصطلح أدب شعبى كما سبق أن استخدمهما فى زهرة العمر . ولكنه يضيف هنا تبريراً ، إذ يقول : " .... ولكن الأدب الرسمى على كل حال خير عندى من استعمال عبارة ( مصطلح ) الأدب الفصيح ، لأن الأدب الشعبى عندى هو أيضاً فصيح ، وربما كان من حيث الفن أفصح ... كما أن عبارة ( مصطلح ) الأدب الجدى ليست كذلك موفقة لأن الأدب الشعبى هو أيضاً جاد فى كثير من المواضع والموضوعات ، فلنستخدم إذاً مؤقتاً عبارة الأدب الرسمى على الرغم من عدم الدقة " . انظر بالتفصيل : مقدمة يا طالع الشجرة ، ص ٢٠ .

(٢) مسرحية يا طالع الشجرة : ص ١٨ .

(٣) لكى نضع هذه الرؤية فى إطارها التاريخى ، يجب أن نتذكر أن الجامعات العربية لم تكن قد اعترفت بشرعية الأدب الشعبى حتى عام ١٩٦٠ عندما أنشئ أول كرسى للأدب الشعبى فى مصر ، جامعة القاهرة .

أما الجدى العلمى لهذه الرؤية فتكمن فى إثراء الأدب العربى وأجnasه الأدبية ، وفى إثراء الدرس الأدبى نفسه فى جامعاتنا العربية التى لم يعترف معظمها حتى اليوم بالأدب الشعبى ... علماً بأن كل الدراسات الأدبية فى الجامعات العالمية تنطلق من رؤية تكاملية وتاريخية ، مؤداها أن الآداب الشعبية سابقة على الآداب الرسمية ، وأن الأخيرة مدينة فى تأسيسها وتطورها للآداب الشعبية .

رسمى عما هو شعبى ، ضمن شروط خاصة يحددها الحكيم عبر عدد من التساؤلات ، تتمحور إجاباتها - من وجهة نظرنا - فى طبيعة النصوص نفسها ، فالنص الرسمى نص كتابى ، والنص الشعبى نص شفاهى ، الأول ثابت على مر العصور والآخر متغير على مر الزمان واختلاف المكان ، ولذلك فالحكيم يرى أن النص الرسمى أكثر خلوداً ، ولكن ضمن شروط سوسيوثقافية أخرى لم يتحدث عنها الحكيم - ولا مجال لذكرها أو مناقشته فيها - وحسبنا فى هذا المقام - برغم تحفظنا الشديد - أن نسجل موقف الحكيم عام ١٩٥٢ من خلود الأدب الرسمى :

" كما أن الملاحظ فى الآثار الأدبية التى تنتقل من عصر إلى عصر أنها تكاد تكون محصورة فى أدب الخاصة ، فالأدب الشعبى قلما ينتقل من جيل إلى جيل ، ومن موطن إلى موطن ، بالكمية والسرعة التى ينتقل بها الأدب الرفيع .... أترى الخلود الأدبى لا يصنعه غير نفر قليل من الصفوة فى كل بلد وعصره ؟ إذا كان هذا صحيحاً فما هو السبب ؟ أهو عجز فى الأدب الشعبى عن الحياة فى بيئة أخرى غير بيئته ، وزمن آخر غير زمانه إلا فى القليل النادر ، عندما يسمو على نفسه بقوة فى الخلق ترفعه فوق اللغات واللهجات والحدود والأزمان والأجناس ، كما هو الحال فى قصص ألف ليلة وليلة " ...

من الذى نقل هذه القصص إلى مرتبة الفن العالى والآداب العالمية ؟ أليسوا هم خاصة من الصفوة التفتوا إلى قيمتها الذاتية ، وفطنوا إلى استحقاقها للبقاء والتقدير ؟ إذا كان هذا أيضاً صحيحاً فما هو السر ؟ لماذا تختص الصفوة المثقفة تكتب وتفسر وتسجل ، فى حين أن سواد الناس (الشعب) يكتفون بالتلقى العابر " (١) .

ويمثل هذا الوعى المعرفى والنقدى أيضاً بالتراث الشعبى والرسمى معاً ، أصالة وتأصيلاً ، تأسيساً وتجريباً ، يمكن أن نفهم مغزى أن يهدى توفيق الحكيم أفضل أعماله إلى بعض الرموز الشعبية والرسمية : فقد أهدى كتابه الرائع *عصفور من الشرق* ( ١٩٣٨ ) إلى حاميته الطاهرة السيدة زينب وأن يهدى مسرحيته الطليعية ( ١٩٦٢ ) دون سواها إلى الدكتور حسين فوزى

صاحب الكتاب العظيم سندباد مصرى (١٩٦١) وهو أمر - على مستوى التناص - لا تخفى دلالتة ، ولا يغيب مغزاه فى اعتصام الحكيم بترائه الشرقى ، الدينى والشعبى فى مواجهة الآخر الغربى ( حيث الحب والخوف ، الإعجاب والخشية من الذوبان ) بكل ما تنطوى عليه هذه الإهداءات أو العتبات ( بما هى مناصات خارجية ) من دلالات فولكلورية فاعلة فى ذاكرته النصية ، حضوراً وتفاعلاً وتواصلاً ، جنباً إلى جنب مع ثقافته الغربية المعروفة التى لم يخفى الحكيم تأثيره بها أو تأثيرها فى تكوينه الفنى والثقافى والفكرى ، وظل يدعو إلى الانفتاح عليها فى إطار رؤيته " التعادلية " المعروفة ، ضمن شروط خاصة نقف عليها فيما هو آت .

### تجليات الاستجابة الفولكلورية فى تأسيس المشروع المسرحى للحكيم :

فى هذه الفترة ، فترة الستينيات يكون المشروع المسرحى للحكيم قد تحقق - فى معظمه - متكئاً اتكاءً أساسياً على فنونا الشعبىة ، سواء أكان ذلك على مستوى التأليف أو على مستوى التجريب التأسيسى . إذ أن الحكيم منذ نصوصه المبكرة عمد إلى تجاوز الجهود المسرحية السابقة التى كانت تقوم على الترجمة والاقتباس والتعريب والاستلهام الاستاتيكي أو السكونى للتراث الشعبى ، وأعنى بالتأليف هنا تأسيس المعنى أو المضمون على حد قوله تأسيساً يتكئ على اختيار قضايا محلية أو عربية معاصرة ، يقوم بمعالجتها فى نصوصه المسرحية المستحدثة ، فإذا تناصت مع نصوص شعبية - وكثيراً ما كان يفعل ذلك - فإنه تناص تفاعلياً أو تعالق جديدياً دينا ميكي ( منذ أوبريت على بابا عام ١٩٢٦ ، ومسرحية الزمار عام ١٩٣٠ ، وأهل الكهف عام ١٩٣٣ ، وشهرزاد عام ١٩٣٤ وغيرها ) .

لهذا لا غرو أن يعد الحكيم رائد الأدب المسرحى بالمعنى الفنى لا التاريخى ، وقد " قُدِّر له أن يكون صاحب الشرف فى خلق أدب مسرحى ثرى حقيقى مبتدع للمرة الأولى فى تاريخ الأدب العرب " (١) .

أما على مستوى التجريب التأسيسى فى مشروع الحكيم المسرحى ، فقد سعى إلى البحث عن اتجاهات أو مذاهب فنية جديدة معاصرة ذات أصول عربية ، نابعة من فنوننا الشعبىة ،

---

(١) أ . بابا دويولو : توفيق الحكيم وعمله الأدبى ، دراسة منشورة فى نهاية مسرحية السلطان الحائر ،

يمكن من خلالها مسايرة أو معاصرة الاتجاهات والمذاهب الفنية الذائعة فى المسرح الأوروبى الحديث والمعاصر . الأمر الذى بلغ ذروته التجريبية فى مسرحيته الطليعية ( يا طالع الشجرة ) عام ١٩٦٣م.

وهذان المستويان سنفيض القول ثانية فيهما فيما بعد ضمن جملة الاستجابات الفولكلورية الأخرى ، بقدر ما يعنينا هنا والآن أن نقف عند البحث عن قالب مسرحى فى إشارة موجزة ، ذلك أن المشروع المسرحى ماكان يمكن أن يتكامل إلا بالبحث عن قالب أو شكل مسرحى يكون عربى الانتماء مصرى الجذور ، يؤكد من خلاله الحكيم الهوية الثقافية لخطابنا المسرحى فى الأدب العربى ، ولعل فيه فكاكاً من دائرة التبعية الغربية . وهى المرحلة التى تعنينا هنا ، ليس لأننا لم نتحدث عنها من قبل ، بل باعتبارها استجابة مباشرة لحضور النص الشعبى التمثيلى فى الذاكرة النصية للحكيم ظلت ترافقه طيلة مشروعه المسرحى .

وقد بلغت هذه المرحلة ذروتها فى عام ١٩٦٧ عندما كشف عنها الحكيم فى كتابه قالينا المسرحى مستفيداً آنذاك من المناخ السوسيوثقافى والفنى السائد فى المجتمع العربى الذى كان قد تهيأ عندئذ لقبول فعل التجريب المسرحى المغاير أو المنفصل عن شكل المسرح الغربى ، خاصة بعد أن كتب يوسف إدريس سلسلة مقالاته الشهيرة فى مجلة الكاتب والتى نشرت بعنوان نحو مسرح مصرى منجمة ، ثم نشرت بعد ذلك فى كتاب عام ١٩٧٤ تحت عنوان نحو مسرح عربى ، وذلك قبيل عرض مسرحيته الشهيرة الفرافير عام ١٩٦٤ ، ودعا فيها إلى التخلّى عن الشكل أو القالب المسرحى الأوروبى ( الخشبة أو العلية الإيطالية ) ، واستخدام شكل السامر بدلاً عنه<sup>(١)</sup> فى محاولة رائدة منه لتأصيل الظاهرة المسرحية ، واقتراح أشكال تجريبية ترمى إلى إكسابها ملمحاً عربياً خالصاً ، من خلال امتطائها صهوة تراثنا الشعبى عامة وفنون الفرجة الشعبية التمثيلية أو التراثية ، حيث إن روح المسرح وجوهه - بما هو فعل جمعى - يتجلى فى " الاحتفال الشعبى " .

ثم انخرط التجريبيون العرب - بعد يوسف إدريس - فى استلهام التراث الشعبى بقوة ، بقدر ماكان يوفر لهم من نصوص ورموز وأقنعة وأبنية درامية ، وجاء ذلك - الانخراط - فى نبرة دفاعية وتعويضية للذات العربية فى آن ، ولما لم يكن من شأننا تقييم تجربة التجريب فى

(١) انظر : يوسف إدريس : نحو مسرح عربى ، بيروت ، ١٩٧٤ .

المسرح العربى<sup>(١)</sup> فى مجال المحاولات العربية الكثيرة الباحثة عن شكل أو قالب مسرحى عربى الوجه والهوية مصرى الملامح والشخصية ، بقدر ما يعيننا الكشف هنا عن دور الحكيم فى هذه الظاهرة ، فإننا نبادر إلى تأكيد ريادته - مرة أخرى - فى استدعاء المأثور الشعبى واستلهامه ، بقدر ما جاء أيضاً انطلاقاً من وعى معرفى وتاريخى ، ومن وعى فنى ونقدى متحرر ، وعى يرفض ويقبل ، وبأخذ ويضيف ، ويبنى ويهدم ، فى تناص إبداعى وحضارى موجب ، بحثاً عن شكل مسرحى عربى الجذور ، قومى الانتماء ، خصوصى الثقافة .

فكانت هذه الريادة بمثابة مقدمة أساسية لظاهرة التجريب ومتفردة ، وغير مسبوقه ، وكان قد بدأ الوعى الإبداعى بها مبكراً فى نصوصه المسرحية الأولى ( مثل الزمار والصفقة ، ويا طالع الشجرة ) قبل أن يقوم بالتنظير لها فى كتابه قالبنا المسرحى ، حيث يقول :

" فى عام ١٩٣٠ كتبت مسرحية الزمار ، مستلهماً السامر الرفى ... ثم ظهرت بعد ذلك عام ١٩٥٦ الصفقة ، وهى محاولة لإدخال الفنون الشعبية الرفية من رقص وتحطيب وغناء فى إطار المسرحية ، وأن تدور كلها فى العراء أو الجرن أو أمام مصطبة ... إلى أن كان عام ١٩٦٢ حيث كانت محاولة أخرى لربط بعض ملامحنا الشعبية القديمة بأحدث مظاهر الفن المعاصر فى مسرحية يا طالع الشجرة وكان تساؤلى فيها هو : هل نستطيع أن نلحق بأحدث اتجاهات الفن العالمى عن طريق فننا وتراثنا الشعبى ؟ " (١) .

وكان جواب الحكيم عن هذا السؤال التأسيسى إيجابياً ، على نحو ما تجلّى فى مسرحية يا طالع الشجرة ، لكنه لم يجب - فى الوقت نفسه - عن كل أسئلة الإبداع عنده ، إذ يقول :

" كان كل ما نصبو إليه هو أن يكون مبلغ أصالتنا احتواء أعمالنا على قدر من الطعم الخاص والرائحة التى تنم علينا ... لكن بقى مطلب أو مطمح يراود الكثيرين : ذلك هو الشكل أو القالب .. وكان السؤال التأسيسى الآخر هو :

---

(١) عن تقييم ظاهرة التجريب فى المسرح العربى ، انظر الدراسة المتميزة التى كتبها سعيد الناجى فى كتابه التجريب فى المسرح ، خاصة الفصل الثانى ص ١١٠ وما بعدها ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ١٩٩٨ .

(٢) قالبنا المسرحى : ص ١٢ .

هل يمكن أن نخرج عن نطاق القلب العالم ، وأن نستحدث لنا قالباً أو شكلاً مسرحياً مستخرجاً من داخل أرضنا وباطن تراثنا ؟ " (١) .

يعنى التراث الشعبى ، كما سيتضح وشيكاً ، ويعترف الحكيم بصعوبة الإجابة عن هذا السؤال ؛ فيقول :

" إن الإجابة عسيرة ، وتحقيق ذلك أعسر ... لكن مهما يكن من أمر فلا ينبغي أن نقعد عن المحاولة ، ولقد فكرت فى ذلك ، ورأيت أنه للبحث والتنقيب داخل أرضنا وتراثنا يجب أن نكر راجعين إلى ما قبل مرحلة السامر ، هناك فقط نكون بعيدين عن كافة المؤثرات الخارجية فما هى المرحلة السابقة على مرحلة السامر ؟ .

إنها ولا شك المرحلة التى كنا فيها بعيدين جداً عن فكرة التمثيل أو التشخيص ... إنه العهد الذى ما كنا نعرف فيه غير الحكايات والمداين والمقلدين ... فنون بدائية من غير شك ، ولكن الناس وقتئذ كانوا مع ذلك يجدون فيها أخصب المتعة ... كانوا يجدون فى حكاية الحكاياتى للسير والملاحم ، وفى تقليد المقلداتى للأشخاص والمشاعر ما أمدهم بمتعة فنية عوضتهم عن المسرح ... فالتأثير الذى كان يحدثه فى نفوسهم مثل هذه العروض كان عميقاً ... وكفى أن تذكر ما كانت تحدثه فى نفوسنا ونحن أطفال حوادث جداتنا وأمهاتنا عن الشاطر حسن وست الحسن والجمال ، وما كان يحدثه فى شبابنا الشاعر أبو ربابه بروايته لحروب أبى زيد الهلالي والزناى خليفة ... وكيف كان الحضور يتخاصمون من شدة الانفعال .. فريق معجب بأبى زيد وفريق معجب بالزناى ... وكان الشاعر الحاكى إذا وقف بحكايته عند انتصار أحد البطليين وهم بالانصراف ، صاح به الفريق الآخر وأقعده حتى يروى انتصار بطله هو الآخر ... كل ذلك بلا ملابس ولا ديكور ولا خشبة مسرح ولا تمثيل ... إنما هو مجرد حكاية رجل موهوب يجيد الحكاية قد أحدث فى

الناس هذا التأثير العجيب ، الذى قل أن يوجد نظيره فى مسرح حقيقى<sup>(١)</sup> ،  
لانعدام الاتصال المباشر بين الحضور والممثلين فوق المسرح ، هذا المنبع (الشعبى).  
نستطيع أن نخرج منه بشىء " (٢) .

وعلى الرغم من أن الحكيم متأثر فى رؤيته - على نحو من الأنحاء - ببعض الاتجاهات  
المسرحية الأخرى ، كالمسرح الملحمى والمسرح المرتجل ، فإن الذى يعيننا هنا والآن هو أنه قد  
وجد أن ضالته التجريبية ، بحثاً عن القالب أو الشكل ، لن تتحقق إلا بالبحث أو الكشف  
عنها فى المنبع الشعبى على حد قوله ، حيث هذا الشكل أو القالب يقوم فى رأيه على  
شخصيتين أو ثلاث إذا لزم الأمر :

" وهذا ما حاولته هنا من جعل قالبنا يقوم أساساً على الحكايات  
والمقلداتى ، وأحياناً المداح إذ لزم الأمر . وأضفت من عندى مقلداتية أى مقلدة  
للأدوار النسائية . ولن يكون لقالبنا هذا بالطبع خشبة مسرح ولاديكور ولا  
إضاءة ولا مكياج ولا ملابس ، فكما كان الخاكى والمقلد والمداح والشاعر (شاعر  
الربابة ) يقومون فى الماضى بأعمالهم بلباسهم العادية فى أى مكان ، كذلك  
مسرحنا هذا سيكون بهذه البساطة ، سنعود به إلى المنبع الصافى بتصل مباشرة  
بالجوهر " (٣) .

وهذا يعنى أن هذا القالب الذى اقترحه لا يتطلب شيئاً مما يتطلبه المسرح الغربى ، لأنه كما  
يقول يقوم على الجوهر ، وعلى الاتصال الحى بين الفن والإنسان<sup>(٤)</sup> فى أى مكان ، وفى أى

(١) هذا التأثير العجيب الذى قل أن يوجد نظيره فى المسرح الأوروبى نفسه سبق أن قال به كثير من  
الرحالة الغربيين والمستشرقين الذين زاروا المنطقة العربية ، ومنهم على سبيل المثال : جوستاف لوبون ؛ انظر  
له: الحضارة العربية ، ترجمة عادل زعبيتر ، ص ٣٤٥ ، القاهرة ، ١٩٦٤ . ولزيد من التفصيل ؛ انظر كتابنا  
التراث القصصى فى الأدب العربى - مقاربات سوسيوسردية ، ص ٢٣٨ - ٢٤١ ، مكتبة ذات السلاسل ،  
الكويت ، ١٩٩٥ .

(٢) قالبنا المسرحى : ص ١٣ - ١٤ .

(٣) قالبنا المسرحى : ص ١٥ .

(٤) نفسه : ص ١٥ .

مكان ، وفى أى فضاء ؛ فى أصغر مصنع أو أصغر قرية - كما يقول - باعتباره - عندئذ تعبيراً احتفالياً جمعياً يقوم على اللقاء والحوار والمشاركة . ويعتمد هذا القلب على عنصرين شعبيين أساسيين : الحاكى والمقلد : الأول يتكفل بفاعلية السرد ، والآخر بالتقليد والمحاكاة ، فإذا ما احتجنا إلى الأداء الغنائى كان المداح منشداً ومؤدياً فى آن .

وإذا غصصنا الطرف عن أن هذا القلب يستمد مشروعيته من مرحلة نقاء ثقافى - على حد تعبير سعيد الناجى - يعيد للذات القومية هويتها الثقافية ( المسرحية ) المفقودة ، فإنه لا يمكن اعتباره شكلاً مسرحياً يؤطر للفرجة حسب مبادئ ومفاهيم جمالية ، من حيث هو غلط قار وثابت للإبداع المسرحى يحصره فى ثلاث فعاليات تمثيلية على الأكثر . وقد أدرك الحكيم انغلاق هذا القلب وصعوبة الأخذ به فى سياق يضمن قيمة الاختلاف والتعدد ، فكان أن نبه "بروض" إلى أنه ليس معنى المناذاة بهذا القلب الانصراف عن القلب العالمى المعروف " (١) . وفى هذا دليل على انغلاق الحالة التجريبية التى يعانى منها المسرح العربى حتى اليوم (٢) . وهو ما يفسر لنا عدم تكرار الحكيم لهذه التجربة فى ظل هيمنة ثنائية الذات والآخر التى تترنح بين مرجعية عربية ماضوية ومرجعية غربية حديثة .

ويصرف النظر - أولاً - عن تقييم تجربة الحكيم فى كتابه نصوص إبداعية فى إطار هذا القلب الشعبى ، ويصرف النظر - ثانياً - عن المبررات المسرحية التى قدمها الحكيم نفسه (٣) ، ويصرف النظر - ثالثاً وأخيراً - عن موقف النقاد ، سلماً أو إيجاباً من هذا القلب (٤) ، فإن الذى يعنينا التأكيد عليه والإشارة إليه هو أن الحكيم اعتمد فى تأسيس مشروعه المسرحى - من حيث البحث عن القلب - على ظواهر تمثيلية شعبية ( تشبه لعبة

(١) قالبنا المسرحى : ٢١ .

(٢) سعيد الناجى : التجريب فى المسرح ، ص ١١٤ .

(٣) للوقوف على هذه المبررات : انظر قالبنا المسرحى : ص ١٦ - ٢١ .

(٤) كثيرة هى الدراسات الأدبية والنقدية التى تتعلق بتقييم هذا القلب المسرحى ، نحيل القارئ إلى بعضها ، مثل كتاب التجريب فى المسرح (م.س) ص ١١٢ - ١١٥ .. ولزيد من التفصيل انظر : إبراهيم حمادة : توفيق الحكيم والبحث عن قالب مسرحى عربى ، مجلة عالم الفكر ، ص ٥٩ - ٦٧ ، ٢٠٠٢ ، ٣ ، أبريل ١٩٨٢ ، الكويت .



التمثيل (المونودرامى) وقد نشأت عفويًا ، بما هي جزء من الثقافة الشعبية بالشعب ومن الشعب إلى الشعب ، تؤدي أداءً حيًا أثناء احتفالاته الجمعية أو خلال لحظات الفرحة الشعبية التي تعتمد بالإسناد على التأقلم والاستجابة مع متطلبات اللحظة وطبيعة المتلقي ، إشباعًا لاحتياجاته الجمالية والفكرية " الوظيفية " بالمعنى الفولكلورى ، وتعبيرًا عن موقفه من الكون والحياة والوجود أى ( الرؤيا الجمعية أو الشعبية للعالم ) .

وهذا يعنى أيضًا أن الحكيم يؤمن بوجود ما يسمى بالأشكال الماقبل مسرحية المتعددة فى التراث الشعبى العربى ، يمكن استنباتها على حد تعبيره ، ثم تطويرها بما هي بذرة أولية يمكن أن تنطلق منها فى تأسيس قالبنا المسرحي<sup>(١)</sup>. الأمر الذى يؤكد وعيه الفائق - الإبداعى والنقدى - بفنوننا الشعبية وأساليب الاغتراف منها ( وهذا لفظه ) بعد استدعائها وهضمها ثم استلهاها والإفادة منها فى مرحلتى التأسيس والتجريب من ناحية ، مع وعى مفارق غايته التجاوز والمغايرة مع الآخر الغربى من ناحية أخرى ، على اعتبار أن غاية هذا القالب أو الشكل أن يعبر عن خصوصية الذات العربية ، بعيدًا عن التأثيرات الخارجية ، حيث يقول الحكيم نفسه : " هناك فقط نكون بعيدين عن كافة المؤثرات الخارجية " (٢) .

والعبارة الأخيرة ، تنطوى على دعوة للأصالة التى قضى الحكيم حياته باحثًا عنها ومحققًا لها فى مشروعه المسرحى ، إيمانًا منه بأن الأصالة هي الرؤية المعاصرة للتراث أو بعث جسد قديم برأس حديث على حد قوله ، لأننا حين نتعامل مع التراث ، لا نتعامل معه باعتباره مادة خام تنتمى إلى الماضى الذى انتهت وظيفته ( كما ذكرنا من قبل ، عندما ضرب مثالًا لذلك بألف ليلة وليلة ، وعدم مناسبتها بصورتها الموروثة - على عالميتها - لسياق الحاضر ومتطلبات المستقبل ) وإنما نتعامل معه باعتباره مواقف حية وحركة مستمرة " فالفكر الإنسانى خليط من البنيات التراثية ( المتناصّة والمتراكمة ) التى فرضت وجودها انطلاقًا من جدلية التأثير والتأثر ، وكل تراث لا يؤكد استمراره فى حركة التاريخ لا يعتبر أصيلًا ...

---

(١) على الرغم من أنه ليس من شأننا مناقشة هذا المشروع / القالب - فهذا شأن المعنيين بالمسرح - فإننا نود التنبيه على أن الحكيم بطبعه يقف هنا موقفًا وسطيًا تعادليًا ؛ فهو لا يقول بغياب الظاهرة المسرحية فى تاريخنا الثقافى ، كما لا يقول بوجودها بكل مكوناتها واشتراطاتها ومعاييرها الغربية أو العالمية .

(٢) قالبنا المسرحى : ص ١٣ .

لأن الارتباط وثيق بين الماضى والحاضر والمستقبل ، فى علاقة جدلية حتمية ، تجعل الماضى منعكساً على الحاضر ومؤثراً فى المستقبل ، وتجعل بذلك حركة التاريخ حركة كلية لا تتجزأ<sup>(١)</sup>.

إن لجوء الدراميين العرب إلى التراث الشعبى له ما يبرره فنياً ، ذلك " أن هذه العملية إنما تؤكد سعيهم الحثيث نحو تأصيل صيغة المسرح العربى ، هذا التأصيل الذى يعطيهم صفة الحدث ، إذ لا حدث إلا فى الارتباط بالتراث ، كما يرى حسين مروة " (٢).

وفى ضوء ما سبق يمكن القول إن توفيق الحكيم - هذا المبدع الداهية فى تاريخ المسرح العربى - قد جعل من إدماج المسرح فى الثقافة العربية مهمة رئيسية ، تأسيساً وتأصيلاً ، تجديداً وتجريباً . وهذا هو جوهر مشروعه المسرحى القائم على تحقيق نوع من التوازن بين الضرورة التأسيسية وبين ضرورة التجاوز من خلال التناص مع المنبع الشعبى فى خمسة تجليات تشكلت عبر خمس مراحل ، كل مرحلة منها تعد ركيزة أساسية أو معلماً بارزاً فى مشروعه المسرحى ، وكلها تعمل متعاقبة أو متزامنة من أجل غرس الخطاب المسرحى ، وترسيخ ممارسته فى بنية الثقافة العربية ، حيث تكمن ريادته . وإذا كان التجريب فى المسرح العربى ( وهو تجريب تأسيسى فى جوهره ) (٣) ، قد ارتبط بفترة الستينيات ، فإن توفيق الحكيم " يكاد يكون منفرداً فى اتجاهه وفى أسبقيته التمهيدية ، بلورها فى كتابة النصوص المسرحية قبل التنظير

---

نان : توظيف التراث وإشكالية التأصيل فى المسرح العربى ، مجلة " عالم الفكر " ، ص ٧٩ ، م ١٧ ، ٤٤ ، يناير ١٩٨٧ ، ومصادر النقل هناك .

(٢) نفسه : ص ٨٧ .

(٣) هذا النوع من التجريب غايته خلق تقاليد مسرحية وترسيخها فى الثقافة العربية ، فى سياق يعانى من غياب الظاهرة المسرحية بفهومها الحديث المتعاقد عليه ، على النقيض من التجريب فى المسرح الغربى باعتباره " انزياحاً من المعيار المؤسس داخل تراكم مسرحى سابق ، وتجاوزاً لضوابط جمالية باتت متقدمة وكلاسيكية ، لا تنسجم مع مدارات الحدث وعطاءاتها " . انظر : التجريب فى المسرح (م.س) ص ٩٥ .

(٤) نفسه : ص ٩١ .

وما قاده إلى ذلك إلا انفتاحه المبكر على النصوص الشعبية وتعالقه معها منذ أن بدأ الكتابة المسرحية فى العشرينيات من هذا القرن انفتاحاً يؤكد قدرته وبراعته فى توظيف معطيات التراث الشعبى بطريقة درامية ، فنية إيحائية رمزية ، لا بهدف التوقف إلى الماضى ، أو لممارسة حنينه الرومانسى نحو ذلك الإرث التليد ، ولكن ليفرز معاناته ، ويسقطها على معطيات التراث ، وبهذا يمتد خط التاريخ وخطبه ليصل إلى الحاضر عبر الماضى<sup>(١)</sup>. على نهج ما فعل الحكيم ، وعلي النحو الذى يمكن معه تلخيص تجلياته وانفتاحه على التراث الشعبى فى خمس مراحل - كما أشرنا - هى :

### مرحلة التأسيس الموضوعاتى :

فى هذه المرحلة استلهم الحكيم النصوص الشعبية على مستوى المحتوى الموضوعاتى باعتباره أفكاراً ورؤى وقضايا جمعية تشكل العمود الفقري فى الأدب والفن فى رأيه<sup>(٢)</sup>. ومن ثم يعمد إلى التناص معها ، قهاياً أو تعارضاً أو تحولاً فى كثير من نصوصه المسرحية ، على نحو ما نرى فى أعماله الكثيرة المتعاقبة مع النصوص الشعبية " ليقول فيها كلمته عن وضع الإنسان فى كونه وفى مجتمعه "<sup>(٣)</sup>. وقد اخترنا بعضها للتطبيق مثل مسرحية مجلس العدل ، ومسرحية نهر الجنون ، ومسرحية السلطان الحائر ، ومسرحية يا طالع الشجرة ، باعتبارها تمثل أنماطاً مختلفة من التناص الموضوعاتى .

### مرحلة التأسيس الفنى :

فى هذه المرحلة استلهم الحكيم الفن الشعبى فى تأصيل / تأسيس مذهب أو اتجاه فنى عربى الجذور ، يمكن أن يكون قادراً أو بالأحرى مسائراً لأحدث المذاهب الفنية أو الاتجاهات

(١) مصطفى رمضان (م.س) ، ص ٨٧ .

(٢) يرى الحكيم أن الموضوع هو صلب العمل المسرحى ويعرفه بأنه كل ما يستطيع أن يثير اهتمام الناس وقضاياهم ، ويعبر عنهم ، ويدفعهم إلى التفكير لا التخدير ، وأن الموضوع الجيد فى المسرحية ليس ضرورة من ضروراتها فحسب ، بل هو الذى يرقى بالنص ويعمل على خلوه ؛ ذلك أن الاختيار الجيد هو - للمؤلف المسرحى - اكتساب لنصف الموقعة ( الإبداعية ) على حد قوله .

انظر للحكيم : التعادلية ص ٩٦ ، وفن الأدب : ص ١٣٥ .

(٣) توفيق الحكيم : التعادلية مع الإسلام ، ص ١٠٤ .

المسرحية الغربية ؛ وبدلاً عنه ومغايراً له فى الوقت نفسه ، على نحو ما فعل فى مسرحية يا طالع الشجرة (١٩٦٢) التى دشّن بها تيار " اللامعقول " فى المسرح العربى ، فكتب بعدها مسرحية الطعام لكل فم (١٩٦٣) ومسرحية مصير صرصار (١٩٦٤) ومسرحية " الصرصار ملكاً " (١٩٦٥) وغيرها <sup>(١)</sup>، نقف عنده تفصيلاً فى حديثنا عن آفاق التناس فى مسرحية يا طالع الشجرة ، مؤسساً ومهداً من خلال هذه النصوص الطريق إلى مسرح العبث المصرى والعربى ، ومحدداً أيضاً فيها مفهومه الخاص لهذا التيار ، ومدى استقلالته عن تيار مسرح العبث الغربى ؛ مؤكداً فى ذلك كله اعتماده على الأدب الشعبى المصرى العربى بعد أن تعمق فى دراسته وفهمه - بوعى معرفى وفنى ونقدى فى آن ، من غير استعلاء نخبوى عليه :

" فنحن قد اعتدنا عند النظر فى أدبنا الشعبى أن نتجه تواء نحو اللغة وإلى اللفظ ، وهذا يصرفنا أحياناً عن تأمل الأسلوب الداخلى للتعبير الفنى ذاته ... ولماذا هو واقعى أو غير واقعى ؟ وما سر اللامعقولية واللامنطقية فيه ؟ وما هدف الفنان الشعبى من هذا اللون من هذا التعبير ؟ وكيف استطاع أن يرتاد بهذه الطريقة مناطق عجيبة " <sup>(٢)</sup> .

### مرحلة التأسيس الأدبى :

وهى المرحلة التى استلهم فيها الحكيم التراث الشعبى فى تأسيس / تأصيل قالب أدبى أو شكل مسرحى عربى الجذور أيضاً ، يضارع به القوالب المسرحية العالمية ، ويمكن غرسه بين الأنواع الأدبية فى الأدب العربى الحديث ، فلا نشعر عندئذ بالتغريب " لأن منبع المسرحية هو أدب اليونان ، فإذا دخلت الأدب العربى اليوم فعلى أنها شئ مستحدث " <sup>(٣)</sup> على النقيض من الرواية والقصة القصيرة اللتين تمتلكان جذوراً عريقة ممتدة فى التراث العربى ، فلم نشعر بتغريبها <sup>(٤)</sup>. وبذلك يمكن لهذا القالب الشعبى الذى يقترحه الحكيم أن يعبر عن الهوية

---

(١) أعاد الحكيم نشر المسرحيتين : مصير صرصار ، والصرصار ملكاً ، فى كتاب واحد بعنوان مصير عام ١٩٦٦.

(٢) مسرحية يا طالع الشجرة : ص ١٢ .

(٣) توفيق الحكيم : أدب الحياة ، ص ٨٤ وما بعدها .

(٤) انظر كتابنا التراث القصصى فى الأدب العربى ، المقدمة (م.س) .

الثقافية والخصوصية القومية لفن المسرح العربى تنظيراً وتطبيقاً ، إبداعاً وتطويراً . يمكن من خلاله أن يتحقق على المستوى المحلى " الأمل الذى قناه الجميع فى كل مكان ، وهو شعبية الثقافة العليا " على حد قوله<sup>(١)</sup>. ويطمح الحكيم إلى عالمية هذا القلب ، فيقول " ربما كان لنا أيضاً أن نزع أن هذا الشكل أو القالب لا يحل مشكلة المسرح للشعب فى بلادنا وحدها ، بل كذلك لكل شعب آخر فى العالم " <sup>(٢)</sup>. كما يحل مشكلة أخرى على غاية الأهمية فى دول العالم الثالث خاصة وهى مشكلة الافتقار إلى المسارح ( البنية المكانية لمشاهدة العرض المسرحى ) ، يقول الحكيم :

" لذلك رأيت - حلاً لهذه المشكلة - أن تكون هذه المسرحية (الصفقة) صالحة للتمثيل والإخراج فى أى مكان ؛ فهى ليست فى حاجة إلى مناظر ولا ملابس ولا خشبة مسرح . يكفى مجرد العرض فى ساحة صغيرة ، فى أية قرية أو مدينة ، وربما كان فى هذا أيضاً عود إلى النبع الصافى القديم (الفن الشعبى) الذى خرج منه المسرح وازدهر منذ أكثر من ألفى سنة " <sup>(٣)</sup>.

إن هذا القالب المسرحى الذى استلهمه الحكيم من الفن الشعبى يحقق له ثلاث غايات هى غرس النوع المسرحى فى الأنواع أو الأجناس الأدبية العربية الحديثة ، والارتقاء بالفكر المسرحى وقضاياها إلى مستوى الشعب ؛ على اختلاف طبقاته وفئاته الاجتماعية والثقافية (وهو ما يسميه بشعبية الثقافة العليا ، فلا يكون - المسرح أو الفكر المسرحى - وفقاً على النخبة ، وإنما يتجاوزها إلى جماهير الشعب بمثاقفة هى الأقرب إلى ثقافة الحياة وقضايا المجموع ) . وأخيراً يحل مشكلة العجز عن إنشاء المسارح ودور العرض فى الدول الفقيرة .

### مرحلة التأسيس اللغوى ( الحوار ) :

من المعروف أن توفيق الحكيم أول من استخدم اللغة العامية فى نص مسرحى مطبوع ، باعتبارها لغة الشعب على حد تعبيره<sup>(٤)</sup>، مستلهمًا بذلك لغة النصوص الشعبية ، اتساقًا

(١) قالبنا المسرحى : ص ١٦ .

(٢) انظر للحكيم : الطعام لكل فم ، ص ١٨٥ ، ومسرحية السلطان الحائر ، ص ١٧٥ .

(٣) توفيق الحكيم : مسرحية الصفقة ، ص ١٨٥ ، مكتبة نصر (١٩٥٦) .

(٤) نفسه : ص ٩١ .

مع اتجاهه " الواقعى " ، ورؤيته لرسالة المسرح ( حيث الأدب للشعب ) ، لكنه ما لبث أن أدرك أن الحوار باللهجة الشعبية محددة الانتشار خارج الثقافة المحلية " أن هذه اللغة ليست مفهومة فى كل زمن ولا فى كل قطر " (١) ، على حد قوله .

وفى ضوء ممارسته لكتابة الحوار بالفصحى يصطدم بصلاحياتها للقراءة فقط لا للتمثيل " فهى عند التمثيل تستلزم الترجمة إلى اللغة التى يمكن أن ينطقها الأشخاص " (٢) . يعنى الترجمة إلى اللغة الشعبية أو الدارجة ، لغة الحياة اليومية . عندئذ آمن الحكيم أن اللغة المنطوقة أو الشعبية ليست لغة لقيطة بل هى لغة شرعية تنتمى إلى اللغة الفصحى (المكتوبة) ، وأنه يمكن استنبات لغة **ثالثة** :

" لا تحجافى قواعد الفصحى وهى فى نفس الوقت مما يمكن أن ينطقه الأشخاص ، ولا ينافى طبائعهم ولا جو حياتهم ، لغة سليمة يفهمها كل جيل وكل قطر وكل إقليم ، ويمكن أن تجرى على الألسنة فى محيطها ، تلك هى لغة هذه المسرحية ( الصفقة ) . قد تبدو لأول وهلة لقارئها أنها مكتوبة بالعامية ، ولكنه إذا أعاد قراءتها ، طبقاً لقواعد الفصحى فإنه يجدها منطبقة على قدر الإمكان . بل أن القارئ يستطيع أن يقرأها قارئتين : قراءة بحسب نطقه الرفى . فيقلب " القاف " إلى " جيم " أو إلى " همزة " تبعاً للهجة إقليمه فيجد الكلام طبيعياً مما يمكن أن يصدر عن ريفه ، ثم قراءة أخرى بحسب النطق العربى الصحيح " (٣) .

وهذا يعنى أن الحكيم ظل على إيمانه بأن اللغة الشعبية هى اللغة المسرحية المنطوقة ، أو لغة التمثيل الطبيعى أو الواقعى ، فحافظ عليها ، وظل متناصاً معها ومتعالقاً بها فى حوار المسرحى . غير أن هذا التناص أو التعالق ليس على نحو سلبى بل على نحو إيجابى خلاق تجلّى فى تطوير اللغة الشعبية والتصعيد بها نحو اللغة الأم . شأنه فى ذلك شأن مفهوم التناص الإيجابى الذى رأيناه من قبل فى نصوصه ، تناصاً فكرياً واتجاهاً فنياً وشكلاً أدبياً .

(١) الصفقة : ص ١٥٦ .

(٢) نفسه : ١٥٦ .

(٣) نفسه : ص ١٥٧ .

وتتجلى وظيفة التناص فى لغة الحكيم الحوارية فى دمج اللغة الشعبية فى لغة النخبة التى ينتمى إليها الحكيم نفسه لتحقيق غايتين أو نتيجتين :

" أولاهما السير نحو لغة مسرحية موحدة فى أدبنا تقترب من اللغة المسرحية الموحدة فى الآداب الأوربية . وثانيتهما - وهى الأهم - التقريب بين طبقات الشعب الواحدة وبين شعوب اللغة العربية بتوحيد أداة التفاهم على قدر الإمكان ، دون المساس بضرورات الفن ... " (١) .

وهى لغة من شأنها أن تسمح بعرض الواقع بكل ما له من نكهة شعبية وفنية فى آن ، لذلك يشترط الحكيم فى الكتابة باللغة العامية أن تكون مقيدة بسياقها التعبيرى ( الفنى وليس السوسولوجى فحسب ) حيث تكون عندئذ ضرباً من الإلتقان اللغوى أو الكمال والقدرة والتمكن ، كما يقول :

" عندما يلجأ الأديب الفنان إلى استخدام لغة عامية فهو ينبغى له ألا يلجأ إليها لعجز أو لهروب ، بل لتفوق واقتدار ورغبة فنية فى إحكام التعبير . هكذا فعل روبرت لويس استفينستون وهو من أبلغ الشعراء الإنكليز كتابة بالفصحى ، عندما جعل البحارة يتحاورون بلغتهم العامية المستبهمة ، وهكذا فعل شارلز ديكنز ، وهكذا فعل ... إلخ " (٢) .

وبهذا المنطق ، وبهذه الوظيفة كان الحكيم أول من استخدم اللغة العامية ( الشفافية المنطوقة ) فى نصوصه المسرحية والروائية والقصصية ( ومنها على سبيل المثال : قصة العوالم ) : تحقيقاً لغايات سوسيو فنية فى أدب الخاصة أو الصفوة لأول مرة فى أدبنا الحديث ، مثلما كانت أدواته للتجريب فى مسرحية الصفقة ، على نحو ما أشرنا من قبل .

ولا يعنى ذلك أن الحكيم من دعاة العامية فى الأدب ، وإنما نزعتة التجريبية فى البحث عن لغة مشتركة لجمهور المسرح على اختلاف طبقاته وتباين مستوياته الثقافية والعمرية هى التى جعلته يلجأ إليها بعد تصعيدها إلى مستوى الفصحى ، دون أن يخل ذلك بواقعية الحوار والصدق الفنى كما قال ذلك مراراً . وتكمن محاولته التجريبية فى البحث عن لغة مشتركة ، فى :

(١) الصفقة : ص ١٥٧ .

(٢) توفيق الحكيم : أدب الحياة ، ص ٤١ .

" الاقتراب على قدر الإمكان من اللغة العامية التى تتطلبها حياة بعض الشخصيات العادية ، إنها تجربة النزول باللغة العربية إلى أدنى مستوى لتلاصق العامية دون أن تكون هى العامية ، والارتفاع بالعامية دون أن تكون هى الفصحى . إنها اللغة الثالثة التى يمكن أن يتلاقى عندها الشعب كله ، إن لم يكن اليوم ففى الغد " (١) .

وعلى هذا النحو يكون التناص اللغوى - على مستوى الحوار - عند الحكيم - ضرباً آخر من التناص الإيجابى ، ينطلق فى أساسه من اللهجة الشعبية أو الشفاهية ليرتقى بها إلى لغة الصفوة الكتابية .

### مرحلة تأسيس المسرح للشعب أو شعبية المسرح :

ويعنى بها الحكيم هذا المسرح الذى " يكتب عن الشعب ، ويمتص الشعب ، وينفع الشعب " (٢) . إنه مسرح للجميع ، كما يقول الحكيم الذى رأى أن خطابنا المسرحى - على المستوى السوسيوثقافى - حتى الخمسينيات كان وما زال خطاباً نخبوياً موجهاً للصفوة ، متجاهلاً سائر فئات المجتمع وطبقاته ، على نحو يتناقض ونشأة المسرح وطبيعته الشعبية الأصل ووظيفته الجمعية منذ كان يقوم على النبع الصافى القديم يعنى الإبداعى الجمعى أو الشعبى ، حين كانت ثقافة النخبة العالمة يومئذ على وفاق مع ثقافة العامة أو الشعب ، إبان فترات العافية السياسية والفكرية والإبداعية والثقافية للشعوب .

ومن ثم فقد آن الأوان فى نظره مع منتصف الخمسينيات إلى العودة لجماهير هذا النبع ، ووسيلته إلى ذلك التناص مع هذا النبع الشعبى أو الفولكلور ، وهذه هى أول مرة يستخدم فيها الحكيم هذا المصطلح ( فولكلور ) سنة ١٩٥٦ . وغايته عندئذ إيجاد مسرح للشعب ، كل الشعب . الأمر الذى ظل يشاغب أفقه الإبداعى فترة طويلة ، حتى تجلت هذه المغامرة النصية ، أوضح ما تكون فى مسرحية الصفقة - بوعى معرفى وفنى ونقدى . يقول الحكيم :

(١) توفيق الحكيم : مسرحية الطعام لكل فم ، ص ١٨٥ ، مكتبة مصر (١٩٦٣) .

(٢) توفيق الحكيم : أدب الحياة ، ص ١٩ .



" ... ذلك أن جمهور المسرح بدأ منذ وقت ليس بالقريب يفقد وحدته التي كانت متماسكة على نحو ما فى عهد النبع القديم ( الشعبى ) فالمسرحية اليوم قد تخاطب فئة من الجمهور ، ولا تخاطب الفئة الأخرى ؛ لذلك كان من أهم المحاور التي تغرى بالإقدام : العمل على إيجاد نوع من المسرحية ، يمكن أن يشاهدها الجمهور كله على اختلاف درجاته الثقافية ، فلا يجد فيها الأذى تعالياً ؛ فإذا استطاع هذا النوع أيضاً أن يجمع بين المسرحية المكتملة لعناصرها ... وبين الفن الشعبى (الفولكلور) على نحو يسوغه جو المسرحية وطبيعة بيئتها ، ويبدو كأنه جزء داخل فى بناء المسرحية ذاتها - إذا نجحت هذه المحاولة ، فإننا نكون قد عرفنا الطريق إلى الحل المنشود " (١).

وعندئذ يكون المسرح للجميع . وبذلك يسترد المسرح طبيعته الشعبية ويعود إليها عودة الفرع إلى الأصل والنهر إلى النبع كما يقول .

فضلاً عن ذلك كله ، فإن الكفاءة القرائية العالية فى مجال الأدب الشعبى المصرى والعربى للحكيم لم تساهم فحسب فى تحقيق مشروعه المسرحى التأسيسى والتجريبى ، بل ساهمت أيضاً فى تكوين مرجعية فولكلورية عميقة وفاحصة ، فى ضوء حضور متواصل للنص الشعبى فى الذاكرة النصية للحكيم وفى نتاجه المسرحى ، على نحو لم يتحقق مثلها لكاتب مسرحى من قبل . هذه المرجعية المتفردة جعلته - باعتباره مبدعاً ومفكراً - يمتلك رؤية ريادية تنويرية أفضت به إلى ما يأتى :

(١) أن يفتن منذ العشرينيات إلى خطأ الرؤية الثقافية المهيمنة آنذاك ( رؤية النخبة أو الثقافة العالة ) فى نظرتها الدونية إلى الأدب الشعبى ، وتجاهل إمكاناته الجمالية والفكرية فضلاً عن وظائفه الجمعية الحيوية . الأمر الذى رفضه الحكيم رفضاً باتاً فى ريادة تاريخية ومعرفية ونقدية ، على نحو ما أشرنا إليه تفصيلاً من قبل ؛ إذ يقول :

" فنحن قد اعتدنا عند النظر فى أدبنا الشعبى أن نتجه توك نحو اللغة وإلى اللفظ ، وهذا يصرفنا أحياناً عن تأمل الأسلوب الداخلى للتعبير الفنى ذاته ... ولماذا هو واقعى أو غير واقعى ؟ وما سر اللامعقولية واللامنطقية فيه ؟ وما

هدف الفنان الشعبى من هذا اللون من هذا التعبير ؟ وكيف استطاع أن يرتاد بهذه الطريقة مناطق عجيبة .. " (١) .

وهذا يعنى - من ناحية أخرى - أن نصوص الأدب الشعبى لم تنته " صلاحيتها " التاريخية والإبداعية ، الجمالية والفكرية ، بعد ، على عراققتها فى المكان وامتدادها فى الزمان .

(٢) أفضت به أيضاً إلى تطوير وظيفة الأدب ؛ فرفض النظر إليه باعتباره " أدب السلطة " و " الأرستقراطية الثقافية " التى تدور فى فلكها يوم كان الحاكم فرداً ... " أما وقد أصبح الحاكم هو الشعب نفسه ، فكل هذا يجب أن يتغير ، ويصبح الأدب للشعب " باعتباره " هو الأدب الذى يكتب عن الشعب ويفهمه الشعب ، ويتمتع به ، وينتفع به " على حد قوله (٢) .

(٣) أفضت به أيضاً هذه القراءة الفولكلورية إلى امتلاك روية نقدية عميقة وقادرة على اكتشاف ما تنطوى عليه فنوننا الشعبية من قيم جمالية ، ومن اتجاهات أو مذاهب فنية ، ومن رؤية فكرية عميقة ( جمعية ) فيقول :

" عندما نتأملها نجد لها مشحونة بطاقات صالحة للاستلham والاستغلال الفنى " (٣) .

ومن ثم فقد آن الأوان لأن " ننفخ عنها الغبار " وخاصة " أننا لم نلق لها بال حتى الآن " ولم نتعدها بالرعاية والدرس والتحليل ، تمهيداً لاكتشاف أو إعادة اكتشاف ما تنطوى عليه من قيم ومن رؤية ومن اتجاهات ومذاهب لا ينقصها كما يقول إلا الكشف عنها والتنظير النقدى لها ، إذا شئنا استلhamها على نحو صحيح يثريها ويثري إبداعنا المعاصر ، بدلاً من تجاهلها والاستعلاء عليها ؛ بما هى " كنز دفين " حان وقت اكتشافه وفض مغاليقه وفك طلاسمه على حد أقواله جميعاً .

(٤) أفضت به أيضاً إلى أن استلham التراث الشعبى فى مرحلتى التأسيس والتجريب ينبغى ألا يتوقف عند الاستلham الاستاتيكي الجامد أو المحاكاة المتماهية - تركيباً ودلالة -

(١) يا طالع الشجرة : ص ١٢ .

(٢) أدب الحياة : ص ١٩ .

(٣) يا طالع الشجرة : ص ١٧ .

على نحو ما فعل المسرحيون العرب من قبله ، بل حفزته إلى حتمية المغايرة وضرورة المجاوزة حتى يكون الاستلهام ديناميكياً ، فاعلاً ومفعولاً فى تناصد مع الفن الشعبى . ولعل هذا معنى قوله فى بواكير حياته الإبداعية :

" غير أنى اعتقد شخصياً وأحب أن أرى وأستخرج - كما حدث عندى فى مسرحية شهرزاد (١٩٣٤) - من فننا الشعبى أساساً فكرياً " (١).

غير أن هذا الأساس الفكرى مرهون بدوره بشرط المعاصرة ، فاستلهام التراث الشعبى عنده ليس مطلوباً لذاته كما يقول وإنما لمعالجة " شئون الشعب بالطريقة التى نريدها اليوم " (٢) وهذا هو معنى الاستلهام الإيجابى عنده ، إذ يقول :

" ... لم يعد الأدب الجديد مجرد تسجيل للقديم ، بل هو إعطاء روح جديدة للزمن الغابر ، وبعث جسد قديم برأس حديث " (٣).

(٥) جعلته أيضاً يفتن - فى ضوء شرط المعاصرة - إلى أن التجديد ينبغى أن يكون مرهوناً برؤية مستقبلية ، متجاوزة للنص الشعبى الموروث ، فالتجديد الذى يتحدث عنه الحكيم - طيلة حياته - لا يعنى الانفصال أو الانفصام عن الجذور ، كما لا يعنى الانقطاع أو القطيعة مع المستقبل بل ينبغى المزج " التعادلى " بينهما :

" ... إنه تجديد الأوراق والزهور فى شجرة غائرة الجذور ... اغمس رشتك فى صندوق الألوان ، وامزج ما تريد بما تريد ، على أن تخرج لنا بشيء ، لكن ثق أن هذا الشيء لن يخرج سليماً إلا إذا كنت على دراية بماضيه ، ولك أنف يشم المستقبل " (٤).

بحيث يصبح من واجب الكاتب أن " يفتح عيناً على الماضى الغائر ، وأن يفتح العين الأخرى على المستقبل " (٥). وبهذا يتحقق مفهوم التناص لديه على نحو إيجابى متجاوز لا على نحو استاتيكى متجاوز .

(١) يا طالع الشجرة : ص ١٤ .

(٢) أدب الحياة : ص ١٩ .

(٣) أدب الحياة : ص ٢٧ .

(٤) مسرحية الطعام لكل فم : ص ١٨٦ .

(٥) نفسه : ص ١٨٦ .

(٦) جعلته هذه المرجعية الفولكلورية يفتن أيضاً إلى ضرورة الانفتاح على الآداب الشعبية الأخرى والأساطير العالمية ، وأن يتعالق معها ويستلهمها - برؤية عربية شرقية مؤمنة - فى كثير من آثاره المسرحية ؛ مثل مسرحية براكسا أو مشكلة الحكم (١٩٣٩) ومسرحية بجمالليون (١٩٤٢) ومسرحية الملك أوديب (١٩٤٩) ... إلخ . كما جعلته يفتن أيضاً إلى استلهم القصص الشعبى الدينى اليهودى والمسيحى والرسلامى ، ومروياته التفصيلية المتعددة فى كتب التفسير - بما فى ذلك الإسرائيليات وأساطير الشعوب وقصص الأنبياء والأولياء وغيرها ، على نحو ما فعل فى مسرحية أهل الكهف ( ١٩٣٣ ) ، ومسرحية نشيد الإنشاد (١٩٤٠) ، ومسرحية سليمان الحكيم (١٩٤٣) ... إلخ .

(٧) أفضت به هذه المرجعية أيضاً إلى أن الانفتاح على الفنون العالمية وتجلياتها الإبداعية ينبغى ألا يتم بمعزل عن الثقافة المنتجة لها ، والروح الفلسفية والمنابع أو الجذور الفكرية الكامنة وراءها ، وضرورة فهمها والتفاعل معها ، باعتبارها ثقافة الآخر المهيمنة ، شريطة حضور " الأنا " القومية والوعى بها - تمايزاً واختلافاً - فهذا هو شرط التفاعل الإيجابى مع النص الحضارى والثقافى للآخر ، مثلما هو شرط المنجز الإبداعى التأسيسى والمغاير ، يقول داعياً إلى هذا الانفتاح على الآخر المعاصر فيما يمكن تسميته بـ " التناص الثقافى " أو " المشافقة " بين الأنا والآخر وبين الماضى والحاضر ، فنكون عندئذ (نحن) لا ( الآخر ) :

" فالثقافة الشرقية إذاً لا يمكن أن تكون اليوم بمعزل عن ثقافة أوروبا ، ولا أن تغمض عينيها عن هذه الثروة الهائلة ، فلنمد أيدينا إذا غير متقيدين بسلاسل التقاليد أو العادات أو العقائد ؛ فنأخذ كل شئ ، ونهضم كل شئ ، ثم نخرج على روحنا القديم ... فنستخلص الأفكار الثابتة المدفونة ( فى تراثنا ) ... فإذا تم لنا ذلك ، فإننا نستطيع أن نطبع كل تلك الثروة وكل تلك المادة بطبيعتنا الخاصة " (١) .

على نحو ما فعلت كل الحضارات والثقافات فى العالم ، قديمة وحديثة بما فى ذلك الحضارة العربية الإسلامية إبان مدها الحضارى فى عصورها الزاهية :

(١) تحت شمس الفكر : ص ٨٩ . وانظر أيضاً فن الأدب : ص ١١٧ .

" فما هي إلا جماع أفكار وثقافات وحضارات أمم مختلفة ، صبها الإسلام  
فى قالبه ، وجعل منها لوناً خاصاً " (١).

وقد تردد هذا الرأى مراراً من قبل فى معظم مؤلفات الحكيم ، وخاصة فى الأدب (١٩٥٢)  
فى مقال بعنوان " تراث الحضارات " فالمعرفة " ملك مشاع ، ومتاع يتداوله الجميع " ، ومن ثم  
ضرورة الانفتاح المعرفى والحضارى ( المشروط على الآخر من دون تمييز ، وشعاره " نأخذ ما  
فى رؤوسهم وندفع ما فى نفوسهم " أو كما يقول أيضاً :

" لن تقوم للشرق نهضة حقيقية إلا إذا أحاط بكل معارف الأرض إحاطة  
شاملة ، ثم صهرها فى قلبه ، وأخرجها مرة أخرى للناس معدّناً نفيساً يشع  
أضواء جديدة " (٢).

وكذلك ينبغى أن يكون الانفتاح الثقافى على ثقافات الشعوب دون تفرقة :

" كل الثقافات الموجودة يجب أن نلم بها إلماماً ، وأن نتخير محاسنها ،  
فنحن لسنا مثل الغربيين مقيدون بوحدة منها ( يعنى الثقافة اللاتينية ) دون  
الأخرى . كلها لنا نغترف منها ونضيف إليها من ذات أنفسنا ، ونضفى عليها  
من مشاعرنا ، نطبعها بطابع مزاجنا وإحساسنا ... فالثقافة ليست بضاعة  
مادية لأمة من الأمم ، وإنما ثقافة كل أمة ملك للبشرية كلها " (٣) .

(٨) أفضت به أيضاً إلى الانفتاح إلى المسرح العالمى منذ عصر الإغريق حتى العصر  
الحديث ، وبالتحديد إلى الوقوف على جذوره وأشكاله واستلهاماته الشعبية ، ثم محاكاته فى  
إنجازاته الإبداعية ومسايرته فنياً فى إبداعنا المسرحى ، ولكن على نحو مفارق لمن قبله من  
كتاب المسرح العرب ، وغايته عندئذ تجاوز مرحلة التقليد والمحاكاة والترجمة والاقتباس  
والتعريب التى كانت سائدة قبل الحكيم ، إلى مرحلة التأليف والإبداع الخالص لأول مرة ،  
ولهذا لا غرو أن تعد مسرحية " أهل الكهف " بمثابة شهادة ميلاد للمسرح العربى فى أدبنا  
الحديث . والحكيم لا ينكر ذلك بل يعترف بأنه لم يشرع فى التأليف الخالص إلا بعد سفره إلى

(١) المرجع السابق : ص ٨٩ .

(٢) فن الأدب : ص ١١٥ .

(٣) نفسه : ص ١١٥ .

باريس حيث تحقق له ذلك " الارتشاف من منابع الثقافة الحقيقية والتكوين الحقيقى لبنيتى الفكرية " والمسرح العالمى (١) .

(٩) أفضت به أيضاً إلى أن محاكاته للمسرح العالمى ، سواء فى نصوصه الكلاسيكية أو فى نصوصه التجريبية والطليلية لا تعنى التماهى فيه ، ولا تقتضى الانفلاق دونه ، وإنما تقتضى - ضمن رؤيته التعادلية - الانفتاح عليه وعلى تجاربه الفنية (٢) . وذلك بالقدر الذى يمكن التعلم منها ولكن من غير السقوط فى دائرة الإلتباع ، أو التبعية الإبداعية ، ومن دون التضحية بالخصوصية الثقافية أو الفكرية على حد تعبيره (٣) . وأيضاً بالقدر الذى يجعلنا لا نفقد شرط المعاصرة الإبداعية ، ولا شرط الانفتاح الحضارى والتفاعل الثقافى مع الآخر الغربى شريطة وعى الأنا القومية بحدودها الإبداعية والحضارية ، حتى تنهيا لها تربة ثقافية صالحة يمكن أن تنغرس فيها جذور الظاهرة المسرحية ، ولذلك نراه يقول إن اقتراحه بشأن " القالب المسرحى " الذى اهتدى إليه لا يعنى - حتى الآن - الاكتفاء به ، أو الانكفاء عليه ، دون التواصل أو التفاعل مع القالب المسرحى العالمى ، ومن ثم لا غرو أن يقول فى نهاية حديثه عن قالبه المسرحى المقترح :

" على أنى بعد ذلك أريد أن أنبه بوضوح إلى أنه ليس معنى المناداة بهذا القالب الانصراف عن القالب العالمى المعروف ، وما يسير فيه من اتجاهات وتطورات . بل على التقيض ، فإنى إلى جانب ذلك أنادى أيضاً بالاحتفاظ فى نفس الوقت بالخط الذى سرنا فيه حتى الآن من معاصرة الفن المسرحى العالمى حتى لا تنفصل عن الركب الحضارى العام فى جميع خطواته وتطورات ... " (٤) .

(١٠) أفضت به أيضاً إلى أن مجازاة المسرح العالمى ومحاكاته - على المستوى الفكرى - تكمن فى الوعى بمعارضته على أساس ثقافى أو " الاستقلال الفكرى عنه " على حد قوله ؛ بما

(١) سجن العمر : ١٧٠ .

(٢) لمزيد من التفصيل : انظر للحكيم : قالبنا المسرحى : ص ١٣ ، ص ٢١ . وانظر له أيضاً بين الفكر والفن : ص ١١٠ ، مكتبة الآداب ، ١٩٧٦ .

(٣) انظر ، فن الأدب : ص ٣١٥ - ٣١٩ .

(٤) قالبنا المسرحى : ص ٢١ .

يتضمن ذلك من رؤى فكرية محلية ، وبما يعالج من قضايا تنويرية أو إصلاحية ، وبما يؤدي من وظائف حيوية ، جمالية وفكرية فى حياتنا ، على شرط أن تكون نابعة من " ثقافتنا الشرقية " أو المصرية العربية الإسلامية ، ومؤطرة بإطارها الفكرى والثقافى والحضارى ، من غير شعور لدينا بالدونية الحضارية أو الفكرية أو الإبداعية إزاء المركزية الغربية<sup>(١)</sup> ، وعرفنا - فى الوقت نفسه - كيف نستلهمها استلهاماً إيجابياً ، على نحو ما سبقنا إليه كبار كتاب المسرح العالمى ، قديماً وحديثاً ، من دون أن تفقد نصوصهم " روحها القومية " وهذا هو حلم الحكيم فى تأسيس مسرح " عربى الطعم والرائحة " تأكيداً لأصالته وتأصيله :

" كل ما نصبر إليه هو أن يكون مبلغ أصالتنا احتواء أعمالنا على قدر من الطعم الخاص والرائحة التى تنم علينا " (٢).

(١١) أفضت به أيضاً تلك المرجعية الفولكلورية والثقافية إلى ضرورة الانفتاح على الثقافة الرسمية التراثية ، وتجلياتها الإبداعية ، عند أساطينها من رواد السرد القصصى فى التراث العربى كابن المقفع والجاحظ والأصفهاني والهمذاني والحريري وأبى العلاء المعرى وغيرهم كثير ممن تنطوى نصوصهم على عناصر سردية هائلة ، وصالحة للاستلهام المعاصر - جمالياً وفكرياً - فيقول :

" ... فإذا أضفنا إلى هذا المنبع الشعبى منبعاً آخر من تراثنا الأدبى فى روايات الأغاني للأصفهاني ، وفيما ورد عن الجاحظ والحريري وديع الزمان وغيرهم من شخصيات ومواقف وحوار . وقد سبق أن نبهت إلى قيمة ذلك كله منذ نحو ثلث قرن : فإننا يمكن أن نخرج برأى فى أمر الشكل أو القالب الذى نحاول الكشف عنه " (٣) .

وهو ما يعنى أخيراً أن الحكيم - على الرغم من رؤيته المتجهمة والمبكرة للأدب الرسمى واتهامه له بالعجز والقصور فى الإبداع القصصى - لم يعد فى قطيعة كاملة مع هذا الأدب ،

(١) انظر مقالاً للحكيم بعنوان : عقدنا النفسية فى كتاب أدب الحياة ، ص ٨٠ وما بعدها .

(٢) قالبن المسرحى : ص ١٢ .

(٣) قالبن المسرحى : ص ١٤ .

بل عرف فيه - بوعيه المعرفى والنقدى - مواضع القوة والاستلهاً ، ومن ثم عمد إلى التخفيف من غلواء هذه النظرة التى أفضت - بدورها - إلى دعوته بضرورة التكامل بين الأدبين الشعبى والرسمى ، وحثية التصالح بينهما على نحو ما ذكرنا من قبل ؛ باعتبارهما - الآن - وجهين لعملة واحدة هى أدبنا القومى على حد قوله .

وعندئذ تتجلى خصوصيتنا الثقافية وتتكامل ذاتنا القومية وتتحقق هويتنا الإبداعية ، ويصبح بمقدورنا أن نتعامل مع الآخر ، الثقافى والإبداعى والحضارى ، من دون شعور بالدونية أو خوف من الانفتاح عليها ، وعلى تراثه وميراثه ( العالمى ) ومن دون أن نتماهى فيه تهاى المغلوب بالغالب ، واثقين فى الوقت نفسه بذواتنا وبإبداعاتنا ، وبما تمتلكه الأنا الإبداعية العربى ( الذاتية والجمعية ، الفردية والقومية ) من تراث وميراث عريقين .

(١٢) أفضت به أيضاً إلى تحديد كيفية الانفتاح على الآخر - المعاصر وشروط مثقافته ؛ فيقول :

" ووسائلنا فى هذا كله هضم كل ثقافة موجودة قديمة أو حديثة ، وإخراج ثقافة جديدة تنم عن روحنا وشخصيتنا الشرقية " (١).

فهذا هو سبيلنا إلى التناص مع الآخر على نوع إيجابى ، مثلما فعل - ويفعل - كبار المسرحى العالميين الذين لا يترددون فى استلهاً إبداعات الشعوب على حد قوله ، بعد فهمها وهضمها واختزانها فى ذاكرتهم النصية ، تمهيداً لإعادة إنتاجها من جديد اليوم . وهو ما يتحتم علينا أيضاً عمله من دون خوف من التماهى فى الآخر ؛ لسبب جوهرى فى رأيه هو أن :

" شخصيتنا المصرية والشرقية ( الإسلامية ) والعربية أقوى مما نظن . ولا داعى للخوف عليها على الإطلاق ، كل ما ينبغى فعله هو أن ندرس تراثنا الرسمى والشعبى ، مجتمعنا الماضى ، كما ندرس الآداب الأخرى ، قديمها وحديثها ونخزن كل هذه الحصيلة فى مخازن وعينا الظاهر والباطن . وبعد ذلك فلنكتب ولنخلق بكل حرية ، فى أى موضوع شئنا ومن أى شخصية أردنا ... ولنثق بأن ما سنخرج سيكون مختوماً على الرغم منا بطابع شخصيتنا " (٢).

(١) تحت شمس الفكر : ص ٩٢ .

(٢) قالبنا المسرحى : ص ١٦٥ .



وبذلك الصدق الفنى مع الذات الإبداعية ستحمل نصوصنا بصمتها الذاتية - على الرغم منا - وهويتها القومية وخصوصيتها الثقافية ، شريطة أن يتحقق فى هذه النصوص أمران أو شرطان ، أحدهما : عدم تقديس الماضى بحجة الحفاظ على الهوية ، الأمر الذى ينجم عنه تضخيم الأنا الدفاعية . والآخر : عدم الشعور بالدونية إزاء الآخر ، الأمر الذى ينجم عنه تبخيس الذات الإبداعية والثقافية على السواء ( أمام الشعور بتفوق الآخر الغالب أو المهيمن ) ، ومن ثم الخوف - فى الحالىن - مما يسمى بالغزو الثقافى أو الفكرى والإبداعى . والحكيم يرفض الشرطين معاً منذ وقت مبكر ، باعتباره ابناً شرعياً لحضارة عريقة ، فيقول (فى مقال له نشر فى جريدة أخبار اليوم المصرية فى ١٩٤٩/٥/٢٨ مخاطباً به شباب الأدباء) ما نصه :

" لا تسرف فى تقديس ماضيك ، ولا تجعل مركب النقص ... يستولى عليك ، فتخاف على حضارتك المغلوبة أن تغزوها الحضارات الغالبة ... اغترف بشجاعة من كل منبع ، وخذ من كل ميراث ... لتثرى نفسك ويتسع أفقك ... إن روحنا ( القومية والثقافية ) أقوى وأعمق من أن تطفئ عليها حضارة من الحضارات ... " (١) .

حتى لو لجأنا إلى ارتداء الزى الغربى فى قوالبنا الأدبية الحديثة ( المسرح ، القصة القصيرة ، الرواية ... إلخ ) لأن " القوالب " إنتاج جمعى مشاع ( عالمى ) والعبرة بالمضمون ، والروح والفكر على حد تعبيره : فيقول :

" لذلك أحب أن أقول لأدباء العربية الحديثة : لا تخشوا مطلقاً من لباس أفكاركم الأثواب الأوروبية ، على شرط أن يكون طابع هذه الأفكار وروحها شرقياً محضاً ، وأن يحس القارئ الأوروبى إزاء أعمالكم (٢) أنه أمام نفس غير نفسه ، وشخصية غير شخصيته ، وإن كان الرداء ليس غربياً عليه ، لأن الرداء ليس ملكاً لأحد ، إنه ملك الحضارة ، والحضارة وليدة الحضارات التى سبقتها " (٣) .

---

(١) يقطعة الفكر : ص ١٠٤ - ١٠٥ ( بتصرف ) .

(٢) لاحظ هنا الحضور المعيارى للمركزية الأوروبية التى يدعو الحكيم للتناص الحضارى والإبداعى بها .

(٣) تحت شمس الفكر ، ص ٩٥ .



## ثالثاً

### أنماط من التناص ( الفولكلورى )

كثيرة جداً هى نصوص الحكيم الإبداعية ، الروائية والدرامية التى " تتناص " مع النصوص الأدبية الشعبية ، تتفاعل معها وتتعلق بها ، جزئياً أو كلياً ، متماثلة أو متعارضة معها ، ضمن أنماط أو علاقات التعددية النصية أو المتعاليات النصية ( علي خلاف فى الترجمة العربية للمصطلح الفرنسى Transtextualite ) التى يعرفها جيرار جينيت فى كتابه "أطراس" الصادر فى باريس عام ١٩٨٢ بأنها " كل ما يجعل النص فى علاقة ظاهرة أو ضمنية مع نصوص أخرى " (١) .

وسوف نكتفى فى هذه الدراسة ( العينة المختارة ) بانتخاب أربعة نصوص مسرحية للحكيم :

الأول : مسرحية نهر الجنون (١٩٣٨) نموذجاً للتماهى النصى ، القائم على استعارة حكاية شعبية استعارة كاملة ، على المستويين التركيبى والدلالى .

الثانى : مسرحية مجلس العدل (١٩٧٠) نموذجاً للتوالد النصى القائم على استعارة حكاية شعبية استعارة شبه كاملة ، من حيث البنية النصية .

---

(١) انظر : ترجمتين منشورتين للفصل الأول من هذا الكتاب : الأولى ترجمة محمد خير البقاعى بعنوان أضواء على النص المترجم ، فى مجلة علامات ، ص ١٣٤ - ١٥٨ ، ج ٢٤ ، ٦٠ . يونيو ١٩٩٧ والأخرى ترجمة المختار الحسينى بعنوان من التناص إلى الأطراس فى مجلة علامات أيضاً ص ١٧٥ - ١٩٢ ، ج ٢٥ ، ٧٠ . سبتمبر ١٩٩٧ م .

الثالث : مسرحية السلطان الحائر (١٩٦٠) نموذجًا للتناص المضمر أو الضمني القائم على استعارة بعض العناصر السردية الفولكلورية المضمرة أو غير المعلنة ، ودمجها فى نسيج النص المسرحي ؛ على مستوى البنية الدلالية .

الرابع : مسرحية يا طالع الشجرة (١٩٦٢) نموذجًا لنوع مركب من التناص ، اقترحنا تسميته باسم " الميقتا تناص " ، حيث يكمن التناص هنا - فنيًا ودلاليًا - على ما بين النصين، المسرحي والشعبي ، من تعالق ما ورائي ، أى كامن فيما وراء النصوص ذاتها ، بعبارة أخرى لا يتعلق بنسيج النص وإنما يتعلق بالاتجاه الفني المتماثل وبالرؤية المشتركة بينهما للعالم .

وعلى الرغم أيضًا من كثرة النصوص المسرحية التى استلهم فيها الحكيم الإبداع الشعبى العربى - كما هو معروف بين نقاده ودارسيه - فإننا نكتفى فى هذا المقام بانتخاب هذه النصوص الأربعة لأكثر من سبب ، منها أن الذى يجمع بينها - على مستوى التعالق النصي- اكتشاف نصوصها الشعبية - لأول مرة - التى تناصت معها . ومنها - على مستوى التناص الذاتى - اتكاؤها جزئيًا أو كليًا على النص الشعبى ، المدون أو الشفاهى ، قننًا واستيعابًا وتحولًا . كما يجمع بينها - على مستوى التناص الخارجى - وحدة الدلالة ( سيادة القانون ، الحرية والعدل والسلام للشعوب ، والسلام الروحى مع الذات الفردية ) . فضلاً عن انفتاحها جميعًا على هذا المستوى من التناص ، أو ما يسمى بمستوى السياق والدلالة أيضًا - على حد قول التوليديين - على بنية مجتمعية مشتركة تعود إلى مرحلة الستينيات وخطابها السياسى والثقافى والمعرفى ، المصرى والعالمى آنذاك ( وما يماثلها إبان فترة الأربعينيات بمعطياتها السياسية والثقافية المتشبهة ) ، باعتبارها - هذه المراحل - تأطيرًا للبنية الزمنية التى أنتج خلالها الحكيم نصوصه المختارة هنا ، وعلى نحو يشى بأن هذه البنى النصية المسرحية المستلهمة - إبان الفترة الناصرية وما قبلها - من البنى التراثية ، إنما تقوم فى بعدها الأيديولوجى عند الحكيم على نحو يجعله منحازًا إلى الأدب الملتزم ، أدب الشعب وقضايا الشعب ( وهذه تعبيراته ومفرداته شخصيًا ، كما ألمعنا من قبل ) .

ومن هنا كان انجيازه فى الأصل إلى الأدب الشعبى الذى يرى فيه أدواته المسرحية أو الفنية الموازية لتحقيق الإبلاغ الشعبى ( وهو ما يعد نقبضًا لمسرحه ذهنى ) إثر نمو الوعى الفنى والنقدى الفولكلورى عنده ، مما يشكل عندئذ نقطة تحول فى مسرح الحكيم بالرغم من أن ذلك

كان حلمًا يراوده منذ أوائل الثلاثينيات عندما كتب رسالة إلي طه حسين (١٩٣٣) يعلن فيها إيمانه بأن " قيادة الرأي العام واجبة على الأديب " (١) . وإن لم يضع - الحكيم - هذا الحلم موضع التنفيذ إلا بعد أن عرف كيف يغوص في بحر التراث الشعبي بحثًا عن كنوزه الفنية والجمالية والفكرية ، الأمر الذي أتاح له أن يحقق رسالته المسرحية التي يصفها بأنها " رسالة قومية وشعبية وإصلاحية " (٢) .

لسنا في حاجة إلى الوقوف - على نحو تفصيلي - في هذه الدراسة ، بصورتها الراهنة أو الآتية عند مستوى التناسخ الداخلي ، بما هو محاولة لكشف علاقة هذه النصوص المسرحية المختارة مع نصوص مبدعين مسرحيين آخرين ، من جيل الستينيات ( لكشف عما بينهم من تناسخ سياسى فى خطاباتهم الإبداعية ) لأنه يخرج عن أهداف هذه الدراسة ، وإنما يكفى أن نشير إلى فترة الستينيات التي بلغ فيها الحكم الناصري ذروته - قد شهدت على المستويين المصري والعربي - أربعة ظواهر فنية كبرى :

**الأولى :** الإعلاء من شأن الخطاب الإبداعى الشعبى لأول مرة ، والاعتراف به - ثقافيًا وعمليًا وأكاديميًا - علي مستوى الدولة والثقافة الرسمية (٣) .... مما انتهى إلى تعديل تراتبية نصوصه ، فلم تعد - نسبيًا - نصوصًا مهمشة أو محتقرة من قبل الثقافة العامة ، كما كان الأمر من قبل ، وعلى نحو ما وصفها الحكيم فى بداية عهده بالإبداع المسرحى .

**الثانية :** إن فترة الستينيات قد شهدت إنتاجًا مسرحيًا تجريبيًا ، تأسيسيًا ، ملحوظًا ، منطلقًا من الأدب الشعبى خاصة والتراث العربى عامة - بأشكاله المتعددة - ولانفتاحًا للنظر . وإن توجه التجريب فى رأينا إلى النص أكثر مما توجه إلى العرض (٤) .

(١) تحت شمس الفكر ، ص ١٠٣ .

(٢) فن الأدب ، ص ٣١٢ .

(٣) مثل إنشاء مركز رعاية الفنون الشعبية ، فى الكويت (١٩٥٦) والقاهرة (١٩٥٧) وإنشاء كرسى للأدب الشعبى فى جامعة القاهرة لأول مرة (١٩٦٠) ثم توالى بعد ذلك الاعتراف الرسمى والأكاديمى بالتراث الشعبى فى معظم الأقطار والجامعات العربية .

(٤) انظر : الأعمال أو التجارب المسرحية لكتاب هذه المرحلة ( وما بعدها أيضًا ) نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : يوسف إدريس - نجيب سرور - فوزى قهقى - رشاد رشدى - محمود دياب - ألفريد فرج =

الثالثة : وهى مرتبطة بالظاهرة السابقة ، وتتجلى فى محاولة المسرحيين العرب تأصيل الظاهرة المسرحية ومحاولة غرسها فى بنية الثقافة العربية ، من خلال إعلان تمردهم على الشكل الغربى للمسرح ، ودعوتهم للبحث عن شكل عربى يكون سبيلهم إلى التأصيل ، وما كان سبيلهم إلى ذلك إلا الدعوة بالعودة إلى جذور الدراما الشعبية العربية ، واستلهاهم قوالبها المتعددة (١) ، ورفض القوالب المسرحية المستوردة التى وصفت يومئذ باللاشرعية (٢) ، منذ أن كتب يوسف إدريس فى سلسلة مقالاته الشهيرة " نحو مسرح عربى " التى نشرها عام ١٩٦٤ ، والتى تحولت بالفعل إلى أساس نظرى تاريخى ، فعل فعله فى التجريب المسرحى . عند معظم الفنانين الذين كانوا يدعون إلى تأصيل الظاهرة المسرحية من خلال استلهاهم القوالب الدرامية الشعبية . وقد شارك الحكيم تنظيرياً فى هذه الدعوة - بعد أن شارك إبداعياً من قبل - عندما أصدر كتابه " قالبنا المسرحى " سنة ١٩٦٧ ، مؤكداً فيه أصالة تراثنا المسرحى

---

= وغيرهم (من مصر) والطبيب الصديقى - عبد الكريم برشيد (المغرب) سعد الله ونوس (سوريا) قاسم محمد والعانى (العراق) عز الدين المدنى (تونس) عبد الرحمن كاكى (الجزائر) وجيه عساف (لبنان) خالد الطربنى (الأردن) عبد الرحمن المتاعى (قطر) وغيرهم كثير .

(١) بشأن هذه القوالب المسرحية الشعبية وأساليب استلهاها انظر على سبيل المثال :

على الراعى : المسرح فى الوطن العربى (م.س) .

عبد الكريم برشيد : المسرح الاحتفالى (م.س) .

كمال الدين حسين : التراث الشعبى فى المسرح المصرى ، (م.س) .

فاروق خورشيد : الموروث الشعبى والمسرح ، (م.س) .

سعيد الناجى : التجريب فى المسرح ، (م.س) .

إضافة إلى معظم المصادر المذكورة من قبل .

(٢) المقصود بقولهم إن ميلاد المسرح العربى ميلاد غير شرعى أنه ولد فى رحم المسرح الفرنسى ، فأصبح

غير عربى الهوية والانتماء ، أو حفيداً فرنسياً على حد تعبير يوسف إدريس ، انظر : نحو مسرح عربى ،

ص ٧ ، الوطن العربى ، بيروت (١٩٧٤) .

الشعبى المتمثل فى مظاهر الفرجة الشعبية التى يؤديها الحكواتية والمداحون والمقلدون فى المقاهى والساحات الشعبية ... تلك الفنون الشعبية التى كان الناس يجدون فيها أخصب المتعة (١).

أما الظاهرة الرابعة والأخيرة ، فهى أن الخطاب المسرحى لم يستطع أن ينفلت من ضغط الخطاب السياسى الحاد الذى كان له حضوره الطاغى فى التجريب المسرحى لتلك الفترة - فى الستينيات - فكان أن توسل بالأقنعة التراثية عامة ، والفولكلورية خاصة ... وذلك حتى يتمكن من تمرير هذا الخطاب السياسى ، مما شكل عاملاً مساعداً وإضافياً لضرورة حضور التراث الشعبى واستدعائه فى الإبداع المسرحى آنذاك .

### النمط الأول : مسرحية نهر الجنون ونمط التماهى النصى :

نشرت هذه المسرحية ذات الفصل الواحد لأول مرة (٣)، فى مجلة " مجلتى " فى ١٥/١/١٩٣٥ التى كانت تصدر فى القاهرة آنذاك (٤). وهذا يعنى أنها نشرت فى عهد

---

(١) انظر تفصيلاً للحكيم : قالبنا المسرحى ، المقدمة ص ١١ - ٢١ .

وتجدر الإشارة إلى أن الحكيم سبق له أن استخدم مظاهر الفرجة الشعبية فى بعض أعماله المبكرة مثل مسرحية الزمار (١٩٢٥) التى استخدم فيها تقنية السامر الشعبى . ومسرحية الصفقة (١٩٥٦) التى استخدم فيها بعض الفنون الشعبية الريفية من رقص وغناء وتحطيب ... إلخ . بل جعل أيضاً مسرح الأحداث فيهما يدور فى العراء ( الجرن - المصطبة ) ولكن النقاد حينئذ عابوا عليه استخدام مثل هذه الفنون الشعبية فى إطار القالب المسرحى الغربى . بل تمادوا فذكروا أن دعوته لقالب مسرحى عربى لا تعدو أن تكون من قبيل القانتازيا الفكرية .

انظر ؛ كمال الدين حسين : التراث الشعبى فى المسرح المصرى (م.س) ص ٢٨١ - ٣٠١ ومصادر النقل هناك . إبراهيم حمادة : توفيق الحكيم والبحث عن قالب مسرحى عربى م ٢ ص ٣٤ - ٥٩ ( أبريل ١٩٨٢ ) . ولنا عودة فيما بعد فى هذه الدراسة إلى قضية القالب المسرحى عند الحكيم .

(٣) انظر ؛ اسماعيل أدهم : الأعمال الكاملة ، تحرير وإعداد أحمد الهوارى ، المجلد الأول ، أدباء معاصرون ، ص ٢٠٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

(٤) انظر نص المسرحية فى : المسرح المتنوع للحكيم ، ص ٧٠٥ - ٧١٦ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٦ .

الملك فاروق الأول ملك مصر (١)، حيث كان المناخ السياسى آنذاك يسمح مضطراً بنشرها ، وذلك إثر العودة سنة ١٩٣٤ إلى العمل بدستور ١٩٢٣ والعودة إلى الحياة النيابية فى مصر التى كانت قد توقفت بعد إلغاء الدستور عام ١٩٣٠ وذلك أمام الضغوط الشعبية المطالبة بعودة الحياة النيابية ، إثر الاضطرابات السياسية العنيفة بين القصر والشعب ( حزب الوفد الذى ظل يجرى إلى الحكم بأغلبية شعبية ساحقة أزعجت الملك ) فالملك يريد أن يستأثر بالسلطة ، تسانده بعض القوى الرجعية ، على حين أن الوفد بزعامة سعد زغلول ثم النحاس باشا يطالب بتطبيق الدستور وإقامة حياة نيابية حقيقية انطلاقاً من الشعار السياسى للوفد "الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة " ومن ثم فالملك ليس فوق الدستور ، حيث الشعب مصدر السلطات لأول مرة ... ولم يكن محض مصادفة أيضاً أن يعيد الحكم نشر هذه المسرحية فى عام ١٩٥٦ أى بعد بضعة وعشرين عاماً من صدورها لأول مرة ، وكان بمقدوره أن ينشرها فى كتابه " مسرح المجتمع " الذى صدر عام ١٩٥٠ . وهو توقيت لم يخلُ من دلالة يفصح عنها الحكيم فيما بعد فى كتابه الشهير " عودة الوعى " مشيراً إلى تشابه الواقع السياسى الجديد بعد ثورة ٢٣ يوليو مع الواقع السياسى لمصر إبان صدور المسرحية لأول مرة .

فى ظل هذا التأطير الزمنى الموجز لنص المسرحية ، نشرنا أو إعادة نشر ، وفى ظل هيمنة خطاب سياسى يحاول فيه كل من الملك والشعب الاستئثار بالسلطة لنفسه ، وأنه صاحب الحق فى حكم البلاد ، كتب الحكيم مسرحية نهر الجنون متزامنة مع هذا المناخ السياسى بصراعاته الخفية ؛ لتعلن فى النهاية انحياز الحكيم المطلق لجموع الشعب ضد الملك ، مهما كانت

---

(١) من المعروف أن عهد الملك فؤاد الأول ( ١٨٦٠ - ١٨٩٣٦ ) ملك مصر (١٩١٧-١٩٣٦) قد شهد تطورات سياسية كبرى ، ففى عهده قامت ثورة مارس ١٩١٩ التى اضطرت الإنجليز على إثرها إلى رفع الحماية البريطانية عن مصر ، والاعتراف بها مملكة مستقلة ذات سيادة ، حيث أعلن الملك فؤاد استقلال مصر فى ١٥/٣/١٩٢٢ ومنح الدستور (١٩٢٣) وتألقت أول وزارة شعبية برئاسة الزعيم زغلول فى يناير ١٩٢٤ بعد أن حظى حزب الوفد بأغلبية ساحقة فى الانتخابات ، وعندئذ بدأت الحياة النيابية فى ١٥/٣/١٩٢٤ على نحو يوحى بحياة ديمقراطية صحيحة ، لكن ما لبث أن دب الخلاف بين القصر (الملك فؤاد ) و الوفد (ممثل الشعب ) وظلت العلاقة متوترة بين الجانبين حتى تم إلغاء دستور ١٩٢٣ عام ١٩٣٠ ثم أعيد العمل به ثانية عام ١٩٣٤ على نحو أضحت فيه الديمقراطية شعاراً زائفاً ، وهى السنة التى كتب فيها الحكيم مسرحية نهر الجنون . وهو أمر لا يخلو من دلالة سياسية فى مغزاه الدرامى أو الإبداعى الذى يعالجه نص المسرحية .



عبقريته الفردية أو قدراته العقلية والسياسية الفذة أو حقه الوراثى فى الحكم ، إذ آن الأوان لحتمية خضوع الملك الفرد - على المستوى السياسى - لرأى المجموع / الشعب فى ظل واقع سياسى مختلف تنامى فيه الوعى السياسى والتاريخى لدى جماهير الشعب بتأثير النظام النيابى الجديد ، وبات الرأى لهم والأغلبية معهم ، والغلبة - عاجلاً أو آجلاً من نصيبهم .

هذا هو المعنى الذى تنطوى عليه المسرحية ، فى تحذير صريح ومباشر من الحكم الفردى فى عصر الملكية فى مصر . ومن اللافت للنظر أن المتن السردى لمسرحية نهر الجنون مستعار بالكامل من حكاية شعبية مماثلة لها ، من حيث البنية المورفولوجية والوظيفية ، التركيبية والدلالية . وهذا يعنى أن الحكيم قد استتر وراء هذه الحكاية الشعبية ، باعتبارها قناعاً تراثياً يتيح له - إذا تمأهى فيه - أكبر قدر من الإسقاط السياسى إبان هذا الصراع السياسى بين الملك فؤاد وشعبه . ومن ثم لا غرو أن يعيد نشرها ثانية إبان الفترة الناصرية عندما ألفت النظام النيابى ( الحكم الديمقراطى ) أيضاً على نحو ما أشرنا من قبل .

وما كان للحكيم أن تتأتى له مثل هذه الشجاعة الفكرية فى النقد السياسى المباشر ( نقد الذات الملكية ) عام ١٩٣٥ إبان صراع الملك مع الشعب واضطراره إلى إعادة دستور ١٩٢٣ على مضض ، إلا من خلال إعادة إنتاج هذه الحكاية الشعبية برموزها السياسية المواتية التى تتفق أصلاً وآراء الحكيم السياسية من ناحية ، وإيمانه بالأدب الملتزم ورسالته التنويرية " فى خدمة الشعب " من ناحية أخرى ، وحتمية أن يكون للمسرح " رسالة قومية شعبية وإصلاحية" <sup>(١)</sup> وعلى نحو ما أشار أيضاً فى رسالته إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين عام ١٩٣٣ مؤكداً غيابها إيمانه بدور الأدب والأديب ، حيث يقول " قيادة الرأى العام واجبة على الأديب " <sup>(٢)</sup> . وليس محض مصادفة أن تكون هذه الرسالة محفزة لإبداع هذه المسرحية وتخليقها الفنى إبان عام ١٩٣٤ ، ونشرها فى أوائل عام ١٩٣٥ .

هذه الحكاية الشعبية التى تناصت معها المسرحية ، بنية ووظيفة ، أو تركيباً ودلالة ؛ هى حكاية " نهر الجنون " التى وردت فى مخطوطة " الأسد والغواص " التى تعود إلى القرن

(١) انظر : توفيق الحكيم : فن الأدب ، ص ٣١٢ .

(٢) تحت شمس الفكر ، ص : ١٠٣ .

الخامس الهجرى ، وهى مخطوطة قصصية تضم عدداً من الحكايات الرمزية ، السياسية العربية ( على لسان الحيوان فيما يعرف باسم أدبيات مرايا الأمراء ) (١) .

وقد قام بجمعها وتدوينها مؤلف مجهول ( لقد تم نشر هذه المخطوطة عام ١٩٧٨ باعتناء الباحث المعروف رضوان السيد ) .

ومن الجدير بالذكر أن توفيق الحكيم لم يشر إلى هذه الحكاية أو حتى إلى مصدرها السماعى أو الشفاهى ، لا من قريب ولا من بعيد ، مما يعنى أن التفاعل أو التداخل النصوى هنا ينتمى إلى نمط المتناص غير المعلن أو المضمّر الذى لا يكشف عنه إلا قارئ حصيف أو ناقد متمرس ، أو محض مصادفة صائبة على نحو ما حدث معنا .

وحتى يتأكد لدينا مثل هذا التداخل النصوى المتماهى ، نرى ضرورة الإشارة إلى الوحدات السردية أو المتتاليات النصية التى يتكون منها المتن الحكائى الشعبى بما هو نص سابق ونقارنه بنظيره فى المسرحية بما هو نص لاحق . إذ يمكن تحليل هذا المتن المسرحى إلى خمسة عناصر مورفولوجية أو خمسة متتاليات نصية على التريب التالى :

(١) النبوءة : نبوءة تحذيرية للملك .

(٢) الاستجابة : استجابة الملك للنبوءة دون الرعية .

(٣) الثبوءة : ارتياب الرعية فى سلوك الملك الجديد (فى ظل النبوءة) واتهامه بفساد التدبير . مع التفكير فى خلعه .

(١) لما كان الكتاب يماثل كتاب كليلة ودمنة فى وظائفه السياسية والتعليمية ، ويحكى مثله الأسلوب الأمثل للتعاون بين المثقف والسلطة - بدلاً من الصراع التقليدى بينهما - فقد رويت حكايات هذا الكتاب على لسان الثعلب الغواص الباحث عن لآلىء الحكمة السياسية ليقدمها إلى الأسد الملك . بهدف تقويمه سياسياً . وهذا يعنى أنه كتاب سياسى تعليمى ينتمى إلى ما يعرف تراثياً باسم علم " تدبير الملك " ، أو باسم " مرايا الأمراء " من حيث هى ضرب من الأدب التعليمى يصاغ فى معظم الأحيان فى قالب حكائى يروى على لسان الحيوان ، وكان مرجعاً لتعليم الأمراء وتقويم الملوك وإرشاد السلاطين وتقديم النصح لهم فى كيفية الحكم وإدارة شئون البلاد وسياسة العباد بهدف تحقيق العدل والإنصاف بين الرعية على نحو تعليمى قمىلى أو رمزى ( البجورى ) . والتراث العربى حافل بالكثير من هذا النوع من الكتب / المرايا على لسان الحيوان خاصة . ابتداء من كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع (١٤٢هـ) وانتهاء بكتاب " فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء " لابن عرب شاه (٨٥٤هـ) الذى قمنا بتحقيقه ، انظر : مقدمة هذا الكتاب للمحقق ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، ١٩٩٧ .

(٤) التراجع : تراجع الملك أمام ثورة الجمرع الشعبية ، وانقياده لها .

(٥) النصر : انتصار إرادة الجماهير ، وفشل النبوءة .

ففى المسرحية ثمة ملك يرى نبوءة مثامية ( رؤيا مروعة ) تحذره من الشرب من ماء النهر، حتى لا يصاب بالجنون بعد أن سمته الأفاعى السوداء بجنونها، لكن المشكلة تكمن فى أنه رأى الرعية كلها تشرب من ماء هذا النهر الذى هو نهر الجنون فى نظره فأصبحت الرعية من ثم رعية مجنونة . ولما كانت الرعية نفسها لا تعلم شيئاً من أمر هذه النبوءة أو الرؤيا ، فإنها شرعت ترتاب فى سلوك الملك ، وخاصة بعد أن تأكد لديها أنه لا يشاركها الشرب من ماء النهر ، فأخذت تتهمه هى بالجنون ، وسرعان ما ازدادت الهوة اتساعاً بين الملك والرعية إلى حد التهديد بالثورة عليه ، حتى كاد يفقد عرشه ، غير أنه فى النهاية وبعد لأى شديد يضطر - باعتباره ملكاً حصيفاً بعيد النظر - إلى الاستجابة لرغبة الرعية وإرادة الجمرع ، وشرب مثلهم من ماء النهر . وبهذا تسنى له أن يحافظ على عرشه وأن يعيش مع شعبه بسلام ، من أجل أن تزدهر مملكته بين ممالك الأمم<sup>(١)</sup>.

أما الحكاية الشعبية التى قماهى فيها الحكيم - تركيباً ودلالياً - دون أن يشير إلى مصدرها ، ومن غير أن ينتبه النقاد إلى أصولها فتتد ضمن سياق حكاى أكبر له طابع حكاى سياسى ( أدبيات مرايا الأمراء ) يشير إلى أن الملك الحصيف هو الذى يستجيب لرغبة الرعية ، وينزل على رأيها ويخضع لإرادة الجماعة التى بدأت بالفعل تمتلك من الوعى السياسى ما يؤهلها لذلك انطلاقاً من أدبيات المفاهيم السياسية الإسلامية الذائعة فى تراثنا السياسى حيث " الأمة لا تجتمع على ضلالة " و " يد الله مع الجماعة " ؛ هذا إذا شاء الملك أن يحتفظ برأسه وعرشه ، بملكه ومملكته ، وأن يعيش بينهم فى سلام وصفاء وتفاهم حتى لو كان على خلاف فى الرأى معهم ، ذلك أن " الشكل للشكل ألف ، والمثل للمثل قابل ، والضد عن الضد نافر ، ولا عيب على المرء فى المقاربة " ، على حد تعبير الحكاية ، وعلى نحو ما تقتضى قواعد الدبلوماسية فى الحكم .

(١) انظر تحليلاً مفصلاً لهذه المسرحية فى كتابنا نصوص أدبية : ص ٢٤٣ ، ٢٦٣ ، دار النشر

الجامعى، الكويت ، ١٩٩٧م.

## تقول الحكاية :

" ... قال الملك ( الأسد ) : وكيف كان أمر ذلك ؟ قال الغواص : ذكر أن ملكاً من الملوك قال له منجموه : إنا نجد فى علمنا أنه من شرب من ماء هذه السنة المقبلة تغير عقله وخلوط : فإن رأى الملك أن يأمر بادخار الماء لنفسه وخاصته فليفعل ولا يشربوا من ماء هذه السنة المقبلة . فأمر بالمصانع فاتخذت وادخر فيها الماء ما يكفيه . فلما جاء المطر وشرب الملك من الماء الأول هو وخاصته لم يصبهم ما أصاب العوام . فلما رأتهم العامة على خلاف حالهم قال بعضهم لبعض : إن ملكنا وأصحابه قد خلوطوا وتغيرت عقولهم وما الرأى إلا خلعه والاستبدال به ملكاً منا عاقلاً مثلنا !<sup>(١)</sup> ثم إنهم أتوه فقالوا : إنا نريد خلحك والاستبدال بك لأنه قد تغيرت علينا أمرك وفسد تدبيرك . فعرف قصته ؛ فقال لهم : يا قوم ! إنى قد عرفت ذنبى وأنا أعتبكم منه وقد صبرتم على ما كرهتم منى مدة فأمهلونى أياماً يسيرة مع ما مضى فإن رأيتمونى على ما يرضيكم وإلا فما تريدونه بين أيديكم ! فأجابوا إلى ذلك . فلم يلبث أن شرب من مائهم فصار مثلهم ! فقالوا : ما أحسن ما رجع الملك إلى الأحسن به ! وما أسرع ما أعتبنا من نفسه ! وجاءوه فاطنبوا فى تقريظه وشكره ! وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم أن الناس يحتاجون أن يساسوا بما تحتمله عقولهم ويكون المرء معهم بحيث هم ؛ فإن الخيل تستجيب إلى الشرب بالصفير أكثر مما تستجيب إليه بالكلام البليغ واللفظ الجميل . والمرء إذا أراد أن يخاطب صبيّاً بما يقبله ويسر به تصابى له فى حديثه ومخارج ألفظه وقارنه وتشبه به فى كلامه فليس إطرأحه عند ذلك عقله ناقضاً فضله لأن الشكل للشكل ألف والمثل للمثل قابل والضد عن الضد نافر . ولا عيب على المرء فى المقاربة<sup>(٢)</sup> ( بمعناها السياسية ) .

(١) انظر : كتاب الأسد والغواص ، باعتناء وضوان السيد ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٠ ، ص ١٤١ - ١٤٢ . والقصة بعينها مكررة فى لطف التدبير للإسكافى ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، مع خلاف طفيف فى ملفوظ الرواية .

(٢) الأسد والغواص ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

وهذه الحكاية الشعبية المتخيلة - كما رأينا غير محددة المكان أو الزمان ، شأن معظم الحكايات الشعبية المتخيلة ، الأمر الذى يجعل من استلهاها أمراً أكثر سهولة ويسراً وتحراً من قيد المكان والزمان . وتنطوى في متنها الحكائى على خمسة عناصر مورفولوجية أيضاً هى: النبوة ، والاستجابة ، والثورة ، والتراجع والنصر ( كالمسرحية سواء بسواء ) . فثمة نبوءة للنجم تروى الملك تنبئ عن تغير ماء النهر ، وتحذر الملك من الشرب منه حتى لا يصاب بالجنون ، لأن " من شرب منه تغير عقله وخولط " .

ويعمل الملك بنصيحة النجم فلا يقترب قط من ماء النهر ، وعندئذ ترتأب الرعية فى سلوك الملك الذى لا يشاركهم الشرب من ماء النهر ، من غير أن تعلم من أمر النبوءة شيئاً ، وعندئذ تتهمه بالجنون " بعد أن تغير أمره وفسد تدبيره " . ويجتمع أمرهم على الثورة عليه ومواجهته " وما رأى إلا خلعه والاستبدال به ملكاً منا ، عاقلاً مثلنا " . وتزداد الهوة اتساعاً بين الجانبين بمرور الوقت ، غير أن هذا الملك الحصيف سرعان ما فطن إلى السبب الحقيقى فى الثورة عليه ، ويشرب - مثلهم - من ماء النهر ، من غير أن يرى ضيراً فى ذلك الخضوع أو التراجع أمام إرادة الجميع ، بل على النقيض سرعان ما رضيت عنه الرعية وأطنبت فى مدحه وبذلك استقر له الحكم .

أليست هذه الوحدات السردية هى عينها ما صادفتنا على مستوى البنية التركيبية والدلالية لمسرحية نهر الجنون ، وإلى حد الماثلة أو التماهى الكامل فى الحكاية الشعبية (١) ، وإلى الحد الذى يمكن القول معه بأن جهد الحكيم ثقل فى إعادة إنتاج النص الحكائى على نحو مسرحى ... ومع ذلك فقد استطاع الحكيم بنصه اللاحق أن يتجاوز النص الحكائى على نحو لا يمكن معه اتهامه بالسطو عليه (٢) على الرغم من هذا التداخل النصوى الواضح للعيان ، فكيف تسنى له ذلك ؟ .

قبل أن نجيب عن هذا السؤال علينا أن نتذكر أنه لولا مسرحية نهر الجنون لنسينا هذه الحكاية الشعبية أصلاً ، القابعة هناك فى مخطوطة مجهولة المؤلف ، ونسينا معها دلالتها الخاصة أو الكامنة التى فجرها الحكيم برؤيته المعاصرة ، ومن ثم لولا هذا التناس ما كان من الممكن أن نتذكرها أو أن نعيد إنتاج معناها على هذا النحو المعاصر ( الصراع بين حكم الفرد

---

(١) مما يغرى الأديب عادة باستلهاها النص الشعبى أو الحكائى للتخيل أنه نص خلو من الأسماء، التاريخية ومن المكان الجغرافى المتعين ومن الزمان التاريخى المحدد .

وحكم المجموع ) . ومن ثم فهذا النمط المتماهى من التناص لا يعد سرقة أو سطوًا ، ليس لأن نية السطو أو السرقة لم تكن أصلاً قائمة فحسب ، بل لأن الواقع السياسى المعاصر أيضًا ما كان ليسمح بالتصريح للحكيم بأكثر مما تصرح به الحكاية ، ومن هنا كانت عبقريته فى التماهى فيها ، واستتاره وراء باعتبارها عندئذ قناعًا تراثيًا .

ولهذا ليس محض مصادفة أن يتجاهل الحكيم التمهيد لنصه المسرحى بالاستهلال التقليدى الذى يبدأ به معظم نصوصه ، إذ لم يكن ثمة عتبة دخول هنا تحيل القارئ إلى فضاء محدد أو تنحو به نحو أفق معين من التوقعات ، بل عمد إلى اختراق النص دون وجودها . فى غياب مثل هذه العتبة أحالنا النص مباشرة إلى فضاء الصمت (الناطق) ، فضاء التخييل اللزمنى واللامكانى كما رأينا بما هو فضاء غير واقعى غرائبى يستدعى بالضرورة نقيضه الواقعى والراهن ؛ فهذا هو الفضاء السياسى المتاح أمام التخييل المسرحى آنذاك (١٩٣٤) فى مصر .

من المؤكد أيضًا أن توفيق الحكيم لم يكن يقصد باستلهاهم هذه الحكاية - إلى حد التماهى - إحياء حكاية شعبية ، أو عودة الروح إلى قصة تراثية مدونة يزيد عمرها على ألف عام . والحق أن الحكيم عندما عثر على هذه القصة فى إحدى المخطوطات القديمة ( فى نسختها الموجودة فى مكتبة البلدية بمدينة الإسكندرية ، كما تقصينا ذلك ) عمد إلى فهمها واستلهاها وتفجير طاقاتها الإيحائية والسياسية بما يتفق والطبيعة الجمالية والفكرية للنص المسرحى من ناحية ، وبما يتماثل مع مراميه السياسية ومقاصده المعاصرة ورؤيته للعالم من ناحية أخرى كما سنرى وشيكًا .

وعندئذ تحول النص المسرحى عنده من مجرد متخييل حكاى موروث إلى مرايا للحاضر الذى يستلهم ماضيه ، وأقنعتة ، ودواله الرمزية ؛ للكشف عن مثالب الحاضر والراهن والواقع المعيش من خلال تعميق الدلالات الكامنة فى الحكاية ، وإعادة إحيائها على نحو معاصر ، تبدو خلالها المسرحية - بحكم التغاير الزمنى - متجاوزة دلاليًا للنص الشعبى الذى ولدت المسرحية من رحمته ، وظلت تحمل جيناته الوراثية . وبهذا استطاع الحكيم أن يتجاوز هذا التفاعل النصوى الظاهر الذى كشفنا عنه ، على مستويين آخرين .

أحدهما ؛ على مستوى البنية الفنية النوعية ، أعنى " التحويل " النصى النوعى من مجرد حكاية سردية بسيطة إلى نص مسرحى مركب ، يعتمد درامياً على كوميديا الموقف القائم على المفارقة من ناحية ، والحوار الساخر المشبع بالإيحاءات والدلالات المعاصرة من ناحية أخرى ،

الأمر الذى اقتضى إخضاع النص الحكائى لعملية إطناب أو تمطيط أساسها الخضوع لآليات النص المسرحى ، بهدف التعزيز الدلالى للمعنى الكامن فى الحكاية ، وذلك من خلاله خلخلة النص ؛ بإدخال شخصيات فطية إضافية ، تقتضيها طبيعة الحكمة المسرحية ، أو ضرورة الصراع الدرامى المسرحى الجديد ، دون أن تلغى هذا التماهى ؛ مثل شخصية الوزير وشخصية الملكة وكبير الكهان ورأس الأطباء .

أما الآخر ؛ فهو على مستوى البنية الدلالية ( السياسية ) على نحو ما هو آت .

على الرغم من اشتراك النصين ، الحكيمى اللاحق بالشعبى السابق ، فى ظاهر البنية الدلالية ، فإن الفكرة الجوهرية فى الحكاية الشعبية والمسرحية تسعى إلى تقديم صورة إيجابية ينبغى أن يكون عليها الحاكم المثالى ، بقدر ما تحرّض وتشير فى الوقت نفسه إلى أن الملك الحصيف سياسياً هو الذى يستجيب لمطالب الرعية المشروعة ، ما دامت هى التى تمثل الأغلبية، وما دامت هى التى تمتلك القول الفصل فى بقاء الحاكم أو عزله ( بما يتناص وظاهرة الانتخاب فى النظام النيابى الديمقراطى المعاصر ) كلنا " تغير عليهم أمره وفسد تدبيره " ... و " ... ما الغلبة إلا لهم " فى النهاية . وأن السلطة السياسية فى ظل هذه النزعة (الديمقراطية ) التى تعنى أن الحكم ليس سبيلاً إلى الأبهة والنفوذ والمجد الشخصى ، كما لا تعنى الاستئثار بالرأى دون الرأى الآخر ، أو الانفراد بالحكم دون مشورة المجموع ؛ إذا شاء مثل هذا الحكم المثالى المرجو العيش بسلام وتفاهم وتوافق مع رعيته . وأن مثل هذا الحاكم السوى أو المثالى هو الذى ينبغى أن يفرد داخل السرب لا خارجه ، ومن أجل ذاته ، ومن ثم لا يبدو صوته نشاذاً فى اللحن الجماعى للشعوب الواعية أو ضد المصلحة العامة فى عصر الديمقراطيات المعاصرة .

هذا ما ينتجه المعنى الكامن فى الحكاية الشعبية فى قضيتها المحورية ذات الطابع التعليمى ، وهذا ما يفجره الحكيم نفسه فى قضيته المحورية فى المسرحية متفقاً مع البنية الدلالية للحكاية وغاياتها التحريضية للشعب ، التحذيرية للملك ، باعتبارهما معاً - الحكاية أو المسرحية - ينشدان رسم صورة مثالية للحاكم المرجو أو المنشود الذى تطمح إليه جماهير الشعب أو الرعية.

غير أن النص الحكيمى - فى معناه الجديد ومغزاه البعيد - يتجاوز رسم هذه الصورة الماضوية العامة للملوك إلى رسم صورة مثالية جديدة يطمح الحكيم إلى تبرزها على نحو

يتناسب ومعطيات المشهد السياسى فى عصره ويؤيد قضايا الديمقراطية الحديثة ومتطلبات الحكم النيابى ، حيث الحكم الآن للشعب لا للفرد مهما كانت عبقريته أو حنكته السياسية الفذة ، خاصة بعد أن تغيرت الظروف السوسيونومية ( التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية على المستويين المحلى والدولى ) التى تم فيها إنتاج النص الحكيمى ( مسرحية نهر الجنون ) فضلاً عن تحقق الشرط التاريخى للتمرد الشعبى على حكم الفرد فى النظم السياسية التقليدية فى المجتمعات الأبرية أو البطيركية ، وللثورة المسلحة عليها ، بعد أن شربت المجتمعات الحديثة من نهر الوعى السياسى الجديد / النيابى الديمقراطى . وأن الحاكم السياسى الحصيف - فى النظم السياسية الوراثية - هو الذى ينزل على رغبة المجموع أو الأغلبية التى تأتى بها انتخابات حرة نزبهة ، وعندئذ يحق له أن يحكم باسم المجموع لصالح المجموع ، وأن الحق الإلهى أو الوراثى الذى يخوله حكم المجموع حكماً فردياً لا راد له ، قد انتهى تاريخه وتولى زمنه إلى غير رجعة فى معظم دول العالم المتقدم فى العصر الحديث ، خاصة - والكلام للحكيم - أن " الحق والعقل والفضيلة كلها قد أصبحت ملكاً لهؤلاء الناس أيضاً ، هم وحدهم أصحابها الآن" (١) فى عصر الديمقراطية التى سادت فى البلاد المتقدمة والتى تطمح الشعوب النامية أو المستقلة حديثاً فى تطبيقها والأخذ بها ، بعد أن تنامى الوعى السياسى الثورى لديها وحصولها على استقلالها السياسى مؤخراً ، وإشار النظم الديمقراطية ، ضد نظم الحكم الفردى أو الشمولى (٢).

---

(١) مسرحية نهر الجنون : ص ٧١٥ .

(٢) دفعنا إلى اختيار التفسير السياسى دون غيره للنص الحكيمى هو الحكاية الشعبية المستلهمة نفسها ، فقد وردت فى سياق سياسى بحت . ولكن هذا لا يمنع بعض النقاد من تقديم قراءات أو تفسيرات رمزية أخرى ترى فى ماء النهر رمزاً معرفياً أو بالأحرى رمزاً للوعى المعرفى عند الإنسان المعاصر الذى عجز عن اختراق آفاق المعرفة ، وعندئذ تصبح القضية التى تعالجها المسرحية فى مثل هذه القراءة أو التأويل هى قضية القلق المعرفى ، لا بالمعنى الوجودى وإنما بالمعنى الفلسفى ، وعندئذ يبقى - فى ضوء هذه القراءة - السؤال الذى طرح الحكيم فى ختام المسرحية قائماً بشدة : " ما الفرق بين العقل والجنون ؟ الذى ورد على لسان الملك ، وعجز الوزير فى الإجابة عنه ، وما القيد بين العقل والجنون عندئذ ؟ وكيف تكون معايير ؟ ومن ذا الذى يقرر الإجابة عن هذا السؤال القضية : انظر المسرحية ص ٧١٦ . ويرى بعض الباحثين أن المسرحية تعالج أكثر قضية كالمنطق وآفاق المثل العليا ... انظر : محمد الدالى : الأدب المسرحى المعاصر ص ١٨٣ - ١٨٤ ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٩٩ .



وقارىء المسرحية - نهر الجنون - يعرف جيداً كيف يشارك فى إنتاج هذا المعنى السياسى من خلال حوار الحكيم ، باعتباره ليس مشبعاً بروح التهكم والسخرية فحسب ، ولكنه مفعم أيضاً بتلميحاته وتورياته السياسية الذكية التى تتيح للقارىء الوقوف على باطن النص أو بنيته الدلالية العميقة التى تستحضر الكثير من الأسئلة / القضايا التى تتعلق بالسلطة والسلطان وآفاق العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وأى الطريقين أصلح للحاكم فى الحكم ؟ وكيف يختار ؟ هل يختار الحاكم الفردى المستبد الذى تساندته قوة السيف أو الحكم الجمعى (النيابى / الديمقراطى ) الذى يجعله خاضعاً للقانون شأنه شأن سائر أفراد الرعية / الشعب؟<sup>(١)</sup> وحيث " الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة " .

تشير خاتمة المسرحية إلى أن الرعية / الشعب هى التى حسمت هذا الاختيار لصالح القانون ( النظام النيابى ) بالطبع . وقد استجاب الحاكم / الملك - بحنكته السياسية الحصيفة - لهذا الاختيار ( الإجبارى ) الذى جاء عن طريق الانتخاب الحر الحقيقى ، فلولا وحدة الصف ، وجمع الكلمة ، وتوحد إرادة الأمة ؛ ما كان لها أن تجبر الملك على الرضوخ لهذا الاختيار . وهذا يعنى - فى المحصلة النهائية - أن التغيير السياسى المعاصر رهن بإرادة الشعوب وبوعيتها السياسى المتنامى . وتلك هى الرسالة التحضيرية الشجاعة التى تنطوى عليها مسرحية نهر الجنون ، بل إن حكم الفرد أو الحكم الشمولى - فى عصر الديمقراطية العالمية - هو الجنون بعينه الذى لا تقبل به إلا الشعوب المتخلفة والقبلية . المسرحية إذاً صرخة فنية فى

---

(١) وذلك على نحو يذكّرنا - على مستوى التناص الذاتى - بمسرحية الحكيم " السلطان الحائر " وحيرة الحاكم فى الاختيار بين السيف والقانون ، حيث تم اختيار السلطان هنا للخضوع للقانون على نحو يشير إلى أنه اختيار تابع من إرادته الحرة المسؤولة ، وليس مجبراً كما فى مسرحية نهر الجنون ، وأن المبادئ المثالية لابد لها من أشخاص مثاليين ، وأن العيب لا يكمن فى المبدأ بقدر ما يكمن فى القائم على تنفيذ هذا المبدأ " فالنظم السياسية ، والأوضاع الديمقراطية ، والمبادئ المثالية ؛ ليست فى ذاتها كل شىء ، ومهما تصلح من فاسدها ، وتبلغ من كاملها ، فلن يغنيا ذلك إلا قليلاً ، مادام الفساد ينخر فى نفوس الأشخاص ؛ ... وما قيمة إطار جميل لصورة قدرها ضئيل ؟ ... وما نفع الثوب الرائع لشخص منحل معتل ضائع ؟ ... إن الحكم المثالى ، فى واقع الأمر ، ليس فى المبادئ المثالية ، بل فى الأشخاص المثاليين . ما أضعف المبادئ أمام الأشخاص " . على حد قول الحكيم فى كتابه : شجرة الحكم ص ٢٠ .

وجه الأوضاع السياسية الفاسدة فى مجتمعاتنا العربية المعاصرة " حيث لا حق إلهياً ، ولا سلطان دينياً ، ولا تعيين سماوياً ؛ فالأمر متروك إلى الناس " (١).

وبذلك يكون الحكيم فى معطياته الدلالية المركبة والمعاصرة والتحريضية للنص المسرحى المتماهى فى الحكاية قد تجاوز - من حيث تعميق الدلالة وتأكيد المغزى - المعطيات السياسية التعليمية السردية البسيطة للحكاية الشعبية الموروثة منذ القدم دون أن يلغىها أو يعارضها ، مكتفياً بهذا التفجير الدلالى المعاصر . كما ظل الملك فى الحكاية معادلاً تراثياً أو قناعاً فولكلورياً يتخفى الحكيم وراءه أو يرسم من خلاله صورة نموذجية للملك الثانى كما ينبغى له أن يحكم شعبه ، يعنى الملك فؤاد وقت صدور المسرحية عام ١٩٣٥ ، الأمر الذى سبب اضطهاداً مكشوفاً للحكيم وكاد معه أن يتقدم للمحاكمة لولا خشية الحكومة نفسها من الحكيم " لأنى أحسن الدفاع وأكشف القناع " (٢).

ما لبث الملك فؤاد أن توفى سنة ١٩٣٦ وتولى عرش مصر عندئذ ابنه الملك فاروق الذى استقبل الشعب حكمه بشيء من التفاؤل غير قليل ، لكن يبقى " الملك هو الملك " ، الذى سرعان ما انحرف عن جادة الديمقراطية لأسباب لا مجال لذكرها هنا ، فانعزل بذلك عن شعبه وانغمس فى الشهوات على نحو ما هو معروف تاريخياً ، وتحولت الأحزاب السياسية يومئذ إلى لعبة يلهو بها متى شاء وكيف شاء ، وأصبح تعيين الوزراء أو عزلهم رهناً بالرغبة الملكية السامية ، الأمر الذى أثار شغب الشعب ضده فى أواخر الثلاثينيات ، وعندئذ كتب توفيق الحكيم سلسلة من المقالات والصور السياسية فى الصحف ينتقد فيها النظام البرلمانى المصرى ، قائلاً عبارته الشهيرة : " النظام البرلمانى فى مصر هو الأداة الصالحة لتخريب الحكم غير الصالحين " (٣). ودعا فى هذه الصور السياسية التى كتبها عام ١٩٣٨ إلى حتمية العودة إلى النظام الديمقراطى فى صورته الحقيقية لا المزيفة ، كما دعا إليها فى مسرحية نهر الجنون دون جدوى ؛ مؤكداً أن الأيام قد زادتة يقيناً بزيف هذا النظام من حيث التطبيق ، قائلاً :

(١) انظر شجرة الحكم (١٩٤٥) ، ص ١٨ ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت .

(٢) شجرة الحكم : ص ٦ .

(٣) نفسه : ص ٧ .

" رأى الذى لم أقتنع بعد بخطئه هو أن كل البلاء الذى نحن فيه ناشئ من نظامنا السياسى على وضعه الحالى " (١).

فالحكومات المصرية تتغير كل يوم ، فضلاً عن كونها حكومات حزبية لا تعمل لصالح الوطن ، وإنما غايتها نفاق الملك ( مليكتنا المفدى ) والوصول إلى الحكم دون أدنى اعتبار للمصالح الوطنية ، حتى كاد الحكيم يكفر بهذا النظام النيابى لولا أن رآه هناك مصدراً لتقدم الدول الأوروبية " حيث رأى العام اليقظ ، والضمير القومى المنتبه " كما يقول .

وعندئذ بادر توفيق الحكيم إلى إعادة نشر سلسلة المقالات السابقة فى كتاب جعل عنوانه سياسياً دالاً هو شجرة الحكم فى عام ١٩٤٥ وما لبث أن عزز هذا الكتاب بعمل إبداعى سياسى آخر يعالج من خلاله نفس القضية ( فساد النظام النيابى ) فى بلادنا بكتابة مسرحية أخرى جديدة من فصل واحد استلهم فيها أيضاً التراث الشعبى العربى المدون ، وعنوانها ألف ليلة وليلتان تعالج الموضوع نفسه ، وقد نشرها فى مجلة آخر ساعة المصرية فى عددها الصادر بتاريخ ١٨/٢/١٩٤٨ ، عمد فيها الحكيم إلى أن يبعث من خلالها رسالة سياسية إلى الملك فاروق يدعو فيه - على نحو غير مباشر - إلى الأخذ بالنظام الديمقراطى فى صورته الصحيحة ، وضرورة الانحياز إلى الشعب بدلاً من الانعزال عنه . وهى رسالة مماثلة لنفس الرسالة التى سبق أن بعث بها إلى الملك فؤاد فى مسرحية نهر الجنون . يدعو فيه إلى الأخذ بالنظام الديمقراطى .

ومن هنا تتناص المسرحيتان معاً ، فـ نهر الجنون وألف ليلة وليلتان ، على مستوى التناص الذاتى ، سواء أكان ذلك فى الدلالة أو إنتاج المعنى أم استلها من النصوص الشعبية والتعالق معها والتماهى فيها ، حيث المسرحية الأخيرة تتكى أيضاً على نص شعبى عماده الحكاية الإطارية فى ألف ليلة وليلة والتماهى فى أبطالها ، ولكن من بعد أن يضيف الحكيم ليلة إضافية حوارية بين شهریار وشهرزاد ، وفيها لا يعفو شهریار الجديد عن شهرزاد فحسب بل يمتدحها سياسياً ، قائلاً :

" يكفى أنى عرفت وفهمت ، لقد كنت لى مرآة صادقة يا شهرزاد ، رأيت فيها حقيقتى وحقيقة شعبى ، وتلك أنفـس مرآة يستطيع أن يعثر عليها ملك ."

وتتحرك أحداث المسرحية إلى الأمام حيث يسألها شهريار سؤالاً لا يخفى مغزاه الإسقاطى على الملك فاروق ( ملكنا المفدى ) وهل مازال الناس يقولون عنه أنه زير النساء الدموى ، لا هم له إلا إشباع شهواته والنوم على صدور الغوانى ، وينقل إليها ما يتردد على لسان شعبه يومئذ :

" ماذا صنع لنا ملكنا شهريار غير أن يأخذ من بيننا العذارى يستمتع بأجسادهن فى كل ليلة ويسلمهن للجلاد كل صباح ؟ أما نحن الشعب فما فكر فينا وفى بؤسنا وشقائنا بمثل ما فكر فى متعته ولذته ! " .

وتتصاعد الأحداث إلى أن تنجح شهرزاد ( الضمير الشعبى والفنى هنا ) فى تحريضه على أن يتخذ شهريار أخطر قرار فى حياته إذ يختار الديمقراطية سبيلاً إلى حكم الشعب :

" سأقول لشعبى : اختر لنفسك وزراءك فإذا قصرنا وتهاونوا فاعزلهم واختر غيرهم ، وأنا مقرك على كل تصرفاتك ، لأن كل غايتى مصلحتك أنت وحدك يا شعبى ، وكل أملى هو فى سعادتك ورفاهيتك " (١) .

مرة أخرى يدعو الحكيم إلى تطبيق الديمقراطية ، فى رسالة غير مباشرة إلى المترجم فى مصر على عرش السلطة السياسية ، ومرة أخرى يصبح شهريار أو القناع الشعبى (الفولكلورى) أدواته أو وسيلته التى يتماهى فيها للتصدى مسرحياً لمشكلات الواقع الراهن ، على نحو ما فعل فى مسرحية نهر الجنون .

وتصل رسالة المسرحية السياسية إلى السلطة ، فيتعرض الحكيم للمساءلة مرتين : إحداها : حين اتصل به النائب العام ليقول له : إن الناس فهمت أنك تقصد جلالة الملك فاروق فى صورة شهريار وما يجب أن يفعل فى الظروف الحاضرة ، فما قولك ؟ فقال الحكيم : " إن الكاتب يكتب ما يكتب ، والقارىء يفهم ما يفهم " ومن حسن الحظ أن النائب العام كان زميلاً سابقاً للحكيم أثناء عمله فى القضاء . والأخرى : كيف للحكيم أن يدعو إلى الانتخابات الحرة التى كان القصر الملكى يعارضها ؟ .

---

(١) اعتمدنا هنا على نص المسرحية ( ذات الفصل الواحد ) والمنشور فى كتابه يقطعة الفكر ، ص ١٢١

وهكذا تعالقت المسرحيتان : نهر الجنون ، وألف ليلة وليلتان - على مستوى التناص الخارجى أيضاً - مع الواقع السياسى الراهن آنذاك ، وبهذا يكون التفاعل النصى مع السياق على هذا القدر من الشجاعة والوضوح .

ومن اللافت للنظر - ما دمننا نتحدث عن هذا المستوى التناصى مع السياق - أن يعيد الحكيم نشر مسرحية نهر الجنون عام ١٩٥٦ ( أى بعد ثلاثين عاماً من نشرها أول مرة ) فى عهد عبد الناصر ، لغاية فى نفس يعقوب ... مع أنه كان بمقدوره أن يعيد نشرها فى أول مجموع مسرحى ضخم له ، هو " مسرح المجتمع " الذى صدر عام ١٩٥٠ ( وهو بالمناسبة العام الذى ترجمت فيه نهر الجنون إلى الفرنسية ) ولم تكن هذه الغاية البعقوبية إلا رسالة غير مباشرة إلى الزعيم جمال عبد الناصر الذى كان قد وعد بتطبيق الديمقراطية ... ولكنه لم يتمكن من الوفاء بهذا الوعد ، لأسباب لا مجال لذكرها هنا ، الأمر الذى حفز الحكيم إلى إعادة نشرها فى أول مجموع مسرحى يصدر بعد مجموعه الأول ، فأعاد نشرها فى مجموعه الموسم " المسرح المتنوع " الذى أصدره عام ١٩٥٦ .

ومثل هذا التوقيت لإعادة النشر ، أمر لا يخلو من دلالة - على مستوى التناص الخارجى - ولم يكن محض مصادفة عشوائية ، بل ينم عن مغزى سياسى عميق ، بمقدورنا أن نستشفه بسهولة من خلال اعترافات الحكيم نفسه فى كتابه " عودة الوعى " الذى كتبه سنة ١٩٧٠ عقب وفاة عبد الناصر مباشرة ، كمذكرات خاصة له ، لكنه اضطر إلى نشرها عام ١٩٧٤ كما نعرف . إذ يخبرنا الحكيم أن مصر الثورة ، مصر عبد الناصر ، قد شهدت تطورات سياسية ، مماثلة للوقائع السياسية التى حدثت فى مصر سنة ١٩٣٤ إبان نشر المسرحية لأول مرة ... وكان لمثل هذا التشابه فى السياق السوسيونصى ( التاريخى والسياسى ) بين توقيت إنتاج النص وتوقيت إعادة النشر أثره البالغ فى رؤية الحكيم وتطلعاته السياسية التى رآها تنهار فى العهد " العهد الجديد " على حد قوله ، حيث بدأت الثورة المصرية تنحرف عن نهجها الثورى الديمقراطى المعلن الذى كان الحكيم أول المؤيدين له والداعين إليه ، منذ عودة الروح ) ؛ فلم يكتف زعيم الثورة جمال عبد الناصر بإلغاء الأحزاب السياسية فحسب ، بل عمد أيضاً إلى التلکؤ فى إعادة الدستور ، وشرع فى التراجع عن تطبيق الحكم الديمقراطى الذى كان واحداً من أهم مبادئ الثورة وشعاراتها الشعبىة . وبدأ ظهور الحكم الشمولى يلوح فى الأفق ... وعندئذ خشى الحكيم على الثورة من الثورة نفسها ، فقد تبدت له - يومئذ - فى الأفق علامات أو بوادر الحكم الشمولى ، وكان ذلك " وهو أخشى ماكان يخشاه الحكيم " ، وحينئذ

بأدر إلى إعادة نشر المسرحية ، لعل رسالتها السياسية التحذيرية تلقى آذاناً صاغية من الرئيس جمال عبد الناصر<sup>(١)</sup> ومجلس قيادة الثورة ، وهذا حسبه باعتباره مثقفاً وفناناً ملتزماً بقضايا أمته وهمومها السياسية كما صرح بذلك فى عودة الوعى .

ومجمل الأمر ، فى هذه المسرحية ، أن الحكيم ظل كاتباً وفيّاً لمبادئه وفناناً مسرحياً ملتزماً ، ورائداً متميزاً فى استلهامه شبه الديناميكى للإبداع الشعبى ، خاصة فى هذه الفترة المبكرة من حياته الفنية ، التي سعى فيها إلى " إعادة إنتاج " النصوص الشعبية ، متعلقاً معها على المستويين التركيبى والدلالى على نحو ما يتجلى فى هذا النص المسرحى ، مسرحية نهر الجنون ، ومثلها مسرحية ألف ليلة وليلتان التي أشرنا إليها فى إيجاز باعتبارها نصاً مسرحياً آخر للحكيم ، ينتمى أيضاً إلى غط التناس المتماهى فى هذه المرحلة المبكرة من حياة الحكيم الإبداعية ، حيث كان يكتفى فيها بدمج النصوص الشعبية فى نسيج نصوصه المسرحية ، من غير أن يشير إلى ذلك فى معظم الأحيان ، وعلى نحو تتجلى فيه علاقة " التماثل " الذى يقود إلى وظيفة التماهى البنائى والوظيفى ، التركيبى والدلالى فى النهاية . وحسبه فى هذه المرحلة أمران :

أحدهما : مسرحية النص الشعبى ، والآخر : إضفاء روح المعاصرة على وظائفه الموروثة . الأمر الذى أنقذه - الحكيم - من السقوط فى هوة الاستلهام السكونى أو الاستاتيكي ، وبراءته القاتلة للإبداع .

فعل الحكيم ذلك فى الكثير من نصوص هذه المرحلة المبكرة من حياته المسرحية وذلك من خلال هذا التفاعل النصوى المتماهى مع التراث الشعبى الذى لا يلبث أن يتجاوزه - بعد ذلك - إلى أنماط أخرى من التناس فى نصوص مسرحية لاحقة ، لا يتماهى فيها على هذا النحو المباشر التركيبى والدلالى ، إلى حيث أنماط أخرى من التناس يتعدى فيها مرحلته التناسية المبكرة التى كان يقوم فيها على إعادة إنتاج النص الشعبى مسرحياً ، ومحاكاته بنائياً ووظيفياً إلى مرحلة تناسية أكثر فاعلية وديناميكية إثر تنامى وعيه الفنى والنقدى بالنص الشعبى ، فشرح عندئذ يتعالق معه ، معارضاً له أو متنافساً معه ، أو حتى متماثلاً

---

(١) فى هذه السنة نفسها اضطر عبد الناصر إلى إعلان دستور " مؤقت " للبلاد ، ودعا الشعب المصرى للاستفتاء عليه وعلى اختياره رئيساً للجمهورية ، لكن ما لبثت أن وقعت حرب ١٩٥٦ بآثارها العسكرية والسياسية المعروفة .

معه ، ولكن بطبيعة مغايرة وروح مفارقة ، ووعى عميق بطبيعة المادة الفولكلورية وأساليب استلهاها ، استيعاباً وتحويلاً ، وطرائق توظيفها أو الإفادة من وظائفها الجمعية فى إنتاج نصوص إبداعية جديدة ، منتجة لدلالات عصرية فى تفاعل نصى إيجابى مبدع .

### التمط الثانى : مسرحية مجلس العدل ونط التوالد النصى :

نط التوالد النصى Hypertextualite أو النصية المتفرعة<sup>(١)</sup> أو الاتساعية النصية<sup>(٢)</sup> (على اختلاف فى الترجمة العربية ) هو النمط الرابع الذى اهتم به مباشرة جيار جينيت فى مشروعه النقدى فى ( أطراس ) ويقصد به كل علاقة تجمع أو توحد نصاً لاحقاً (ب) « يسميه النص المتسع أو المتفرع أو المتوالد » بنص سابق عليه (أ) « يسميه النص الأصلى أو المنحسر » والنص المتسع ينشأ أظفاره فى النص المنحسر « دون أن تكون العلاقة بينهما ضرباً من الشرح » ، ويؤدى هذا إلى مصطلح مرتبط بعملية ينعتها جينيت مؤقتاً بـ " التحويل " transformation إذ تستحضر (ب) العنصر (أ) بظهور أقل أو أكثر دون التحدث ، ببساطة إنه إنجاز يتطلب إنجازاً سابقاً .

وهو ما فعله الحكيم تماماً فى مسرحية " مجلس العدل " وهى مسرحية من فصل واحد<sup>(٣)</sup> ونشرها - أول مرة - فى جريدة الأهرام فى ١٢/٦/١٩٧٠ ، وأعاد نشرها مع مسرحيتين أخريين ، من فصل واحد أيضاً ، وأعطى المجموعة كلها اسم مجلس العدل لما بينها جميعاً من تناص - على المستوى الذاتى - كاشف عن خلفية نصية مشتركة ، أو موضوع مشترك ، يتأكد فيه موقف الحكيم من سيادة القانون وطلب العدل والسلام قومياً وعالمياً وإنسانياً .

وهذه المسرحية تولدت عن نص شعبى ، وتفرعت عنه ، وتأسست عليه بشكل ظاهر ، وإن لم يشر الحكيم إلى ذلك إلا إشارة عامة أو بالأحرى مجرد (إحالة تذكرة على حد تعبير حازم القرطاجنى ) بأنها تذكوه بحكاية شعبية ( لم يصرح بها أو بأصلها ) كان قد استمع إليها فى صباه إذ يقول فى أولى عتبات النص :

(١) كما ورد فى ترجمة المختار الحسينى فى ترجمته للفصل الأول من كتاب أطراس ( طروس ) انظر مجلة علامات ص . ١٨٥ ج ٢٤ ، م ٦ ، يونيو ١٩٩٧ .

(٢) كما ورد فى ترجمة محمد خير القناعى للصفحات من ١-١٦ من كتاب طروس ( أطراس ) انظر : مجلة علامات ص ١٤١ ، ج ٢٥ ، م ٦ ، سبتمبر ١٩٩٧ .

(٣) انظر : نص المسرحية : مجلس العدل ، ص ٩٩ - ٤٦ - مكتبة الآداب - القاهرة ١٩٧٢ .

" هذه المسرحية تقوم على حكاية شعبية سمعتها فى الصبا ، ولا أظن أنها مكتوبة فى كتاب ، ولكنها قد تكون من الحكايات التى قام شعبنا بتأليفها فى وقت ما ، لست أدرى تحت أى ظروف ، وقامت بنشرها الأفواه بعدئذ فى كل مكان ... إنها قصة فران نشأت بينه يوماً وبين قاضى المدينة صداقة مصلحة ... وإليك ما حدث ... " (١) .

ومثل هذا الاستهلال أو عتبة الدخول قد أدت وظائفها بنجاح ؛ إذ فتحت بداية الحكاية وبوابة الحاضر معاً ، باستخدام الزمن الحكائى الماضى والزمن المسرحى الحاضر من ناحية ، كما أشارت - من ناحية أخرى - إلى أن نص المسرحية قد اعتمد على نص شعبى وتعالىق معه فى علاقة تناسية مباشرة ، ولكن من غير أن يشير الحكيم إلى مصدر هذه الحكاية الشعبية تحديداً . ومن غير أن نسأله عن نواياه ، فإنه من السهل الكشف عن منابعها الحقيقية ، فإذا هى نص ينتمى إلى غط أو شكل معين من الحكايات الشعبية ، هو الحكايات المرحية التى تعرف فى التراث العربى باسم النوادر وقد استعارها تحديداً من نوادر جحا العربى التى يرددها الشعب على لسانه فى مجال النقد السياسى الساخر للسلطة ولرجال القضاء المتواطئين معها ، ومن المعروف أن الوجدان الشعبى شاء لجحا أن يتولى القضاء أحياناً حتى يتسنى له تحقيق العدالة المنشودة ، كما شاء أن يجعل منه - أحياناً أخرى - متهماً أو متقاضياً ، إذا أراد أن يكشف زيف القضاء وفساد ضمائر القائمين عليه ، حتى يتسنى للضمير الجمعى أن يفضح تواطؤهم عندما يصبح الجانبي ضحية والضحية جانيًا ، والمظلوم ظالمًا والظالم مظلومًا ، وعندئذ تكون النتيجة لا أمل فى حق أو عدل أو سلام (٢) .

هذه الحكاية الجحوية الأساس ( ذات الكفاءة الإشارية العالية ) التى تعالق معها نص الحكاية تعالقًا شبه كامل هى حكاية " الوالى كميث والفران " . ومجمل هذه الحكاية - على طولها - أن واليًا ظالمًا يدعى كميثا ( لاحظ دلالة الاسم وتصغيره ) اشتهم يومًا رائحة شواء أوزة سمينية تنبعث من قرن قريب ، فسأل لعبه ، وأراد اغتصابها لنفسه ، ولم يستطع الفران

(١) مجلس العدل ، ص ٩ .

(٢) انظر : محمد رجب النجار ، جحا العربى ، شخصيته وفلسفته فى الحياة والتعبير ، الفصل الخاص بنوادر جحا والسلطة ، ص ١١-١٥٦ ، الطبعة الثانية ، ذات السلاسل ، الكويت ١٩٨٩ .



له رفضاً ، ولكن كيف أن يتصرف مع صاحبها الحقيقي ، فأمره الوالى أن يخبره أن الإوزة قد طارت بعد الشواء ، فإن لم يقتنع فلا شك - يقول الوالى - إنكما ستحتكما إلى وأنا الكفيل بتأديبه ، وعندما حضر صاحبها أخبره بأن أوزته قد طارت ، فلم يصدق الرجل ، واعتقد أن الأمر لا يعدو كونه مزاحاً سخيلاً ، إذ ليس من المعقول أن تطير أوزة بعد ذبحها وشيها ، وإذا الأمر عين الجذ ، فاشتد غضب المسكين ودب بينه وبين الفرن عراك طويل .

اجتمع على إثره قوم كثيرون من كل حذب وصوب ، وثاروا عليه ، واتهموا الفرن باغتصاب الإوزة لنفسه ، ومن ثم ضيقوا عليه الخناق ، واشتدت ثورتهم عليه ، فخشى سوء العاقبة واندفع هرباً بحياته كالمجنون . لكّم أقرب الناس إليه لكّمة قوية أطارت إحدى أسنانه ، فازدادت ثورة الناس عليه . دفعه حب الحياة إلى الاستماتة فى طلب النجاة ، فانطلق كالسهم الماروق هارباً إلى مسجد قريب ، وصعد مئذنته العالية ، فحاصره الناس حتى كادوا يتبصرون عليه ، فألقى بنفسه من فوق المئذنة ، لكنه لم يمت ، فقد سقط على أحد الشائرين فصاته ونجا هو . وبينما هو يجرى هارباً اعترضت طريقه امرأة حامل مع زوجها ، فركلها بقدمه فى بطنها حتى تفسح له الطريق فأسقط حملها ، فتضاعف سخط الناس عليه . هرب إلى دكان جزار ، حاول الجزار أن يقبض عليه ، فعاجلته لكّمة قوية من الفرن ، ذهبت بإحدى عينيه . أدرك الفرن هول ما ينتظره من مصير فبادر بالتقاط مدية الجزار ، ولوح بها متظهراً بالجنون ، كان حمار جحاً قريباً منه ، فأهوى بمديته عليه - مهدداً - فبتورقه بلفه وقر هارباً إلى دار الوالى والناس تلاحقه .

استقر الجميع فى دار الوالى الذى تظاهر بالدهشة وادعى عدم معرفته السابقة بالفرن ، فلما استمع للقصة كانت أولى المفاجآت المأكرة - وما أكثرها - حين استنكر موقف صاحب الإوزة ، لا موقف الفرن ، وأعلن تصديقه لزعم الفرن إن الإوزة " طارت " بعد شوائها ، بل إن فى ذلك دلالة واضحة على إعجاز الخالق سبحانه وتعالى ، لا ينكرها إلا الكافرون ... فهل ينكر أحد أن الله عز وجل قادر على أن يحيى العظام وهى رميم " فكيف ينكر صاحب الإوزة هذه القدرة الإلهية إلا أن يكون كافراً ؟ فاعترض صاحب الإوزة على هذا المنطق الغريب ، مستنكراً موقف الوالى وميله عن الحق ... فليس المقام مقام إثبات القدرة الإلهية ... فما كان من الوالى إلا أن اتهمه بالكفر والإلحاد ، وحكم عليه بغرامة قدرها عشرة دنانير ، جزاءً له على مكابرتة فى القدرة الإلهية التى ليست هى موضوع الدعوى أصلاً !! ولكنه الميل عن الحق وتزييف القانون باسم القانون .

والتفت الوالى إلى الخصم الثانى ، وعرف قصته ... وبدلاً من أن يحكم على الجانى / الفران ، أدان الخصم / الضحية ، ولامه على تطفله وقضوله وتدخله فيما لا يعنيه ، ومع ذلك ، وحتى تأخذ العدالة مجراها ، طلب إليه أن يضرب الفران لكمة واحدة ، شريطة أن يُسقط سنًا مماثلة تماماً لتلك التى أسقطها الفران له ، وإلا فالويل له !! ... وبالطبع كان مثل هذا الشرط المعجز أو الجائر وغير الواقعى حائلاً دون تطبيق القانون ، عندئذ أدرك الرجل / الضحية مدى تحامل الوالى ، وعبثاً حاول استرداد حقه فتنازل عن حقه ، وقد يش من إقامة العدل . لكن الوالى رفض أن يتنازل عن حق القضاء ، وحكم عليه بغرامة قدرها عشرة دنانير !! .

وجاء دور الخصم الثالث ، وعرف الوالى قصته ، وبدلاً من أن ينصفه - كما تقتضى العدالة الحقيقية لا الزائفة ، ألقى باللوم على القتيل ، إذ لما كان عليه أن يمر فى هذه اللحظة - بالذات - من تحت هذه المشنة - بالذات - والمدينة ملأى بالمآذن !! وبالرغم من هذا الخطأ القادح فإنه ينبغي للعدالة أن تأخذ مجراها ، ولن يكون ذلك إلا إذا صعد أخو القتيل إلى هذه المشنة العالية نفسها ، وأن يمر الفران تحتها ، وعندئذ يلقى بنفسه عليه ، فيصرعه كما صرع أخاه ... وإلا فسوف يلقى حتفه فأيقن الخصم / الضحية من مغالطة الوالى وحكمه الجائر ، فيئس من تحقيق العدل وتنازل عن حقه مرغماً ... ولكن الوالى لم يتنازل عن حق القضاء ، فأمر بتفريعه عشرة دنانير لأنه لم ينفذ أمر العدالة ! .

ثم جاء دور الخصم الرابع ، الزوج والزوجة التى أجهضها الفران ... وبعد غمز ولمز فى حقيقة الجنين وشرعية نسبه ، ألقى الوالى باللوم على هذا الزوج الذى اختار لزوجته مسكناً فى هذا المكان بالذات ، كما ألقى أيضاً بمسئولية الإجهاض على المرأة نفسها ، إذ كيف لها أن تخرج فى مثل هذه الساعة بالذات وأن تسير فى مثل هذه الطريق بالذات - وطرق المدينة كثيرة - خاصة أنها تعلم أنها ضيقة ، وبذلك كادت تحول بين الفران والهرب من أمام هذه "الوحوش" الضارية التى تلاحقه بلا وجه حق !! ومع ذلك فلا بد للعدالة أن تأخذ مجراها ... ولن يكون ذلك إلا إذا قام الفران الذى أفرغ ما فى بطنها بإعادة ملئها بحمل جديد !! فكان أن بهت زوجها ، وأسقط فى يد المرأة التى بادرت بالتنازل عن حقها ... وكالعادة . لم يعجب هذا التنازل الوالى ، فحكم عليها بالغرامة لأنها - بهذا التنازل - تعصى أوامر الوالى الشريفة ، ولا تأبه بحكم القضاء .

وجاء دور الخصم الخامس .... وكان هذه المرة جحا وحماره ... وقد أدرك ما بين الوالى والفران من تواطؤ ... وهاله ما رأى من حيف وجور ... وأيقن أن لا أمل فى عدالة حقيقية تأخذ له بحقه المغتصب مع مثل هذا الوالى الجائر الذى يحابى الظالم على حساب المظلوم . وعندئذ أثر - جحا - أن ينسحب ، قانعاً من الغنيمة بالإياب " وعرضه على الله " ثم أين له بعشرة دنانير غرامة مقابل ذيل حماره ... والحمار نفسه لا يساوى نصف هذا الثمن ! فكان أن توجه بحماره خارجاً من المحكمة ، وهو لا يصدق النجاة من شر هذا الطاغية الذى لا عدل - فى محكمته - ولا إنصاف . غير أن الوالى سرعان ما لمحده يسوق حماره خارجاً ، فأدركه ، وناداه ، وطلب منه أن يعرض شكاته ، فأنكر جحا أن لاشكاة لديه ولا يحزنون ، ولكن الفران أشار إلى ذيل الحمار المقطوع ، فسأله الوالى عن سبب ذلك ، فادعى جحا أن الله سبحانه وتعالى قد خلقه هكذا بلا ذيل ولا عقل أيضاً ... ولكن الوالى الذى يعرف الحقيقة رفض مثل هذا التبرير ، متهماً جحا بالكذب ، فشرع يجادله حتى يوقع به فى شباك القانون ، ويدفع الغرامة المقررة ، كما دفعها سابقوه ، وهم صاغرون ، وراح ينكر أن يكون الله - عز وجل - قد خلق الحمار على هذا النحو الأبر ... عندئذ بادر جحا فجابه الوالى بمثل منطقته (الصورى) قائلاً له : يا سيدى الوالى ، هكذا خلق الله حمارى ! فهل تنكر قدرة الخالق ؟ هل تكابر أيها الوالى ؟ ألم تظر الإوزة بعد الشواء ... ؟ فبهت الوالى وأسقط فى يده وعجز عن الرد<sup>(١)</sup> أمام المنطق الجحوى الفاضح .

إن هذه النادرة - شأنها شأن نوادر جحا فى مجال السياسة والأمن والقضاء التى قالها الشعب على لسان جحاه إنما تنتهى دائماً بانتصار جحا - بما عرف عنه من ذكاء لمّاح وسخريّة لاذعة - على أى حاكم جائر أو وال ظالم أو قاض لا ضمير له ، ممن يتلاعبون باسم القانون (الوضعى أو الشرعى ، المحلى أو الدولى ) وصنيع النوادر الشعبية المرحّة ، لا يأتى انتصافاً لجحا - ذلك الرمز الشعبى الأشهر فى الفكاهة العربية - فحسب ، بل يأتى أيضاً انتصاراً لقيم العدالة والحق والقانون التى يؤمن بها الوجدان الشعبى ، ويتشدها الضمير الجمعى ، وأن صنيعه فى كشف هذه الأفتنة المزيفة غايته الثأر<sup>(٢)</sup> عن طريق السخرية من ظالميه ، وتحقيق

(١) انظر نص الحكاية كاملاً فى كتاب : جحا العربى وفلسفته فى الحياة والتعبير ص ١٣٦ - ١٣٨

ومرجع سابق .

العدل والسلام ، كما يحلم بها المجتمع الشعبى خاصة فى فترات القهر والضعف . وهذه الوظيفة الانتقامية أو التعويضية أو الأخلاقية<sup>(١)</sup> هى إحدى أهم وظائف الحكاية المرحية أو الساخرة ( حيث السخرية الشعبية سلاح من لا سلاح له ) وتلك هى طبيعة الخطاب الجحوى الذائع فى التراث الشعبى العربى .

وإذا كنت قد حرصت على تقديم ملخص وانٍ لهذه النادرة الجحوية ، بكل عناصرها أو وحداتها السردية المكررة أو التكرارية ذات الوظيفة التأكيدية للذات التآمرية ، تأكيداً لحيف القاضى وميله عن الحق المبين ... فإنما لكى أوضح إلى أى مدى استحضر الحكيم هذه النادرة أو استدعاها من ذاكرته النصية ، باعتبارها النص المولد الذى تفرعت عنه مسرحيته مجلس العدل تولدًا أو تفرعًا شبه كامل للحكاية / الأصل ، من حيث البناء والأحداث والشخصيات ، إلى حد التماثل ، ولا أقول التطابق ، أو إلى حد التماهى شبه الكامل تقريباً فى وحداتها أو عناصرها السردية التكرارية ، بنائياً ووظيفياً<sup>(٢)</sup> ، باستثناء عنصر واحد فقط قبيل النهاية ، إذ جعل جحا ينهزم لأول مرة وهو أمر لا يخلو من دلالة عميقة المفزى .

لقد كان تفاعل النص الحكائى أكثر ظهوراً ووضوحاً ، وتكثيفاً فى نص الحكيم ، لدرجة أنه لا معنى هنا لتلخيصه أو التعريف به دون أن تقع فى براثن التكرار الملل ، لتماثل النصين الشعبى والمسرحى على المستوى التركيبى والدلالى تقريباً .

بل إنه لولا وجود النص الحكائى الجحوى سابقاً ما كان النص المسرحى (مجلس العدل ) لاحقاً ، مما يعنى أن هذا النص قد ولد شرعياً من رحم الحكاية الشعبية ، ولم يستطع أن يتخلص من جيناتها الوراثة إلا فى جين واحد يحمل بصمة الحكيم الوراثة . وصنيع الحكيم

(١) يقصد بالوظيفة الأخلاقية القواعد الخلقية التى تدعو الحكاية الشعبية إلى الالتزام بها ، والسمى إلى ترسيخها فى المجتمع على نحو ما تؤمن به الثقافة الشعبية ، وهى قواعد تنبع أساساً من إحساس فطرى بالأخلاقى واللا أخلاقى ، وحتمية الثواب والعقاب ، والانتصار لكل ما هو أخلاقى ومشالى ، ومعاقبة كل ما هو لا أخلاقى ، إنها حتمية انتصار الخير على الشر التى يؤمن بها الضمير الجمعى ويردها فى مروياته الشعبية حتى يستقيم العالم ( ولو كان عالم المتخيل الحكائى الذى قد يتعارض عادة مع عالم الواقع ) .

(٢) حول آليات الحكاية الشعبية المرحية أو الساخرة ، من حيث البنية والوظائف ، انظر جحا العربى ، مرجع سابق ص ٢٤١ - ٢٦٠ .

هنا ليس إلا تحويلاً مباشراً للحكاية الشعبية من حديث يروى إلى حدث يشاهد ، أى تحويله من نص سردي إلى نص درامى (مسرحى) من دون الإخلال بآلية الحكاية الشعبية ( من حيث بساطة البناء والحدث ، دون التقيد بمكان أو زمان ، والتكرارية التأكيديّة ، ومطية الشخص وعدم إعطائها أسماء ... إلخ ) إلا من خلال ما قام به الحكيم من تمطيط أو تطويل لوقائع الحكاية أثناء مسرحيتها تطويلاً يحمل حواراً مفعماً بالسخرية والكوميديا ، أو من خلال عملية تحويلية بسيطة ومباشرة ، تجلت - اتساقاً مع رؤيته المغايرة لحقيقة الحكاية - فى بعض العلاقات (الاستبدالية) التالية ، من بعد أن ظل يحتشد لها - طبقاً لرؤيته - بقرائن كثيرة تؤكد التماهى شبه الكامل مع النص الشعبى وتشير إلى التعالق الاستبدالى معه على النحو التالى :

\* استبدل الحكيم العنوان الجديد ( مجلس العدل ) بالعنوان القديم للحكاية ( وهو الوالى كمش والفران ) باعتباره - العنوان - دالاً إشارياً جديداً على مغايرة الوظيفة للنص المسرحى ، كما سنرى وشيكاً .

\* استبدل أيضاً شخصية القاضى بالوالى كمش ، دون أدنى تغيير فى الوظيفة أو الدور أو حتى فى الفعل الكوميدي الذى يلعبه كل منهما ، وكلاهما فى أحكامه يتوسل بمنطق خال من كل منطق ، منتهكاً كل الأعراف القانونية ، الوضعية والشرعية . إنه هنا لا معقولة السلوك غير السوى الذى يولد الكوميديا أو الإضحاح فى كل من الحكاية والمسرحية ، وربما كان السبب وراء هذا التغيير أو التبديل بين الشخصيتين يكمن فى أن الحكيم يقرأ النادرة الجحوية من موقع زمنى ( تاريخى آخر ) اختفت فيه شخصية الوالى ، وتأكدت شخصية القاضى باعتباره هنا رمزاً للسلطة أو القوة القائمة باسم القانون ، وتحت إطار شرعية مزيفة ، محلية أو دولية .

غير أن عودة عجلى إلى كل من النصين الشعبى والمسرحى يتبين أنهما ينسجان سياقاً واحداً تتضافر مكوناته البنائية والدلالية معاً ، بدءاً من الجذر الدلالى المشترك ، ووصولاً إلى نهاية كل من النصين . وهذا السياق تحكمه علاقة مرجعية خاصة ذات مستويين :

الأول : المستوى الحكائى القديم ، أو مستوى التخيل السردى الذى يزعم الحكيم أنه لا يدرى عن نشأته الحكيم " تحت أى ظروف وفى أى عصر كان إبداعه كما يقول .

الثانى : المستوى المعاصر ، أو مستوى النص المسرحى حيث يبدو الواقع الراهن ماثلاً فى معطياته السياسية المعاصرة ( للسياق الدلالى الذى ظلت الحكاية الشعبية تتردد فيه ) .

وقد ظل هذان المستويان يتنازعان مبنى المسرحية ودلالاتها ، ولكنهما يبدانها بقوة إبداعية جديدة وفاعلة ، إلى الحد الذى نسينا معه الأصل الشعبى ، حتى أن أحداً من النقاد لم يفكر فى أن يسأل نفسه عن حقيقة هذا النص الشعبى وأصوله ، بما هو مصدر هذه المسرحية التى اعترف الحكيم أنه قد استلهمها وتعالق معها .

\* استبدل الحكيم أيضاً شخصية الفلاح بشخصية جحا بطل الحكاية الأساسى ( والإطار المرجعى الساخر الذى يمثل صوت المجتمع أو ضمير الجماعة الشعبية ) وهى كما نعرف شخصية معروفة بذكائها الغلاب ، وسخريتها اللاذعة ، وقدرتها على الانتصاف والانتصار لذاتها ( الجمعية ) فضلاً عن أبعادها أو دلالاتها التراثية المتوارثة والمختزنة فى الوجدان الجمعى ، برموزها التى اكتسبتها نوعاً من الثبات الرمضى ، ولولا هذا الاستبدال ما استطاع الحكيم أن يغير من نهاية المسرحية إلا باستبدال شخصية الفلاح البسيط بشخصية جحا الذى لا يستسلم للهزيمة أو هكذا أراد له الشعب ، ومثل هذا الاستبدال كان ضرورياً حتى يتفق رؤيته الجديدة والمغايرة فى نصه الإبداعى الجديد .

\* جعل الحكيم الفران يشارك القاضى مناصفة فى اغتصاب الإوزة ، فضلاً عن اقتسام الغرامات المالية بينهما إلى جنب صرف مكافأة خاصة له مغيراً بذلك النص الجحوى الذى استأثر فيه الوالى باغتصاب الإوزة لنفسه . ولم يأت هذا التغيير عبثاً بل جاء اتساقاً مع رؤية الحكيم الجديدة ، حيث المصالح المشتركة هى التى تحكم العالم وليس القانون كما هو مفترض .

\* قام الحكيم بتغيير طفيف ولكنه متعدد ، وذلك بإضافة جملة حوارية واحدة فقط مشبعة بروح السخرية ، جاءت بمثابة عنصر حكاى إضافى واحد يفاير عنصر النهاية التقليدية للحكاية الشعبية التى انتصرت لجحائها ، وانتصفت له من هذا الوالى أو القاضى أو السلطان الظالم الذى يستغل القانون لتحقيق مآربه الشخصية ، ومصالحه الذاتية ، لا للحكم بالعدل والإنصاف بين الناس ، ذلك أنه فى ضوء الأحكام التعسفية ، وغير المنطقية للقاضى يحاول الشاكون - دون جدوى - الانسحاب متنازلين عن حقوقهم ( الضائعة ) يائسين من تحقيق العدل ، بمن فيهم الفلاح ( رمز الشعب ) الذى لا يتقدم عندئذ بشكواه ، متنازلاً عن حقه مادام لن يناله أصلاً ، فما جدوى الشكوى إذن ، وآثر الانسحاب ؛ برغم سلبية موقفه الدال .

ولكن الفران الحبيث يشير للقاضى من وراء القضبان إلى الفلاح قبل أن يخرج من باب المحكمة ، فيبادر القاضى إلى استدعائه ، وهو يسأل الفران عن شأنه ، فيقول :

الفران : يقول إنه كان وسط الناس راكبًا حماره ، وتشبث به إلى أن انخلع فى يدي ، وصار أزعر .

القاضى : (ينادى الفلاح) : تعال يا رجل هنا ... مال الذى حدث ؟

الفلاح : لم يحدث شيء .

القاضى : عجيبة ! ألم يمسك هذا الفران بذيل حمارك .

الفلاح : أهدأ .

القاضى : أليس حمارك أزعر ؟

الفلاح : خلقة ربه

القاضى : من يوم ولادته ؟

الفلاح : طول عمره بلا ذيل .

القاضى : وكيف ينش الذباب عنه ؟

الفلاح : أنا أنش له .

القاضى : ولما لا تركب له بدل الذيل منشة ؟

الفلاح : فكرة

القاضى : أنت رجل كذاب .

الفلاح : أنا يا جناب القاضى ؟

القاضى : أيجاد يا رجل حمار يولد أزعر ؟

الفلاح : رينا قادر على كل شيء

القاضى : أسمعت أنه يخلق الحمار بلا ذيل ؟

الفلاح : كما سمعت أنه يجعل الأوزة المحمرة تطير من الفرن !

القاضى	معقول . أقنعتنى ، لعنة الله عليك . إذن ليس لك شكوى ضد الفران ؟
الفلاح	لا ، أبداً ... لا سمح الله .
القاضى	وماذا جئت تفعل هنا إذن ؟
الفلاح	أتفرج
القاضى	تتفرج ؟ تتفرج على ماذا ؟
الفلاح	على الجلسة .
القاضى	قالوا لك إن العدالة فرجة ؟ وفرجة بالمجان ! حكمت عليك بجنيه غرامة !
الفلاح	بشكوى أو من غير شكوى : العدل ملاحق الجميع ! (١) .

وهذا يعنى - على مستوى التعالق النصى - أن الحكيم لم يحاول تدمير المبنى الحكائى للنص الشعبى ، بل أبقى عليه - متناً ومبنى - استدراجاً للقارئ أو المشاهد طبقاً لأفق التوقع لديه حتى نهاية النص ، وعندئذ قام الحكيم بعملية اختراق دلالى مفاجىء لهذا الأفق ؛ فكان مثل هذا التغيير الطارئ على الحكاية بمثابة إدخال جسم غريب عليها . وكان أن شكل هذا الاختراق المفاجىء - فى اللحظة الأخيرة من ختام النص - تغييراً أو تحويلاً جذرياً بالغ التأثير ، فى خلخلة البنية الوظيفية أو الدلالية للحكاية التى يعرفها المجتمع الشعبى ، والتى تتجلى فى عنصر الانتصار للنموذج الجحوى ، الذى تحول هنا إلى عنصر هزيمة .

وما كان الحكيم بمقدوره أن يغير أفق التوقع لدى المتلقى حول شخصية جحا فى هذه النادرة ، باعتباره يمثل الشعب / المتلقى أصلاً ، فكان أن استبدل به شخصية عامة هى شخصية الفلاح ( باعتباره يمثل شخصية الشعب النمطية ) حتى تسهل هزمته ، أو على الأقل يتقبلها المتلقى ويتعاطف معها ، ومن ثم يتسنى للحكيم تغيير هذه النهاية التقليدية للحكاية ( المنتصرة للنموذج الجحوى ) ؛ فقد جعل الفلاح - رغم مقاومته - يسقط فى خداع القاضى ويراثن القانون ، ويقع عليه ظلم فادح ، أو بالأحرى يعمه الظلم إزاء عالم النص المسرحى الظالم الذى لا عدل فيه .



وهنا والآن - لحظة ختام المسرحية - يصبح نص الحكيم مفارقاً للنص الشعبى ( لأول مرة ) على النقيض من جحا الذى ينتصر على ظالميه ، على مستوى التخيل الحكائى المعروف فى النوادر الجحوية ، ومن ثم فإن وظيفته فى الحكاية هى كشف أقنعة التزييف التى يرتديها القاضى والقائمون على مجلس العدل وتحقيق العدالة واستعادة الحقوق المقتصبة لأهلها . ومن هنا نفهم لماذا استبدل الحكيم الفلاح بجحا الذى كان يسخر من والى بالنيابة عنا ويتنصر لنا بسخريته اللاذعة من كل طاغية ، ومن ثم جعل شخصية الفلاح تبدو هنا ضعيفة مستسلمة لا حول لها ولا طول ، وليس بمقدوره أن ينجو من برائن القاضى الظالم أو أن يستعيد حقوقه المقتصبة .

وهكذا تضافرت هذه المستويات لتأسيس حقل دلالى خصب ومغاير ، على مستوى الواقع لا التخيل الحكائى - يشير أنه لا عدل فى مجلس العدل وهنا تكمن سييمولوجيا العنوان .

إن النهاية المسرحية هنا جاءت رسداً وتأكيداً وتسجيلاً لواقع سياسى فاجع فى وقتنا الراهن ، ( على المستوى الدولى خاصة ) ولم تأت قناعاً أو تعريضاً أو تصويراً لما ينبغى أن يكون عليه العالم ، كما هو الشأن فى الحكاية برغم اتفاقهما فى الوظيفة ، بما هى كشف زيف القانون والروح التآمرية وتبرير منطق العدوان والاعتصاب باسم القانون ، حين يتواطأ القائمون عليه ، وحين تساندتهم قوة غاشمة كبرى ، وهو أمر من شأنه إعلاء وعى القارىء المعاصر ، وتحريضه - فى رأى الحكيم - عندما يتكشف له الواقع على حقيقته بكل عوراته وفساده ، على النقيض من النص الفولكلورى الذى اكتفى بتفريغ الشحنة الانفعالية المكبوتة - ضد الفساد والظلم - من خلال انتصار وهمى أو التخيل فى النص الجحوى - تحقيقاً لوظائفه التعويضية ، كما هو شأن القناع الجحوى دائماً ، وإن كان حلاً هروبياً ( فالسخرية هنا تقييع للموقف ، دون اتخاذ خطوة إيجابية لمواجهة الثورة عليه ) .

ويمثل هذه النهاية المأساوية - هزيمة الفلاح أو النموذج الجحوى ، سيان - استطاع الحكيم أن يجعل من نصه المسرحى نصاً مفتوحاً ، فهو لم يعلق نهايتها أمام التأويل برؤية أحادية مغلقة ، وإن ما ترك المجال مفتوحاً يتفاعل مع قارئه النموذج الذى تقع عليه - عندئذ - تبعه إكمال الخطاب / النص المسرحى ، وإعادة إنتاجه والإسهام فيه ، وهذا هو معنى أن يبقى المجرمون ، مجرمو القانون والسلطة طليقى الأيدي ، يكررون فعلتهم دون رادع من ضمير أو

قانون ، على التقيض من نهاية النادرة المحوية التى انتهت نهاية مغلقة ، أحادية التفسير بالانتصار له ( الانتصار السلبي من وجهة نظرنا ) على نحو ما ذكرنا من قبل .

وهكذا تحول نص الحكيم الذى انطلق من النص الحكائى إلى نص مفارق أو معارض له فى الوقت نفسه ، وتكرست بذلك وظيفة المغايرة التى قامت بها عملية التحويل المباشر والبسيط ، كما تجلت ليس فى العلاقات الاستبدالية السابقة فحسب ، وإنما فى أبرز تجلياتها التى تمثلت فى استبدال النهاية السلبية فى المسرحية بالنهاية الإيجابية فى الحكاية ، مما أفضى إلى فعل المغايرة الدلالية ، وعلى نحو يكرس وظيفة المعارضة بين النصين .

وتتجلى هذه الرؤية - على مستوى التناص الخارجى - كما كشف عنها الحكيم فى عتبة المسرحية حين قال : إن هذه المحكمة تذكرنا ببعض المجالس الدولية المعاصرة<sup>(١)</sup> وبذلك استحضّر الحكيم الحاضر فى مسرحيته ، لا الماضى الذى وقفت عنده الحكاية الشعبية عندما قام باستحضارها لحظة تخلق أو تشكيل المسرحية ... وهو ما كشف عنه الحكيم أيضاً فى عتبة النهاية ( وكلتا العتبتين هنا من النصوص المصاحبة ) حين قال إن هذه المسرحية .. "تحمل معنى واحداً هو طلب العدل والسلام"<sup>(٢)</sup> على المستوى الدولى . إن مثل هذه العتبات والمضامين النصية تحيلنا فوراً - على مستوى التناص الخارجى - إلى واقع حى عقب هزيمة العرب المروعة فى عام ١٩٦٧ ، وغياب العدل والسلام عن قرارات مجلس الأمن الدولى التى هيمنت عليها الولايات المتحدة والدول الاستعمارية الكبرى ظلماً وعدواناً ، وصاغتها على النحو الذى ترتضية إسرائيل المعتدية ، تواطؤاً معها ، وحرصاً على مصالحها فى المنطقة ، وهى كما نعلم قرارات مجحفة بحق العرب تماماً ، ومشجعة فى الوقت نفسه لإسرائيل على اغتصاب أراض عربية جديدة ، وطارت فلسطين نفسها ( الإوزة السمينة ) ، ولم تكتف أمريكا بذلك بل قلبت الموازين الدولية فى الصراع العربى الإسرائيلى رأساً على عقب - دون أن يستطيع أحد الوقوف فى وجهها - وتحول العرب الضحايا إلى معتدين وتحول المعتدون إلى ضحايا ، وبات الغاصب مقتصباً والمغتصب غاصباً ، وباسم القانون ، وتحبّ سمع وبصر الأمم المتحدة ، بمجلسيها ، مجلس الأمن ومجلس العدل معاً ..

(١) مسرحية مجلس العدل : ص ٩ .

(٢) نفسه ص ١٢٧ .

ذلك أن الولايات المتحدة التي قامت بدور القاضى كانت صاحبة مصلحة فى ترسيخ الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين وتكريسه ، وترى فى إسرائيل امتداداً لها ولمصالحها . وقد رمز الحكيم لإسرائيل بالفران الذى جعله الحكيم - اتساقاً مع رؤيته المعاصرة - متواطئاً مع القاضى منذ البداية - بل بمبادرة منه أساساً ، كما كشف الحوار الذى دار بينه وبين صاحب الإوزة الذى لا حول له ولا قوة ، عن أن الإوزة هنا ليست إلا رمزاً لفلسطين المغتصبة التى تواطأ الغرب والصهيونية العالمية معاً على اغتصابها ، وتسليمها إلى اليهود باسم حق تاريخى مزعوم ، سخر منه الحكيم حين جعل الفران هو الذى يطلب - تضليلاً - من صاحب الإوزة الحقيقى أن يثبت أمام عدالة المحكمة حقه التاريخى فى ملكية هذه الإوزة ، ودخل معه فى سفسطة قانونية إذ طالبه - بمساندة القاضى - بضرورة إثبات هذا الحق التاريخى كما هو معروف فى " تاريخ الإوز منذ كان بيضة " ، وأيهما كان أسبق : الإوزة أم البيضة ؟ إلى غير ذلك من مغالطات ، تحامل عبرها القاضى وأعلن بالباطل فشل صاحب الإوزة فى تقديم الدليل ، ومن ثم فهو المغتصب ، وشهد عندئذ للفران بأنه صاحب الحق التاريخى فى ملكية الإوزة لأنه كان صاحب الإوزة الأولى ( حواء الإوز ) ، وعلى نحو يذكركنا تماماً بما ادعته إسرائيل - بمساندة أمريكا - من مزاعم تاريخية موهلة فى القدم فى أرض فلسطين .

وعلى الرغم من أن الحكاية الشعبية الجحوية تتصف بكثير من التجريد الزمانى والمكانى ، باعتبارها إنسانية المضمون ، وعلى الرغم أيضاً من أن الحكيم حافظ على مكوناتها البنائية إلا أن الحوار الذى جاء به الحكيم كان مليئاً بالإيحاءات والدلالات المعاصرة<sup>(١)</sup> التى ترتبط ارتباطاً مباشراً بالواقع السياسى الراهن ( خارج النص ) عندما جعل الفران يصير بتحريض من القاضى نفسه على إثبات " وضعه الشرعى " وعندئذ بادر القاضى دون أن يأبه باعتراضات صاحب الإوزة الحقيقى ، وأصدر قراراً جائراً ومراوغاً ، منح بواسطته الفران حق الامتلاك الشرعى مادام هو صاحب الحق التاريخى فى امتلاك جنس الإوز ، بما فى ذلك الإوزة موضوع النزاع ، ( وعندئذ نتذكر فوراً ما ادعته إسرائيل من مزاعم فى اغتصاب فلسطين ، وكيف أن أمريكا التى استصدرت هذا القرار من مجلس الأمن ، كانت هى أول دولة فى العالم تعترف بالكيان الصهيونى الذى يعد سابقة فى تاريخ الأمم المتحدة ، باعتبارها أول دولة فى العالم

(١) انظر نص الحوار فى المسرحية ، ص ١٦ - ٢١ .

تولد بقرار<sup>(١)</sup>، تسانده قوة غاشمة ) وعلى الرغم من أن صاحب الإوزة هو المالك الحقيقي كما تعلم جميعاً ، إلا أنه عجز عن استعادة حقه المغتصب طبقاً لمنطق القوة والعدوان والاعتصاب . ومن ثم فلا عدل ولا سلام على حد تعبير الحكيم ، فى عالمنا المعاصر ( أى عدل نتوقع ، وأى ظلم يحدث ؟ كما يقول ) .

لم نشأ أن نقف هنا على التعالقات النصية الأخرى التى تتقاطع فى فضاء النص المسرحى، مثل التناص للفرى القائم بين لغة الحكاية الشعبية ، ومفرداتها وبين بساطة لغة المسرحية ووضوحها ، واستعاراتها لكثير من الأمثال الشعبية والعبارات الدارجة التى توحى بعبق لغة الناس ، النابعة من الروح الشعبية على حد تعبير الحكيم ، ومقدورنا أن نصادفها بكثرة بين طبقات النص المسرحى ، قابعة هناك لتضىء المشهد كله بدلالاتها وإيحاءاتها ووظائفها الجمعية . ولم نشأ أيضاً الوقوف على استعارة الحكيم لروح النكتة والفتازيا والفكاهة الشعبية الكامنة فى الحكاية بين سلوك القاضى المعرج وانحرافه عن جادة الصواب ومعايير العدل - باسم القانون - وهنا تكمن المفارقة المولدة للفعل الكوميدي عند الحكيم - بين المنطق

(١) - من الجدير بالذكر - غداة مأساة تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ تحت سمع وبصر الأمم المتحدة ومجلس الأمن ( بين العرب واليهود ) بزعم أن اليهود أصحاب حق تاريخى قديم فى فلسطين ، وعندئذ اعترض مندوب مصر الدائم فى الأمم المتحدة - عبد الرحمن باشا عزام إن لم تخنى الذاكرة - مستنكراً ذلك القرار الغاشم ومستشهداً فى الوقت نفسه بتنادرة جحوية من هذا القرار الباطل ، تسخر من هذا الموقف الجائر وتدينه فى الوقت نفسه ، حين قال من على منصة هيئة الأمم هذه المقولة الجحوية الدائنة " إذا كان هذا هو اللحم فأين القط ؟ وإذا كان هذا هو القط فأين اللحم ؟ معنى بذلك إذا كانت فلسطين وطناً لليهود كما تزعم إسرائيل والقوى المناصرة أو المتعصبة لها ، فأين وطن الفلسطينيين أنفسهم .

" مشيراً بذلك إلى النادرة الجحوية التى تأمرت فيها زوجته عليه بتحريض من عشيقها الذى استغل فى ذلك طيبة جحا وتسامحه ، فكان كلما أتى لها برطلين من اللحم طبختهما وأكلتهما مع عشيقها ، دون أن تتترك لزوجها شيئاً .. وكلما سأل جحا عن اللحم زعمت أن القط قد أكله ، وتكرر الأمر مراراً ، حتى ضاق جحا ذرعاً يكذبها المكشوف ، ويأمر إلى القيام بفضح أمرها وزيف خداعها ، وذلك عندما قام بوزن القط أمام عينيهما ، فوجد وزنه وطلين بالتمام والكمال ، وعندئذ قال لها عبارته المشلية المشهورة : إذا كان هذا هو اللحم فأين القط ؟ وإذا كان هو القط فأين اللحم ... يا فاجرة ؟ وهى معنى أن مثل هذا الزعم فى الحق التاريخى لليهود فى فلسطين يشبه زعم زوجة جحا وتأمرها عليه ، وكلاهما باطل ولكنه منطق القوة أو بالأحرى قانون الأقوياء على الضعفاء .

واللا منطق ، بين منطق القانون والعدل ولا منطق السيف والقوة ، أو بين الشرعية واللا شرعية ( فكلنا يعلم أن القاضى كان على خطأ ، وأن أفق التصوق عند المتلقى يتناقض حتمًا مع التزييفات التى ضحك عليها وسخر منها ) .

لم يكن نص الحكيم وحده هو الذى تعالق مع نوادر جحا ، بطابعها الكوميدي ، ورؤيتها النقدية الساخرة <sup>(١)</sup> ، بل سبقته إلى ذلك نصوص أخرى معاصرة توالدت أو تناسلت من المآثور الجحوى باعتباره مجالاً تناصياً فولكلورياً خصباً ... ومنها على مستوى الإبداع المسرحى والروائى مسرحية مسمار جحا لعلى أحمد باكثير ، وآلام جحا لمحمد فريد أبى حديد ... على سبيل المثال باعتبارها نصوصاً مماثلة دلاليًا على مستوى التناص الذاتى ، ولكن يبقى الحكيم متميزاً فى استلهامه الديناميكى للإبداع الشعبى ، بروح مغايرة ورؤية مفارقة ، ووعى معرفى ونقدى بطبيعة المادة الفولكلورية وطرائق استلهاها ، استيعاباً وتحويلاً ، منتجاً لدلالات جديدة فى تفاعل نصي مبدع ، وعلى نحو يؤكد أن انبهار الحكيم بالثقافة الغربية لم يحل دون استيعابه لتراثه القومى عامة والشعبى خاصة وعلى نحو يؤكد وعيه المبكر بضرورة استلهاهم الإبداع الشعبى العربى - جوهر الثقافة العربية - وتوظيفه فى خطابه المسرحى توظيفاً إيجابياً فاعلاً ، مؤكداً بذلك ريادة التاريخية والفنية فى هذا المجال ، من أجل بناء أفق جديد للأدب

---

(١) - من فضول القول أن نبادر هنا فنشير إجمالاً إلى أن الحكيم - إبان مرحلة التكوين الفولكلورى - مدين للفترة التى قضاه فى ريف مصر - تلميذاً واثناً - بحبه الشديد وإعجابه البالغ وتعاطفه المطلق مع " الحمار " الذى رأى فيه رمزاً للذكاء والصبر والكفاح والعمل فى صمت وإخلاص دون شكوى أو تذمر ، ولذلك كان الحكيم يتعجب من استهانة الناس بهذا المخلوق وإساءة معاملته وازدراؤه ، فضلاً عن اتهامهم له بالغياء بغير وجه حق . وأن هذا الإعجاب " الإنسانى " بالحمار ظل كامناً فى ذاكرته الفولكلورية أمداً طويلاً حتى تجلّى فى بعض إبداعاته الأدبية والفكرية فيما بعد ( أو فى اقتنائه لعدد من التماثيل النحاسية للحمار ، تصاحبه دائماً فى بيته وفى مكتبته فى الأهرام ) الأمر الذى يذكرنا فوراً ، وعلى نحو تناصى ، بصنيع الإبداع الشعبى مع الحمار حيث ارتقى به إلى درجة الكائن الإنسانى وذلك فى النوادر الجحوية المشهورة بين جحا وحماره ، وما كان بينهما من حواريات طريفة ( ما أكثرها عدداً وما أعتمها مغزى ) ومن المعروف أن الحمار فى النوادر الجحوية جاء رمزاً بالغ الدلالة فى نقد الهيئتين السياسية والاجتماعية ( انظر أيضاً بشأن العلاقة بين جحا وحماره وطبيعتها الرامزة : جحا العربى ، ص ٢٠٩ - ٢١٧ ، مرجع سابق ) تماماً كما فعل الحكيم فى بعض كتبه مثل : - حمارى قال لى ( ١٩٣٨ ) - رواية حمار الحكيم ( ١٩٤٠ ) - مسرحية الحميمير ( ١٩٧٥ ) .

العربى المسرحى ، على نحو يفصح - فى النهاية عن عمق العلاقة بين الأدبين المسرحى والشعبى عند الحكيم ، بما هى مدخل مهم لإدراك خصوصية الخطاب المسرحى العربى عامة ، ومنزلته بين سائر ضروب الخطاب المعرفى والأدبى المعاصر .

### النمط الثالث : السلطان الحائر وغط التناسل المضمر :

من المسلم به فى الدراسات النقدية المعاصرة أن كل نص ، نص جامع تقوم فى أحشائه نصوص أخرى فى مستويات متغيرة ، وأشكال تتعرفها إن قليلاً أو كثيراً : هى نصوص الثقافة السابقة ، ونصوص الثقافة الراهنة ، فكل نص نسيج طارف من شواهد تالدة " على حد تعبير رولان بارت<sup>(١)</sup> . وهو ما لا خلاف عليه منذ أن ظهرت نظرية التناسل عند جوليا كرسيفا ، ثم تطوير جيرار جينيت لها ، وإن ظل التناسل - بالمعنى الكرسيفي - حاضراً كما هو عند جينيت ، الذى قام بتعريفه تعريفاً مكثفاً " بحضور متزامن بين نصين أو عدة نصوص عن طريق الاستحضار " . والتناسل transtextualite - بهذا المعنى عند كليهما - ثلاثة أشكال يعنى منها الشكل الذى تطلق عليه جوليا كرسيفا مصطلح L'Allusion بمعنى الإلماع أو التلميح ( على خلاف فى الترجمة ) باعتباره ضرباً من التناسل أقل وضوحاً وأقل حرقية " لا يستطيع إلا الذكاء الحاد تقدير العلاقة بينه وبين ملفوظ آخر ، لما يلاحظه فيه من نزوع نحوه بشكل من الأشكال " <sup>(٢)</sup> وهذا هو ما أوجزناه فى كلمة مضمر ... والإلماع أو التلميح - فيما نراه - ضرب من التضمن ( بالمعنى الوارد تقريباً فى البلاغة العربية ) مغاير للاستشهاد أو الاقتباس ( بما هو بنية نصية مستقلة بذاتها ومتكاملة ، فلها بداية ونهاية <sup>(٣)</sup> ) بل يأتى النص السابق مندمجاً ضمن النص الجديد بحيث يصعب على القارئ غير المكون أن يتبين وجود التناسل أحياناً ، وإن كان بمقدور القارئ المتمرس الذى يمتلك كفاءة معرفية أو ثقافية عالية أن يكتشف النص الأسمى المدمج فى النص الجديد وأن يفرز العناصر الغائبة

(١) رولان بارت : نظرية النص ، ترجمة منجى الشملى وآخرين ، حويلات الجامعة التونسية ص ٨١ ع ١٩٨٨/٢٧ .

(٢) جيرار جينيت : أطراس ، الفصل الأول ، ترجمة المختار الحسينى ، مجلة علامات (جدة) ص ١٨٠ ج ٢٥ م ٧ سبتمبر ١٩٩٧ .

(٣) سعيد يقطين : افتتاح النص الروائى ، ص ١١٢ ، المركز الثقافى العربى ، بيروت ، ١٩٨٩ .

للنص ( والعناصر هنا قريبة من معناها الفولكلورى Motifs ) التى جاءت مدمجة ضمن البنية النصية الجديدة ، وتبدو وكأنها جزء منها ، لكنها تدخل معها فى علاقة تناسية مضرة.

ومن ثم فإن مفاصل التناص الأساسية هنا تبدو مجهولة ومضللة ، بسبب قصور الدراسات السابقة فى الوفوف عليها وتحديد نصوصها الأصلية التى تعالقت معها المسرحية ، بيد أن تعقباً دقيقاً لهذه الوقائع السردية التاريخية والحكاية - بما هى جميعاً هنا نصوص شعبية - بين النصين : القديم والحديث ، الشعبى والمسرحى ، وتعقباً بمائلاً لخصائص الشخصيات الرئيسية ودورها أو وظائفها السردية ، وللنظام الزمنى ( التاريخى ) الذى يؤطر سلسلة الوقائع ، فى النصين الشعبى والمسرحى يكشف عن تماثل على مستوى البناء ( حبكة المسرحية تحديداً والمرونة بإقامة الأذان فى غير موعده ) . كما أن القرائن المحتشدة فى النصين أيضاً ، وخاصة على مستوى القراءة الأفقية تكشف عن تماثل مماثل على مستوى البنية الدالية .

وعلى الرغم من ذلك فإن نص " السلطان الحائر " ينسج كيانه الخاص على تخوم النص الشعبى ، التاريخى والحكاى ، ويطور آليات بنائه الخاصة ، وهذه إحدى السمات الأساسية للنصوص الإبداعية الخصبية " .

فقد هيمنت على هذا النص ( السلطان الحائر ) دائرتان نصيتان مضمرتان ، وكلتاها متنازعه ، وتشكل مجاله التناصى ، وتسعى للهيمنة عليه باعتباره فضاءً نصياً تتحاور وتتصارع داخله النصوص الماثلة لحظة تكوّنه أو تشمله أو تخلقه حتى تجعله تابعاً لها ويدور فى فلكها النصى ، وهما مضمرتان هنا ، بمعنى أن الحكيم لم يشر إلى أصولهما الفولكلورية التى غابت بالطبع فى معظمها عن معظم نقاد الحكيم ودارسيه ، هاتان الدائرتان هما :

الدائرة التاريخية : التى ألمح إليها بعض النقاد ، وإن لم يتبينوا أنها هنا دائرة لا تنتمى للتاريخ الرسمى بقدر ما تنتمى أساساً إلى التاريخ الشعبى أو الشفوى Oral History القائم على المرويات الشعبية المتواترة قبل أن تعرف طريقها إلى التدوين بعد ذلك بسنوات طويلة فى بعض كتب التاريخ الموسوعى وكتب السير والتراجم كما سنرى وشيكا . ومثل هذه المرويات - كما نعلم - من شأنها المبالغة والتضخيم إلى حد التناقض أحياناً ، فضلاً عما يمكن أن تحمله من إسقاطات . وعموماً فإن المقصود بها هنا قصة الشيخ العز بن عبد السلام ( ٥٧٧ -

١١٨١ / ١٢٦٢م) مع بعض أمراء الماليك التي ذكرها ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة أو كما رواها السبكى فى طبقاته ، أو غيرهما ، أثناء توليه منصب القضاء ، إذ رفض تنفيذ أحد الأحكام التى أصدرها أحد أمراء الماليك ، استناداً إلى أنه لم يكن قد تم عتقه ، ومن ثم لا يحق له أن يحكم بين الناس أو يتولى إمارتهم ، وهنا تنتهى رواية ابن تغرى بردى.

غير أن النقاد - فيما يبدو - وعلى رأسهم الناقد المعروف محمد مندور قد واصلوا تكملتها من كتاب آخر عن الشيخ العز ، كتبه ابن له ، وفيه جاء أن هذا الأمير استشاط غضباً ، إذ كيف يجزؤ واحد من العامة على عصيان أوامره ، ثم قام فى كوكبة من فرسانه لتأديب الشيخ ، ولكنه فوجئ به ثابتاً كالطود ، يخرج إليه ويسأله عن حاجته ، فسقط فى يد الأمير الذى جوبه بشجاعة الشيخ ، فانهال على يديه يقبلها ويسأله الدعاء والسماح (خشية الفضيحة أو التشهير به ) ، وقد انهار جيروت سيفه أمام قوة الحق وشجاعة الموقف ..

وليس أدل على أن هذه الدائرة التاريخية تنتمى إلى التاريخ الشفاهى أو الشعبى من أن لها روايات متعددة ، متباينة ، أو بالأحرى متناقضة ، فيما بينها إلى حد بعيد مبالغ فيه ، لدرجة أن بعض الروايات تجعل بطلها هو السلطان نفسه ، الذى ظل يتوعد الشيخ ويهينه ، ولكنه فى النهاية يعود فيسترضيه ويقبل شروطه ، ويقوم بشراء جميع الأمراء الماليك ، ويغالى فى ثمنهم ، ويصرفه فى وجوه الخير على الرعية ... وفى روايات أخرى يكون هذا الأمير نائب السلطنة ، ويروى كذلك أنهم جماعة من كبار أمراء الماليك .... إلى غير ذلك من مرويوات تنبئ بأحلام الرواة ، وتشئ برغبتهم الجماعية فى سلطان أو والٍ أو قاضٍ ، قادر على إقامة العدل ولديه الشجاعة على مواجهة مثل هذا السلطان الظالم (١).

(١) للوقوف على بعض هذه المرويوات الشعبية ، انظر إلى جانب المصادر المشار إليها فى المتن :

- طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ( عبد الوهاب ) ج ٥ ص ٨٤ - ٨٥ ( ط ١ ) المطبعة الحسينية ، القاهرة ( ب.ت ) .

- ذيل مرآة الزمان لقطب الدين اليونينى الحنبلى م ١ ص ١٧٢ .

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ص ١٠٣ .

- فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی ، ج ١ ص ٥٩٦ .



والأخرى هي الدائرة الفولكلورية ( الغائبة عن نقاد الحكيم قماً ) التي يعنيها أن نقف عندها بشيء من التفصيل ... وإذا كانت الدائرة الأولى تشير إلى مبدأ فقهي من مبادئ الحكم الإسلامي ، انطلق منها الحكيم في تصويره للحاكم العادل ، واستطاعت أن تجذب إليها النص دلاليًا فقط ، فإن الدائرة الأخرى التي نسعى للإبانة عنها بما هي متفاعلات أو متناصات فولكلورية ، هي التي استطاعت أن تجذب النص إليها بنائيًا ( من حيث دورها في البنية التركيبية أو البناء الدرامي للمسرحية ) ودلاليًا ( عن طريق المماثلة وتعميق الدلالة ) . وأعنى بها " موتيف الأذان " أو عنصر الأذان الذي ظل محتفظًا بإيحائه ودلالاته الرمزية الشرعية أو القانونية ( وهو العنصر الذي اتكأ عليه معظم البناء الدرامي للنص المسرحي للحكيم كما سنرى وشيكًا ) من حيث إن الأذان نص ثقاني شرعي ، له معنى محدد ووظيفة محددة ، ولكن أيضًا يمكن - إذا لم تصدق النوايا - أن يتم التلاعب به ، تقديمًا أو تأخيرًا ، وعندئذ يفقد مضمونه وشرعيته أو وظيفته في الحالين . كالقانون سواء بسواء ، إذ أن للقانون أيضًا وظيفة محددة إذا توخى القائمون عليه تحقيق العدالة ، ولكنه أيضًا يمكن أن يكون نصًا بلا روح إذا تم التلاعب به وتفسيره - عن هوى - وتزييفه لصالح الأقوى .... تمامًا كما تم التلاعب بالأذان في المسرحية .

وقد استلهم الحكيم - كما روى لى ذلك بنفسه - عنصر التلاعب بالأذان تقديمًا وتأخيرًا لغير وظائفه المشروعة من واقعة حقيقية جرت أحداثها في عصر المعتضد بالله العباسي ( ٢٨٩هـ / ٩٠٢م ) ، وقد اشتهر بإقامة العدل وإصلاح بيت مال المسلمين ، ثم تحولت - بالتناقل الشفاهي ومبالغاته على مر السنين - إلى قصة شعبية دفعت القاضي أبو على الحسن بن أبي القاسم التنوخي ( ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤م ) إلى تدوين وقائعها في كتابه **الفرج بعد الشدة** الذي كان الحكيم معجبًا به<sup>(١)</sup> ، وهذا موجز نصها المدون ، على لسان بطلها :

---

(١) - حدث ذلك ، عندما قابلت الحكيم عام ١٩٧٨م لإهدائه . راجع : إضاءة وتأسيس ، الفقرة الخامسة من هذه الدراسة . مع ملاحظة أن الحكيم زعم خلال هذا اللقاء أنه لم يعد يذكر النص الأصلي الذي أخذ منه ؛ فلما أعدت النص الأصلي إلى صاحبه القاضي التنوخي تذكر الحكيم فوراً أنه أحد الكتاب الذين تأثر بهم وقرأ لهم كثيراً ، وصدق على قوله . وهذا صحيح فقد ذكر بالفعل في بعض كتبه أنه واحد من أفضل كتّاب السرد العربي القديم ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك من قبل .

" أنا رجل أؤم وأقري ( هكذا ) فى هذا المسجد منذ أربعين سنة ، ومعاشى هذه الخياطة لا أعرف غيرها ، وكنت منذ دهر قد صليت المغرب ، وخرجت أريد منزلى ، فاجتزت بتركى كان فى هذه الدار ، وامرأة جميلة تجتازه ، فتعلق بها وهو سكران ليدخلها داره ، وهى ممتنعة تستغيث ، وليس أحد يغيثها ولا يمنعها عنها ، وتقول فى جملة كلامها : قد حلف زوجى بطلاقى ألا أبيت عنده ، فإن بيتنى هنا حرمنى ، مع ما يرتكبه منى من المعصية . قال فجئت إلى التركى ورفقت به وسألته تركها ، فضرب رأسى بدبوس فشجنى ، وأدخل المرأة داره ، فصرت إلى منزلى ففسلت الدم ، وشددت الشجة ، وخرجت أصلى عشاء الآخرة ، فلما فرغت منها قلت لمن حضروا : قوموا معى إلى عدو الله هذا التركى ننكر عليه . ولا نبرح أو يخرج المرأة ، فقاموا وجئنا فصحنا على بابه .

فخرج علينا فى عدة من غلماناه ( جنده ) ، وأوقع بنا وقصدنى من دون الجماعة ، فضربنى ضرباً عظيماً حتى كدت أتلغ منه ، فحملنى الجيران كالتالف ، فعايجنى أهلى وغت نوماً ثقيلاً ، وفقت نصف الليل مما حملنى النوم للأكم وذكرى للقصة . فقلت هذا قد شرب طول ليلته ، ولا يعرف الأوقات ، فلو أذنت لوقع له أن الفجر قد طلع فأطلق المرأة ، فلحقت بيتها قبل الفجر ، فسلمت من أحد المكروهين ( فقدان الزوج والبيت أو الطلاق ) ، فخرجت إلى المسجد متحاملاً وصعدت المنارة فأذنت ، وجعلت أتطلع منها إلى الطريق ، أراقب خروج المرأة ، فإن خرجت وإلا أقمت الصلاة لكى لا يشك فى الصباح فيخرجها .

فما مضت إلا ساعة والمرأة عنده ، إلا وقد امتلأ الشارع خيلاً ورجلاً ومشاعل وهم يقولون : من هذا الذى أذن الساعة ... ؟ أين هو ؟ ففزعت وسكت ، ثم قلت لأخاطبهم لعلى أستعين بهم على إخراج المرأة ، فصحت من المنارة - أنا أذنت . فقالوا - أجب أمير المؤمنين . فقلت - دنا الفرج ، فنزلت ، فإذا بدر ( قائد حرس الخليفة ) وعدة غلمان معه ، فحملنى وأدخلنى على أمير المؤمنين فلما رأيته هبته وارتعدت ، فسكن منى وقال - ما حملك على أن تغرر بالمسلمين بأذانك فى غير وقته ، فيخرج ذو الحاجة فى غير وقتها ، ويمسك المريد للصوم فى وقت أبيح له الإفطار ، ونقطع العسس عن الطواف والحرس ؟

فقلت : فليؤمننى أمير المؤمنين لأصدق . قال أنت آمن . فقصصت عليه القصة وأريته الضرب ... فقال يا بدر على الغلام ( يعنى هذا الأمير التركى ) والمرأة فى هذه الساعة ، وعُزلت فى موضع ، ومضى بدر وأحضر الغلام والمرأة ، فسألها المعتضد عن الصورة ، فأخبرته بمثل ما قلته . فقال لبدر : بادر بها الساعة إلى زوجها مع ثقة ، يدخلها دارها ، ويشرح لزوجها خبرها ، ويأمره عنى بالتمسك بها والإحسان إليها ، ثم استدعانى فوقفت ، وجعل يخاطب الغلام وأنا قائم أسمع الكلام . فقال له : يا فلان كم جرايتك فى كل سنة ؟ قال كذا وكذا ؟ قال : وكم عطاؤك ؟ قال : كذا وكذا . قال فما كان لك فيهن وفى هذه النعمة العظيمة العريضة كفٌ عن ارتكاب معاصى الله تعالى ، وخرق هيبة السلطان حتى استعملت ذلك وتجاوزته بالوثوب على من أمرك بالمعروف .. ؟

قال : فأسقط الغلام فى يده ، ولم يجر جواباً . فقال : هاتوا جوالقاً (هكذا) ومداق الجِصّ ، وقيداه وغلّاه ، فقيده وأغلّه وأدخله الجوالق ، وأمر الفراشين بدقه بمداق الجِص ، وأنا أرى ذلك وهو يصيح ، ثم انقطع صوته ومات . فأمر به فغرق فى دخلة . وتقدم لبدر أن يحمل ما فى داره يصادر أمواله وغلّمانه . ثم قال يا شيخ ، أى شىء رأيت من أجناس المكروه ، ولو على هذا ، وأوما بيده إلى بدر ، فالعلامة بيننا أن تؤذن فى هذا الوقت . فإنى أسمع صوتك (١) واستدعيك ، وأفعل مثل هذا بمن لا يقبل منك أو يؤذيك . وانتشر الخبر عند الأولياء والغلمان ( الولاة والجند ) ، فما خاطبت منهم أحداً بعدها فى إنصاف أحد أو كفٌ عن قبيح إلا طاعنى كما رأيت ؛ خوفاً من المعتضد ، وما احتجت أن أؤذن إلى الآن (٢) .

---

(١) من المعروف أن دار الخلافة قديماً كانت تختط دائماً إلى جوار المسجد الجامع فى عمارة المدن الإسلامية قديماً .

(٢) القاضى التنوخى ( أبو على المحسن ابن أبى القاسم ) : الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢١ (ط١) مكتبة الخانجي ، مصر ، (١٩٥٥) .

والآن لو شئنا أن نحلل هذه الحكاية إلى موتيفاتها أو عناصرها الأولية وجدناها من حيث الشخصيات تتممّن ( إلى جانب نفر من العامة ) الشخصيات التالية :

**الخليفة :** الذى اشتهر بالعدل - فى الحكاية والتاريخ - يؤمن بالقانون ، نصاً وروحاً وتنفيذاً .

**التركى :** أحد أمراء أو قواد عسكر الخليفة و يفتصب بالقوة امرأة شريفة ، بغير وازع من ضمير أو خلق أو مروءة .

**المرأة :** شريفة من عامة الشعب ، ساقها حظها العاثر - أثناء مرورها أمام المسجد - للوقوع فى براثن هذا القائد العسكرى السكير .

**المؤذن :** هو كذلك من عامة الشعب ، يخاطر بنفسه فى سبيل إنقاذ هذه المرأة من ورطتها العصبية ، وذلك حين قام برفع الأذان فى غير وقته (١) .

وأما من ناحية الأحداث أو المآل الحكائى فهى :

\* امرأة شريفة من العامة وجدت نفسها فجأة فى ورطة عصبية ، كادت تفقد معها كل شىء ، شرفها وسمعتها .

\* الحيلة - هى الوسيلة الوحيدة هنا لإنقاذها ، بعد أن عجزت الوسائل الأخرى أمام بطش هذا العسكرى وغلما نه ( جنده ) .

\* جوهر الحيلة يقوم على التحايل فى أمر شرعى هو الأذان ، وذلك بتقديم موعده إلى منتصف الليل ، وما سوف يترتب على ذلك من إنقاذ حياة المرأة وسمعتها .

\* دهشة الجميع والقبض على المؤذن بتهمة رفع الأذان فى غير موعده الحقيقى ، لما سوف يترتب على ذلك من نتائج عملية وشرعية .

---

(١) تجدر الإشارة إلى موتيف الأذان فى غير أوانه لغايات شخصية أو أمنية تكرر فى أكثر من حكاية شعبية مدونة فى تراثنا القصصى ، بل ثمة قصة مشابهة لما رواه التنوخى ، كانت قد ظلت تتواتر فى بعض كتب السير والتراجم ، ومنها قصة " أمير تركى طفلى " آخر ، كان دائم الاعتداء على الحرمات إبان عصر الماليك ، ولم يكشف أمره للسلطان إلا من خلال رفع الأذان فى غير أوانه ، فلفت ذلك انتباه السلطان وسأل عن السبب ، وتم فضح هذا الأمير المملوك ، ومن ثم معاقبته على النحو السابق . انظر : ابن الجوزى (٦٥٤ هـ / ١٢٥٧م) : أخبار الحكماء ، ص ٥ ، مطابع الأهرام ، القاهرة (ب.ت) .

\* الخليفة يقوم بنفسه بالتحقيق فى هذه القضية الحساسة ، ويصدر بشأنها حكماً عادلاً يتفق وروح القانون مما يفصح عن شجاعته وإيثاره تطبيق القانون نصاً وروحاً .

\* الخليفة ينصف المرأة ، مؤمناً ببراءتها وشرف عرضها ، ويبعث بها إلى زوجها معززة مكرمة ، بل يدعوها إلى التمسك بها والإحسان إليها بأمر منه ، لأنه لا ذنب لها فيما وقع لها ، فهى امرأة شريفة ، وليست سيئة السمعة كما قد يظن بها .

\* نجاة المؤذن من العقاب لأن مقاصده نبيلة ، وغدا مسموع الكلمة لدى الخليفة ، فيما يتصل بقضايا الرعية التى لا تصله ، وآية ذلك أن يؤذن فى أي وقت ، حتى لو كان فى منتصف الليل (!!) ما دام ذلك هو السبيل إلى تحقيق العدالة " ورفع المظالم وإنقاذ حياة الناس " فى رأى هذا الخليفة العادل . الذى يوصيه برفع الأذان متى شاء وأينما شاء ، كلما أحس ظلماً ( دون أن يخشى - المؤذن - أحد ) ، حتى لو كان هذا ، يعنى بدرك رئيس العسس) ولهذا ليس محض مصادفة أن يكون فضاء أو مكان الأحداث ، فى الحكاية ، على قارعة الطريق وتحديدًا أمام باب المسجد الجامع الذى يشكل خلفية شرعية للمشهد .

\* قتل التركى عقاباً له ( حيث ينبغى أن تأخذ العدالة مجراها ، أيًا كان المتهم ، وبصرف النظر عن موقعه من السلطة ) دلالة على سيادة القانون .

إن قراءة أولية لمسرحية السلطان الحائر للحكيم تؤكد أن هذه العناصر التحليلية أو الأولية للحكاية لم تغب عنه ، بل استحضرها بشخصها وأحداثها وقائعها وموتيفاتها ، وزمانها ومكانها ورموزها أو على الأقل هذا ما يظنه الباحث فى بعض عناصرها التى تقاطعت مع النص الدرامى ، على نحو ما فعل - الحكيم - فى موتيف أذان الفجر فى غير موعده ، تقديمًا أو تأخيرًا بحسب المصالح الشخصية أو الأهواء الذاتية . مما يعنى أن الحكيم قد طور هذا الموتيف دلاليًا ووظيفيًا بحيث أصبح عنده - الأذان - رمزًا للشرعية وسيادة القانون إذا كان فى ميقاته الشرعى ، ولكنه يمكن أن يكون أيضًا رمزًا للتلاعب بجوهر القانون فى ليل مظلم تتحدد أطره فى غيبة القانون أو بالأحرى فى تغيبه ، أما فى الحكاية ، فقد ظل الأذان أيضًا يلعب دورًا إيجابيًا ومشروعًا - وذلك بأمر من هذا الخليفة الشجاع ، رأس الشرعية نفسه - بما هو إعلان أو رمز يهدف إلى تحقيق العدل والإنصاف والإعلاء من شأن القانون إذا ما انحرف أحد القائمين عليه .

ومثال آخر - فى مجال رسم الشخوص - فأغلب شخوص المسرحية ، شخوص نمطية ، مسطحة ، وهى بذلك أقرب إلى طبيعة رسم الشخوص فى الحكايات الشعبية ، فهى غالباً شخصيات نمطية . ولكن المثال الذى نعينه يتركز حول نهاية شخصية القائد التركى فى الحكاية ، وقد انتهى إلى هذا المصير البشع ، شأنه شأن نهاية كل شخصية شريرة فى الحكايات الشعبية والمرويات الشفاهية ، بينما نرى الحكيم ، أول كل شىء يستبعد - عملياً - فكرة الاغتصاب المادى ، وإن لم تستبعده الجماهير المحتشدة لمعرفة مصير السلطان ، وذلك عندما اتهموه فى الغانية ، وإنما ركز الحكيم - رجل القانون السابق - على الاغتصاب المعنوى لروح القانون وقديسته - على حد تعبيره على لسان السلطان الذى رفض - تحايل أو تلاعب قاضى القضاة بجوهر القانون ، ما دام - السلطان - قد رفض خيار السيف على سهولته ، وأثر اختيار القانون . بمعناه الحقيقى ، القانون الذى يتحدها ولكنه يحميه - آخر الأمر - ويحمى معه الرعية ، وعندئذ يختفى التناقض بين الحقيقة والشعار ، ويصبح شرف الوسيلة جزءاً لا يتجزأ من نبل الغاية ؛ بالمعنى السياسى والقانونى .

وبعد ذلك ، أو قبل ذلك ، فشحة أوجه الشبه الأخرى بين الحكاية والمسرحية عند تحليل عناصر كليهما ، مما لا يخفى - فى ظننا - حتى بعد تحويرها أو تغيير معالمها . ولكن هذا لا يعنى اتهاماً موجهاً إلى أدب الحكيم ... - فهذا ما لم يدر بهال الباحث قط - وإنما هى نقطة تحسب للحكيم لا عليه ، وتشير إلى براعته فى استلهاام التراث أو التفاعل التناسلى معه ، على نحو يجعل الحكيم يعرف كيف يعالج أخطر القضايا السياسية المعاصرة أو بالأحرى قضية الصراع بين السيف والمبدأ أو السيف والقانون ، " فى إطار شرقى قديم " (١) على حد تعبيره ، وأن الحاكم الشجاع هو الذى يعرف كيف يختار بينهما (٢) . أو بالأحرى كيف يؤثر اختيار القانون ( الديمقراطية / الدستور ) دون السيف وحكم العسكر .

إن المناص الفولكلورى هنا قد تم دمجها فى السلطان الحائر ، بعد نقله من الخطاب الحكائى إلى الخطاب المسرحى ، وعلى نحو وظيفى غايته الماثلة بين أسلوب الأداء الوظيفى - بالمعنى

(١) انظر مقدمة السلطان الحائر ، ص ٩ ( الطبعة الأولى فقط ) مكتبة الآداب ، القاهرة (ب.ت) .

(٢) يلاحظ أن الاسم الأصلى للمسرحية هو " اخترت " فى نصها الفرنسى الذى صدر فى باريس عام

الفولكلورى فى كل من الأذان والقانون ، فقد يتحقق الأداء ( السياسى ) على نحو مشروع إذا خلصت نوايا الحاكم ، وقد يكون التحايل عليه سبيلاً لتحقيق مصالح ذاتية أو غير مشروعة ( وإن استندت فى ظاهرها إلى نص أو ملفوظ القانون لا روحه ) والمماثلة فى مثل هذا التداخل النصوى إنما تهدف إلى تأكيد المعنى وتعميق الدلالة ... فالأذان هو الأذان والقانون هو القانون ، الشرعية واللاشرعية خياران قائمان ، والاختيار بينهما هو المحك الحقيقى للحاكم الشجاع ، الديمقراطى ، أو السلطان السياسى الواثق بنفسه وعدله ، المؤمن بشعبه ، كما ينبغى أن يكون الحاكم المثالى الذى يحترم القانون والشرعية وروح القانون ، لا أن يتستر وراء شعارات زائفة يرفعها تضليلاً وتقويها على الشعب .

وهكذا ينطوى التناص هنا - فى ضوء مفهوى الاستدعاء والتحويل - على معنى التداخل والتوالد والتفاعل المضرر أو غير المباشر بين النص الحكائى والنص المسرحى ... فقد قام الحكيم - ببراعة - بتحويل هذه الاستدعاءات الشعبية أو هذه المرويات السردية التاريخية والحكاية وصهرها وإذابتها فى النص الجديد ( المسرحى ) وفق منطق النص الجديد نفسه ، وعلى نحو ينسجم مع قضاء بنائه ومع مقاصده . وساعد على ذلك أن الخطاب المسرحى ينطوى بالضرورة على خطاب سردي مائل للمرويات التاريخية والحكايات الشعبية . وإذا كان هذا يتصل بمستوى تشكيل أو تخلق النص ؛ فإنه أيضاً يتصل بمستوى آخر هو التأويل النقدي .

ومعنى هذا أيضاً أن النص الشعبى - التاريخى والحكاية - لم يكن عبثاً أن يارس هيمنته وسطوته على النص الحديث ( المسرحى ) فالأخير بمقدار ارتباطه الأول ، فهو متحرر يمتلك خصوصيته وخصويته ، ولا ينحنى ضعفاً أمامه ، بل على النقيض من ذلك ، فإنه - النص الجديد - يضارعه إن لم يكن قد تجاوزه فى إجتراح دلالات معاصرة .

فإذا ما وضعنا هذا التفاعل التناصى بينهما فى إطار البنية السوسيونصية أو السياقات الثقافية والاجتماعية - إبان فترة الستينيات - وجدنا نص الحكيم مستوعباً للدلالة الرمزية للأذان ، ومحولاً لها لتحمل دلالة أيديولوجية تتعلق بموقف الحكيم من فترة الحكم الناصرى ، ومن جمال عبد الناصر ، وهى علاقة قوامها الحب والخوف فى آن ، مما دفع الحكيم للتقنع بالماضى ، أو ما يسميه بالإطار الشرقى القديم ( كما ورد فى نص المقدمة المصاحب للمسرحية

فى طبيعتها الأولى فقط ، دون سائر الطبقات الأخرى (١١) . ويعنى بهذا الإطار الشرقى هذه البنية التراثية التاريخية والفولكلورية التى لا علاقة لها بالعصر الحاضر ، ثم استحضارها واستيعابها وتحويلها فى نص السلطان الحائر عن طريق بعض التغييرات أو التحويرات التى تؤكد أنه لا يرمى إلى إحياء هذه البنية التراثية ، وإنما يأخذها ويستوعبها ويحولها بما يتوافق مع رؤية الحكيم ومراميه الجديدة المعاصرة .

وبهذا يصبح النص المسرحى بمثابة مرآة عصرية لا تراثية ، ولقد ذكر الحكيم فيما بعد (ومن منطلق إعجابه المطلق بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وولاته بغير حدود لعبد الناصر الذى غرست فيه عودة الروح للحكيم روح الثورة ) أنه كان يخشى على الثورة من الثورة نفسها ؛ عندما انحرفت عن نهجها الديمقراطي المعلن ، كما كان يخشى على عبد الناصر من عبد الناصر ، عندما تلكأ فى إعادة الدستور وتراجع عن تنفيذ واحد من أهم شعارات الثورة ومبادئها المعلنة التى اكتسب بها شرعيته ، وتأييد الشعب له فى آن ، وهو تطبيق الحكم الديمقراطي ، بالمعنى الحقيقى لا الشكلى ، وبداية ظهور الحكم الشمولى فى الأفق ... يكل ما يعنيه هذا الحكم من ضروب الظلم والقمع والبطش المخبراتى المسلطة على رقاب العباد . الأمر الذى يتنافى لا مع الثورة ذاتها فحسب ، بل يتعارض مع المبادئ التى يؤمن الحكيم بها ويدعو إليها . وهنا وجد الحكيم نفسه حائراً بين ولاءه للثورة ورمزها العظيم ناصر وبين اعتراضه عليها حين انحرفت عن مبادئها ، الأمر الذى نجم عنه أن بات القاتون فى إجازة ، ولما كان الحكيم مؤمناً بالنقاء الثورى لناصر فقد ظل طامعاً - من خلال علاقته الشخصية بمعظم رجال الثورة - فى أن لا يتردد عبد الناصر بتطبيق الحكم الديمقراطي ، وأن يعيد للقاتون هيئته وسيادته ، وأن شجاعته الحقيقية تكمن فى القضاء على حكم السيف وهيمنة العسكر . قلما لم يتحقق شيء من ذلك كله عمد الحكيم - يذكائه السياسى المعروف ، ودون أن يقع تحت طائلة اللبثش - إلى إبلاغ رأيه ورؤيته فى اختيار القاتون سيلاً إلى الحكم الديمقراطي الحقيقى إلى عبد الناصر من

---

(١١) أى بعد زوال الأسياى السياسية التى دعت إلى كتابة هذه المقدمة باعتبارها عتبة النص التى يمكن أن تحمى الحكيم من اللبثش السياسى الذى كان مهيمناً على الواقع السياسى إبان صدور المسرحية ، انظر : السلطان الحائر المقدمة ، ص ٩ ، الطبعة الأولى ، مكتبة الآداب ، القاهرة . ولا يخفى على القارئ أن التفتيح بالملاضى فى الأعمال الفنية السياسية يعد دالاً سيموطيقياً على غياب الحرية فى الحاضر بالمعنى السياسى والإبداعى فى آن .



خلال هذه المسرحية التى نشرت أول الأمر بالفرنسية ١٩٥٩ تحت عنوان (اخترت) ثم أسقط الحكيم حيرته - حين سُمح له بترجمتها - على السلطان / الرمز الذى صورته متردداً أو حائراً فى اختيار نظام الحكم : بين الديمقراطية ، المبدأ / الشعار والحلم ، وبين الأوتوقراطية / الفعل والواقع ، فأطلقها الحكيم صرخة تحريضية وتحذيرية فى آن ، قوامها أن الحاكم الثورى العادل الشجاع هو الذى لا يخشى من سيادة القانون والديمقراطية ؛ حتى لا يفقد مصداقيته مع شعبه الذى يحبه ويؤيده . وبهذا المعنى المحورى أو المركزى تتجسد مشكلة السلطة والحرية ، ويتجلى مغزى الصراع فى المسرحية بين المثال والواقع .

ولذلك يمكن القول بأن النص جاء نتيجة وعى سياسى مكتوم ، مما يجسد الخلاف - ومن ثم القطيعة - بين رؤية المثقف المستقل وفكر الحاكم المستبد ، غير أن عبد الناصر لم يأبه لتلك الدعوة ( سيادة القانون ) لظروف لا مجال لشرحها هنا ، برغم إلحاح الحكيم المفكر والفنان على ذلك فى كثير من أعماله الفنية حتى إنه بادر بعد وفاة عبد الناصر ( ١٩٧٠ ) فكتب عندئذ مذكرات سياسية خاصة ، ليست للنشر ، لكنه اضطر فيما بعد إلي نشرها - بعد أن تسربت أخبارها - فى كتابه الشهير عودة الوعى ( ١٩٧٤ ) وفيه يقول بشأن هذه المسرحية وغيرها :

" لقد كانت ثقتى بعبد الناصر تجعلنى أحسن الظن بتصرفاته ، وألتمس لها التبريرات المعقولة ، .. وعندما كان يخالجنى بعض الشك أحياناً ، وأخشى عليه من الشطط أو الجور ، كنت ألجأ إلى إفهامه رأى عن بعد ورفق ، وأكتب شيئاً يفهم منه ما أرمى إليه ... فقد خفت يوماً أن يجور سيف السلطان فى يده على القانون والحرية ، فكتبت السلطان الحائر .... ثم خفت أن يكون غافلاً عما أصاب المجتمع المصرى قبل حرب ١٩٦٧ من القلق والتفكك ، فكتبت مسرحية بنك القلق (عام ١٩٦٧) . وهى كلها كتابات مترفقة بعيدة عن العنف والمرارة ، لمجرد التنبيه لا الإثارة ، وكما علمت فقد قرأها عبد الناصر وفهم ما أقصده منها ، ولكنه فيما ظهر لى لم يأخذ بها ، بل اندفع فى طريقه " (١) .

---

(١) عودة الوعى ، ص ٦٠ ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٧٤ .

وبذلك ظل اللامعقول السياسى هو المهيمن على الواقع والراهن فى نظر الحكيم ، وكان عليه أن ينتقل - واعيًا أو لا واعيًا - إلى اللامعقول الفكرى والإبداعى يومئذ : تعريضًا عن واقع جاريح ، وتنقيسًا عن راهن محبط فكتب بعد ذلك مباشرة مسرحية يا طالع الشجرة (١٩٦٢) . وبرغم ذلك فقد ظل الحكيم - مبدعًا ومفكرًا ومنظرًا - وفيًا لمبادئه السياسية ، ورسائلته الفنية والثقافية ، ومشروعه المسرحى الطموح .

فإذا ما تجاوزنا الدلالة والسياق أو السياق الدلالى لمسرحية السلطان الحائر فثمة ملاحظتان أخيرتان ، إحداهما : أن هذه المسرحية - على مستوى التناص الذاتى - تؤكد الرؤية الفكرية للواقع السياسى كما يراه الحكيم منذ كتابه شجرة الحكم ، مثلما تتعالق مع أعماله الإبداعية المبكرة ذات المضمون السياسى : مثل مسرحية نهر الجنون ، ومسرحية ألف ليلة وليلتان ، وإن كان تناول الحكيم لهذا المضمون السياسى فى مسرحية السلطان الحائر قد جاء أكثر نضجًا ووعيًا من الناحيتين الفنية والجمالية .

والأخرى : أن هذه المسرحية تتعالق - على مستوى التناص الخارجى - فى قضيتها المركزية أو المحورية ( المضمون السياسى ) مع الكثير من المؤلفات الفكرية والثقافية ومع الإبداعات الروائية والمسرحية التى ظهرت متزامنة مع السلطان الحائر آن ذاك ، ومن اللافت للنظر أن معظم هذه الإبداعات قد توسدت بالرمز أو تقنعت بالرموز التراثية والشعبية . ويكفى أن نذكر على سبيل المثال قصة " الجهار " لنجيب محفوظ فى مجموعته القصصية "ديا الله" وفيها أعلن محفوظ صراحة ، وفى جرأة يحسد عليها أن القانون فى مصر " نائم فى بطن بطيخة صيفى " على حد تعبيره ، وعلى نحو ما نرى أيضًا فى إبداعات عبد الرحمن الشرقاوى ونجيب سرور وفتحى غانم ولطفى الخولى وسعد الدين وهبة وغيرهم كثير ، حيث تجلت رؤيتها السياسية فى طغيان سلطة السيف على سلطة القانون ، ولاحت فى الأفق بوادر الحكم الشمولى بمخاطره التى شكلت يومئذ الهاجس السياسى فى معظم تلك الفترة .

#### النمط الرابع : مسرحية يا طالع الشجرة ونمط الميئاتناص :

إضاءة : على الرغم من وحدة المنهج المتبع فى هذه الدراسة ، فإننى مضطر سلفًا للاعتذار عن الإطالة والإفاضة فى الحديث عن مسرحية يا طالع الشجرة ، بما هى - أولاً - مسرحية تشكل لغزًا فكريًا ، وهما معرفيًا ، وأرقيًا فنيًا - إن صح التعبير - بالنسبة لى على المستوى الشخصى والذهنى استمر طويلًا منذ صدور المسرحية (١٩٦٢) حتى هذه اللحظة ، لحظة

الكتابة عنها فى هذه الدراسة . وبها هى - ثانياً - مسرحية تجريبية ( طليعية ) افتتح بها الحكيم تيار العبث فى المسرح العربى المعاصر . وبها هى - ثالثاً وأخيراً - تشكل ذروة الإبداع الفنى وخلاصة الفكر الروحى لتوفيق الحكيم ، ورؤاه الفنية والفكرية المتماهية فى هذا النمط من التناص المركب والمتوازى ( أو بالأحرى الكامن فيما وراء النصوص ) مع الأغنية الشعبية التى تحمل المسرحية عنوانها واتجاهها الفنى ورؤيتها للعالم ، على نحو لا يتلاحم فيه النص السابق مع نسيج النص اللاحق ، بالمعنى المتداول فى أقطاب التناص السابقة ، ولا يندغم فيه - على مستوى البنى الفنية والتركيبية والدلالية - إلا على نحو مضلل لأفق التوقع ، ( فيما لو استطعنا القبض عليه ) إذ يبدو المتناص فى ظاهره سطحياً أو عابراً ( ومن ثم لم يأبه به أو ينتبه إليه أحد من نقاد الحكيم ، حيث استطاع بالفعل أن يقوم بتضليلهم فى الوقوف على مثل هذا التناص ) ، ولكنه فى الحقيقة من العمق بمكان - إلى درجة التماهى - وليس من السهل إدراك حقيقته والوقوف على أبعاده إلا بعد لأى شديد ، تماماً مثل جبل الثلج ! حيث تتجاوز العملية التناصية نصوصها إلى ما وراء النص المتناص ، فيما أطلقنا عليه " الميتا تناص " (١) .

---

(١) نقصد بهذا المصطلح المؤقت : هذا النمط " المركب " من التناص الذى يقوم التفاعل أو التعالق النصى فيه على " ما وراء النصوص " ، وليس على النصوص ذاتها ، فلا يتضمن التعالق النصى عندئذ نصوصاً لاحقة تدخل فى نسيج النص الجديد ، بشكل معلن أو مضمّر ، أى على نحو " متعين " بل يتجاوزها ليتعالق معها ثانية على مستوى الرؤية الفنية والفكرية ، بمعنى أن يقوم النص اللاحق على استحضار النص السابق فنياً وفكرياً ، ثم محاكاته ومسايرته فى مذهبه الفنى ، وفى رؤيته الفكرية ( بالتوازى معه ) على نحو ما فعل الحكيم هنا فى مسرحية ( يا طالع الشجرة ) فقد حاكى فيها الاتجاه أو الشكل العبثى فى نص شعبى (أغنية يا طالع الشجرة ) ثم سايره بعد ذلك فى رؤيته للعالم ، على نحو ما نكشف عنه .

وهذا النمط من التناص " المركب " هو أصعب أقطاب التناص بالنسبة للمؤلف وللقارئ على السواء ، خاصة فى مجال التعالق أو التناص مع ( نصوص شعبية كادت تندثر ) ، فهى بالنسبة للمؤلف تقتضى دراسة النص الشعبى ، واستكشاف منهجه الفنى وتصنيفه فى ضوء التيارات الفنية المعاصرة السائدة فى المشهد النقدى المعاصر ، واستكشاف فلسفته الكامنة ، أى معرفة أفكاره ورؤيته للعالم ، ثم دمجها - بمهارة وذكاء شديدين - فى إنتاج نص جديد (لاحق) من غير إشارة صريحة إلى ذلك ( باعتبار النص الشعبى - جمالياً وفكرياً - ملكية عامة على المشاع ) ، أو بإشارة مضللة ، وهنا يصعب اكتشاف هذا الضرب من التعالق النصى أو التناص " المضلل " بالنسبة للقارئ . وإن لم تكن مستحيلة على قارئ متخصص فى الفولكلور ، إذ يكون بمقدوره عندئذ " كشف " هذا التناص المتوازى أو الماورائى =

ذلك أن المسرحية تجسد فعل التجريب فى ظل عقدة التجريب ، وهو تجريب يساير مسرح العبث الغربى فنياً ويعارضه فكرياً ؛ فيما أسماه الحكيم بمسرح اللامعقول ، فى ضوء رؤيته الشرقية ( الدينية ونزعتة الصوفية ) ... ومن هنا يتحقق " التناص الماورائى " بين الأغنية الشعبية والمسرحية ... فالأغنية قد تبدو عبثية " الشكل والمضمون " لمن لا يعرف رموزها الصوفية ، ولكنها ليست كذلك - فى دلالتها العميقة - إذا ما قمنا بفك طلاسمها ومعرفة رموزها رؤيتها الجمعية ( الكونية ) للعالم ، على نحو يتفق تماماً ورؤية الحكيم الذاتية للعالم ، وإذا الأغنية عبثية الظاهر أو الشكل ، لا معقولة القالب / البنية / التركيب ، لكنها " معقولة " الباطن / المعنى / الرؤية / المضمون / الدلالة ، كالمسرحية سواء بسواء ، ظاهرها العبث أو اللامعقول ، وباطنها اللاعب أو المعقول .

وبذلك يتحقق التناص بين المسرحية والأغنية على المستويين الفنى والدلالى ، وإن زعم الحكيم غير ذلك ( حيث الأغنية فى رأيه عبثية المبنى والمعنى معاً ) . من هنا كانت صعوبة الكشف عن هذا النمط من التناص ؛ بما هو تناص مركب ، مضلل ، ما ورائى ، وزاد من صعوبته أنه متحقق فى نص تجريبى ، ومن هنا أيضاً كانت مبررات الإفاضة التمهيدية أو الإطالة الشارحة التى كان لابد منها للكشف عن مفاصل التناص الأساسية فى كليهما : فعل التجريب وفعل التناص معاً .

### فعل التجريب المسرحى وتجاوزه عقدة التبعية :

إبان سنوات العمل التى قضاها توفيق الحكيم فى باريس ( ١٩٥٨ - ١٩٦٠ ) تأججت لديه الرغبة - مرة أخرى - فى التجريب المسرحى ، حلمه منذ العشرينيات ؛ فقد أصبح المجتمع المصرى والعربى مهيتاً سوسيوثقافياً وفنياً لقبول مثل هذا التجريب ، باعتباره فعلاً حداثياً مرغوباً فيه . وتصادف إن كان التيار أو المذهب الفنى المهيمن عندئذ على الحركة المسرحية العالمية المعاصرة ، هو تيار مسرح العبث<sup>(١)</sup> أو مسرح اللامعقول - على حد تعبير الحكيم -

---

= (ميتاتناص) فيساهم بذلك فى إضاءة المشهد القرائى أو النقدى للنصوص الرسمية المتعاقبة مع النصوص الشعبية ، وخاصة فى الكتابات المسرحية والروائية الحديثة والمعاصرة .

(١) مسرح العبث - أو ما يسميه بعض نقادنا : مسرح اللامعقول هو ذو معنى مزدوج : فموضوعه من ناحية عبث الوجود ، أو ( رهبة الفراغ ) فى الكون ، رهبة يعبا بها العقل ، ومن الناحية الأخرى يقوم بتصوير الوعى الحاد بهذا الفراغ والعبث ، لا عن طريق المنطق الأرسطى ، بل عن طريق تجارب معزولة تتصل بأعماق النفس المرتاعة أمام مأساتها الهائلة اللامعقولة ، أى المستعصية على الإدراك ، ولذلك يستعين هذا المسرح =

وكان عليه أن يخوض فعل التجريب المسرحي " متعالقاً " مع هذا التيار أو الاتجاه الفنى السائد ، ومسايراً له . ولكنه - فى الوقت نفسه - كان يخشى السقوط فى دائرة الاتباع أو التبعية للمسرح العبثى الغربى ، والاتهام بالتقليد المستعار - وهو اتهام وارد بقوة - فيفقد فعل التجريب لديه نشوة الإبداع ولذة التجديد .

ويزداد الأمر صعوبة لدى الحكيم الذى كان رافضاً لما يسمى بالوجودية الملحدة ، ومعارضاً على طول الخط للفكر العدمى واتجاهاته العبثية التى أفضت إلى نشأة مسرح العبث الغربى ، وشيوع التيار العبثى فى المسرح الأوروبى والأمريكى ، فكيف له أن يكتب - على مستوى التجريب - نصاً مسرحياً عبثياً ولا عبثياً فى آن ؟ عبثياً فى اتجاهه أو مذهبه الفنى ، ولا عبثياً فى مضمونه أو رؤيته ( حيث الحكيم لا يؤمن بعبثية المعنى الوجودى ) ومن ثم فما السبيل إلى إنحياز فعل التجريب فى ضوء هذه المعادلة الصعبة التى تجمع بين عبثية الشكل ولا عبثية المعنى ، أو بين " اللامعقول والمعقول " فى آن ؟ ( بما هما مصطلحان يؤثرهما الحكيم على مصطلح العبث الفلسفى ) . وهل من سبيل إلى تحذير فعل التجريب لديه وتأصيله على نحو يجعل منه - مسرح اللامعقول - اتجاهًا أو مذهباً فنياً عربياً تقتد جذوره فى أعماق التربة الفنية العربية ، قبل أن يعرفه الفن الغربى ؟ وهل يقوم تيار اللامعقول العربى - إذ عثر عليه - على عبثية الشكل الناجمة عن عبثية المعنى إذا كان قائماً بالفعل فى النص الشعبى ؟ ثم إلى أى مدى يمكن أن يتصل هذا المعنى بمنابعه الأولى فى الثقافة الشعبية الموروثة ورؤيتها الجمعية للعالم من ناحية ؟ وإلى أى مدى يمكن أن " تتناص " هذه

---

= بالإيعاءات الفرويدية ( والبيونجية ) فيما وراء عالم المنطق ، كالأحلام ، ( والنماذج الهدئية الراسخة فى اللاوعى الجمعى ) ، كما يلجأ إلى وسائل صور العبث المنطقى كأقيسة المغالطة أو التوجه إلى غائبين أو إلى أصدقاء خياليين ، أو كراسى خالية ، وكإثارة ذكريات بين الواقع والخيال ، وفى ذلك كله قد تزودج الشخصية الواحدة وقد تكرر نفسها ، أو تحل فى أفعالها وأقوالها محل شخصية أخرى ، أو تكون مجرد صدى لها ، وقد تتضاد مع نفسها لا فى مجرد الإدراك ، بل فى التردد بين العقل والجنون ، أو بين التذكر وققد الذاكرة ، أو بين الوعى الموهف والوسائل القاسية الغليظة والخلق الفظ " ، انظر : محمد غنيسى هلال : فى النقد المسرحى ، ص ٣٣ ، دار نهضة مصر للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، وما بين الأقواس من إضافتنا .

وسوف تكون لنا عودة أخرى للحديث عن عناصر وأبعاد البنى الدلالية فى المسرح العبثى الغربى عند حديثنا عن مسرحية يا طالع الشجرة وعن المسرح العبثى العربى .

الرؤية الجمعية للعالم فى النص الشعبى مع رؤية الحكيم الذاتية للعالم فى نصه المسرحى الجديد ؟ .

فى هذه الفترة كان الوعى الفنى والمعرفى والنقدى للحكيم بالفن الشعبى قد بلغ ذروة التضج ووصل أوجه ، ولم يلبث - عندئذ - أن طفت على سطح ذاكرته النصية ( الفولكلورية ) أغنية شعبية ، كان يحفظها - كما ذكرت - منذ زمن البراءة ، وما أكثر ما كان يرددها مع أترابه من الصبية ، وظل يسمعها كبيراً ، دون أن يفقه لها معنى أو يحاول أن يفهم لها معنى ، فهى كما بدت له يومئذ عبثية الشكل والمعنى ، لا معقولة فى مبنائها ومغزاها ، حيث لا رابط عضويًا أو منطقيًا بين أجزائها أو معانيها ، أو هكذا بدت له ولغيره كلما حاول أن يسألهم عن كنه مبنائها أو سر معناها أو حقيقة مغزاها ، ولم تكن هذه الأغنية إلا أغنية الأطفال الشهيرة ( يا طالع الشجرة - هات لى معاك بقرة ) إذ بدت له حينئذ نصًا لا معقولًا ( عبثى الشكل والمعنى معاً ) ، ومن هنا كان تحمسه لها ، حتى أنه افتتح بها المقدمة المصاحبة للمسرحية ، أو عتبة الدخول ، فيقول فى مقدمته التى تشبه البيان المسرحى :

يا طالع الشجرة                      هات لى معاك بقرة  
تحلب وتسقيينى                      بالعلقة الصينى

إلخ .... إلخ

هل لهذا الكلام معنى ؟ ... مما هو المعنى الذى يمكن أن يكون له ؟ ... ومع ذلك فإن أجيالاً من الأطفال والصبية قد رددوه ، وما زالوا يرددونه فى بلادنا ، ولقد سألت أخيراً صبيًا يردده ؛ وكان فطناً ذكيًا ، فاعترف بأنه فعلاً لا يفهم له معنى ، وأنه من غير المعقول فى رأيه أن تكون هناك بقرة فوق الشجرة ... وبرغم هذا انطلق يردده فى نشوة ومرح ... إذن ... فشئ خفى فى هذا الكلام يستطيع أن يقوم بنفسه دون حاجة إلى معنى أو منطق ...

هنا المنفذ الذى انفتح على عالم عجيب جديد : هو الفن الحديث . فقد اتجه هذا الفن الحديث إلى تعميق منطقة هذا الشئ الخفى ... وكان ذسيلته التجرد أولاً من المعنى والمنطق ، فأصبح التصوير مجرد بقع لونية ، والنحت بقع كتلية ، والموسيقى بقع صوتية ، والشعر بقع وكلمة (البقع) هنا تعبير خاص عن انطباعى الشخصى ... ونتج عن ذلك نوع من الفن يتصل مباشرة بالعين أو بالأذن ، دون أن يمر بالعقل<sup>(١)</sup> .

(١) توفيق الحكيم ، يا طالع الشجرة ، المقدمة ، ص ٥ .

وبهذا المفهوم لعالم الأغنية الشعبية التى تنطوى على " شىء خفى " حفظ عليها حياتها دون حاجة إلى معنى أو منطق . وبهذا الفهم أيضاً لعالم الفن الحديث وطبيعته التى تتجه اليوم إلى " تعميق منطقة هذا الشىء الخفى ، ووسيلة التجرد أولاً من المعنى والمنطق " ؛ بهذا كله يكون الحكيم قد عثر فى - زعمه - فى هذه الأغنية الشعبية على ضالته التجريبية والتأصيلية فى آن ، وقد وجد فيها حلاً مثالياً أو نموذجياً للخروج من مأزق الإبداع فى ضوء المعادلة الصعبة الراهنة - على مستوى التجريب - بين خصوصية فعل الإبداع ، وعمومية فعل الاتباع ، فالأغنية كما فهمها أو قرأها الحكيم - الحكيم ونقاده ودارسوه - وليس كاتب هذه الدراسة - هى نص عبثى " الشكل والمضمون " يتفق أو يجارى أو يوازى مسرح العبث الغربى من حيث " الشكل والمضمون " على حد قوله . بيد أنه نص عربى الجذور يمكن أن يشى بأصاله فعل التجريب ويحقق له - فى آن - كتابة نص " طليعى " نابع من فنوننا الشعبية ، وخصوصيتها الثقافية ، برغم الحضور الطاغى للآخر التجريبى الذى لا ينكره الحكيم .

ولكن الحكيم - بوعيه المعرفى والنقدى - يدرك أيضاً أن نصاً واحداً لا يشكل اتجاهًا فنيًا ، فمضى بتأمل فنوننا الشعبية برمتها ، كالحكايات الخرافية وبعض المشاهد الملحمية فى السير الشعبية العربية وفى كثير من الفنون التشكيلية الشعبية كالرسوم الجدارية واللوحات الشعبية التى نزين بها واجهات المنازل وحوائط الغرف فى العمارة الشعبية أو تلك التى تزين أغلفة أو صفحات قصص ألف ليلة وليلة وقصص البطولات الشعبية كالسير والملاحم فى طبعاتها الشعبية الرخيصة ، حيث الكثير منها " على الرغم من منبعه البدئى يتصل بأحدث نظريات المسرح المعاصرة " (١) فى اتجاهاته الفنية - كما ذكرنا من قبل - ومنها " الشكل العبثى " العربى الهوية الذى يماثل أو يشاكل إلى حد كبير الشكل العبثى الغربى الهوية ...

واعتبر - الحكيم - ذلك " كسفنًا " أو سبئًا فنيًا لم يعرفه - من قبل - الفن الأوروبى الحديث ، ولا مدارسه الفنية المعاصرة ، وهنا - كما يقول - تكمن عبقرية الإبداع الشعبى العربى منذ القدم ، فى تنوع أشكاله وحيوية مضامينه وثراء اتجاهاته الفنية التى تنتظر من يزيع عنها ستائر النسيان وينفض عنها غبار المكان ، ويجلو عنها صدا الحقب والأزمان ،

(١) توفيق الحكيم : قالبنا المسرحى ، ص ١٨ .

على نحو ما فعل في مسرحية "يا طالع الشجرة" باعتبارها مسرحية تجريبية (تجريبية) وتأصيلية في آن - من دون أن يتهم الحكيم بالتسمية للقريب في فعل التأسيس الذي يسعى إليه ، انطلاقاً من إيمانه بأن الفن الشعبي العربي ليس فناً طليعياً بالمفهوم الغربي نفسه وحسب ، بل سابق عليه أيضاً ، وإن لم نعترف بذلك لاستعلائنا عليه ، ونسبنا له جملة وتفصيلاً فيقول :

" فننا الشعبي لم نعرف قبل كل هذه المدارس هذه الأسرار ، دون أن نلحق إلى متصده بالآخر... " (١)

الأمر الذي حفزه إلى تأسيس فعل التجريب - دون الخوف من عقدة التخریب ، احتذاء واقتداء بالفنان الشعبي العربي - ذلك العبقري المجهول - الذي :

" أدرك بالسليقة هذه المنطقة الغنية العميقة مناطق التعبير الفني ، قبل أن يدركها الفنان الغربي . ويضع لها المذاهب ... وهذا هو السبب الذي دعاني اليوم إلى كتابة هذه المسرحية ... فنحن أولى من غيرنا باستلهم أساليبنا الشعبية في الاتجاهات الفنية المختلفة " (٢) .

وهذا التناص الذاتي مع الهوية الثقافية أو الشعبية لا يمنع في - رأيه - من التناص الخارجي مع الآخر الثقافي والحضاري شريطة أن يكون تناصاً غير مقرون بالدونية وعقد النص :

" فلا تجعل مركب النقص يستولى عليك ... إن روحنا أقوى وأعمق من أن تطفئ عليها حضارة من الحضارات " (٣) .

وبهذا المعنى ، وبهذه الرؤية لم يشأ الحكيم أن يدخل في علاقة تناسية قوامها التبعية السلبية أو المتناهية في مسرح العبت الأوروبي ( حيث الشكل لا ينفصل عن المضمون ) على الرغم من حضوره الطاغى في مآيا ذاكرته النصية ، ولا سيما مآته الثقافية المتأورية .

(١) فن الأدب : ص ١٥ - ١٦ .

(٢) يا طالع الشجرة : ص ١٢ .

(٣) تحت شمس الفكر : ص ١٠٤ .



## الفرق بين مسرح العبث الغربى ومسرح اللامعقول العربى :

من المعروف أن التيار المسرحى الذى أطلق عليه الناقد البريطانى مارتن إسلن اسم مسرح العبث ، وتحدث فيه عن بيكيت ومسرحيته الشهيرة " فى انتظار جودو " التى ظهرت عام ١٩٥٣م ، باعتبارها تمثل الملامح الفنية والأبعاد الفكرية لهذا النوع المسرحى الجديد آنذاك ، كاشفاً عن أصولها فى الفلسفة الوجودية والفكر السيرىالى ، وعما تنطوى عليه من رؤية عبثية قاتمة للوجود الإنسانى ... حيث أدرك فيها بيكيت أن الرؤية العبثية هى رؤية عدمية تؤدى بالضرورة إلى انتفاء القول والفعل من الحياة ، وكذلك من المسرح ، باعتباره تصويراً استعارياً للحياة . ويمكن أن نشير هنا إلى بعض المحاور الأساسية فى مسرح العبث ، بما هو اتجاه فنى ورؤية مسرحية للعالم :

١ - الاغتراب التام للإنسان ، ووحدته فى كون يناصبه العداء ، ويبدو وكأنه ينكر عليه حق الوجود : فمسرح العبث يقدم لنا شخصيات منبوذة ، لا منتحبة . وهو يضع هذه الشخصيات فى صراع دائم يخلو من المنطق والتبرير مع محيط وجودها المادى والمعنوى ، الأمر الذى ينتهى باستسلامها فى يأس وقنوط .

٢ - فكرة اللاجدوى التى تسيطر على كل شىء : فمسرح العبث يرى أن كل الأفعال والأنشطة التى يقوم بها الإنسان ، مهما بالغ فى فلسفة قيمتها ونفعها ، ما هى فى حقيقة الأمر سوى " ألعاب " تسلية لا طائل من ورائها ، ولا تغير من شىء ، وفائدتها الوحيدة هى قطع الوقت ، وقتل الملل فى انتظار خلاص لا يجىء ، فى الرقعة الجدهاء بن ميلاد لا اختيار للإنسان فيه ، وموت كثيراً ما يستعصى عليه ، وإذا جاء لا يمثل خلاصاً أو مولداً جديداً بل يمثل العدم الكامل .

٣ - ترتبط فكرة لا جدوى الفعل بفكرة لا جدوى اللغة فى مسرح العبث . إن اللغة فى مسرح العبث تصبح مجرد أصوات جوفاء ، الهدف الوحيد منها هو درء غائلة الصمت الموحش الذى يلف الإنسان فى وحدته الوجودية ؛ فالإنسان فى مسرح العبث يتكلم " لا شىء " لا لشىء سوى أن يخدع نفسه بهوهم التواصل ، وليهرب من الإحساس المرعب بالخواء الكامل من حوله (١) .

(١) نهاد صليحة : التيارات المسرحية المعاصرة ، ص ١٢٥-١٣٠ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

وقد اكتفينا بهذه المحاور الثلاثة - إلى جانب محاور أخرى - باعتبارها هي المحاور التي يتحاور معها الحكيم ، أو بالأحرى يتناص معها ، بالتماثل أو بالتعارض ، في مسرحيته يا طالع الشجرة - وفي ضوئها يمكن أن تفهم أيضاً لماذا عارضها فكرياً ، وكيف أقاد منها فنياً ، وذلك عند حديثنا عن آفاق التناص في هذه المسرحية . ذلك أن مسرح العيش الغريب - بجدوره الفلسفية العلمية والوجودية الإلهادية - مسرح عيش الشكل والمضمون ، على حد تعبير دارسي الحكيم .

أما مسرح اللامعقول الغريب الذي يقترح الحكيم فهو مسرح عيش الشكل لا عيش المضمون ، وعلى الرغم من أن الشكل ليس يريئاً أو محايداً ، وأن لا مضمون خارج الشكل ، فإننا ملزمون - بداية - برأى توفيق الحكيم نفسه الذي تقوم التفرقة عنده بين العيش واللامعقول على أساس فكري ( روي ) تابع من كونه شرقياً مؤمناً ( عربياً مسلماً ) لا غربياً ملحداً . مؤمناً أيضاً بأن للعقل حدوداً ، على حين أن البصيرة أو الرؤية الالهيية لا نهائية الرؤية تكاملية ، دنيوية وأخروية ، مادياً ومعنوية ، وهو ما يقتقد إليه الإنسان الغريب المعاصر بعد أن خلد العقل ( المادي ) ، وإن هذه البصيرة الالهيية أو الروحية وحدها هي السبيل إلى إعطاء " المعنى " للوجود ، ومن ثم فهي السبيل إلى هدم الحواجز بين اللامعقول والمعقول : بما هي رؤية تكاملية دنيوية وأخروية ، وإن كان كلاهما - اللامعقول والمعقول - مؤثر في الآخر ومتكامل معه<sup>(١)</sup> ، وبهما يزداد الوجود ويثرى معناه . يقول الحكيم :

" اللامعقول - وأخشى أن أكون أنا المستول عن هذه التسمية في مقلمة (يا طالع الشجرة) - ليس معناه عتلى أنه موقف ضد العقل ! فأنا لست من هذه الطائفة ..... إني قصدت عمداً استخدام كلمة (اللامعقول) لأنها هي التي تعبر عن موقفى واتجاهى ، وهى شىء آخر غير مسرح (العيش) كما يسمى في أوروبا وأمريكا - إن " اللامعقول " شىء و " العيش " شىء آخر .

(١) يؤكد الحكيم مراراً أن الكون مليء باللامعقول ، لأن " عقل " الإنسان نفسه عاجز عن فك الكثير من الظواهر أو الظلمات الكونية التي تبدو له عتلى " اللامعقول " ومن ثم لا سبيل إلى " كشفها " إلا عن طريق الحب والتصالح معها ، وسيله إلى ذلك " الطلب " و " الكشف الصوري " ..

مسرح ( العبث ) يتعلق بالشكل والمضمون ، فى حين أن مسرح (اللامعقول) عندى يتعلق بالشكل فقط . بل إن فن (العبث) يبتدىء فعلاً وينبع أصلاً من المضمون ، من فكرة أن العالم عبث ينتهى إلى الشكل العبثى الملائم لهذا المضمون .

أما فى حالتى فإن اللامعقول عندى هو وضع العالم فى إطار اللامعقول ، هو الحائط الفاصل بين المعقول واللامعقول ، ليعيشا معاً فى أسرة واحدة متحابين ، يؤثر أحدهما فى الآخر ، ويزداد الوجود بهما ويشرى ... " (١) .  
ولهذا لا غرو أن يرفض الحكيم الفلسفة الغربية - بمذاهبها المختلفة - باعتبارها آنذاك :

" تتفق فى صفة واحدة يطلقون عليها (الفلسفة المادية) . وليس معنى ذلك عندى أنها فلسفة خاصة بالمادة وحدها ، ولكن معناها أوسع ، ولذلك يمكن أن أسميها " الفلسفة الدنيوية " لأنها تقوم على الدنيا وحدها ؛ لأن منبعها ليس كتاباً سماوياً ، وهو غير ما جاء به الإسلام الذى يذكرنا دائماً أن لنا وجودين : وجود الدنيا ووجود الآخرة ، أى كلما ذكرت الأرض ذكرت معها السماء . وعلى الإنسان أن ( يعمل لدنياه - أى فى أرضه - كأنه يعيش أبداً ، ولآخرفته - أى للسماء - كأنه يموت غداً ) وهكذا إذن كانت لنا فلسفة ، ويجب أن نتحرك فى عالمين وليس فى عالم واحد " (٢) .

وهذه " الفلسفة " تركز على رؤية إسلامية قوامها " أن يعيش الإنسان فى عالمين : دنيوى وأخروى ، مادى وروحى " :

" وهذا يقتضى من الفلسفة العربية الإسلامية أن تدرس الحياة الدنيا جيداً ، وتحاول أن تعرف ما تستطيع معرفته عن الحياة الآخرة " (٣) .

(١) توفيق الحكيم : مسرحية الطعام لكل فم ، ص ١٨٨ .

(٢) توفيق الحكيم : التعاقدية ، ص ١٥ ، مكتبة مصر (١٩٥٥) .

(٣) التعاقدية فى الإسلام : ص ١٥٠ .

ويرى الحكيم أن " دراسة الحياة الدنيا " متروكة لرجال العلم ، باعتبارها شأنًا ماديًا . أداته العقل ، وأن معرفة العالم الروحي أو الأخرى متروكة لرجال الأدب والفن و (الدين) :  
" ولتترك الإنسان من ناحيته المادية لرجال العلم ، فما يهم رجال الأدب والفن هي الناحية الروحية في الإنسان " (١) .

وهذه هي رسالة الأدب والفن في رأي الحكيم ، ومن ثم لم تتجاوز مسرحية ( يا طالع الشجرة ) هذه الرسالة ، بل لعلها أبرز مسرحياته في إبراز الجانب الروحي ، وفلسفة الحكيم الروحية ، باعتبارها النقيض لفلسفة الغرب المادية التي انتهت بالإنسان الغربي إلى اليأس والشعور بالعجز ، ومن ثم الوعي بالعبث الوجودي والإبداعي ، وهو ما ينقذه وينقذه الحكيم فكريًا ، ويقبله ويرضى به فنيًا في الوقت نفسه . على مستوى التجريب .

الأمر الذي يوقع الحكيم - في رأينا - في تناقض إبداعي أو مفارقة فنية ، حتى ولو على مستوى التجريب ، اعتقادًا منه بأن مقدوره أن يختار من مسرح العبث الغربي ما يشاء ، وأن يترك منه ما يشاء ، أي ما بين الشكل العبثي المسرحي أو مضامينه الفكرية ، وأنه أثر اختيار الشكل دون المضمون ( الذي ينضج إلحادًا ) وهنا تكمن مفارقة على غاية الخطورة ، إذ أنه لا مضمون خارج الشكل ، وهو ما يقول به الحكيم نفسه في الفقرة قبل السابقة عند تحديد مفهومه للعقل ، بل إن الشكل - كما نعرف جميعًا - هو المتحكم في المتناسخ والموجه إليه ، وهو هادى للتلقى ؛ القاريء أو المشاهد لتحديد النوع الأدبي ومنهجه الفني ، ولإدراك النص وفهم مضامينه تبعًا لذلك ، ومن ثم كيف يمكن للحكيم أن يختار الشكل ويرفض المضمون ؟ وكيف له أن يفصل بينهما فيكون أحدهما لا عقولاً والآخر عقولاً ؟ ١٤ -

لم يتخذ أو يتشبه الحكيم من هذا المأزق إلا الأغنية الشعبية بظاهرها العبثي وبباطنها المنطقي ( الروحي أو رؤيتها الصوفية للكون والوجود ) على نحو ما سنرى فيما بعد . وأيضًا ما كان هذا المأزق ، فإن الذي يعيننا هو أن المأزق بين مسرح العبث ومسرح اللاعقل يقول : أن الأول قائم على الانحلال العلمي وتاليه منه . والآخر قائم على الانحلال العقلي اللبدي أو الصوفي ، وهو مأزق له ما يبعده في آفاق التناسخ في مسرحية يا طالع الشجرة .

والحكيم يؤكد على اتفاقه مع كتاب العبث الأوربيين من حيث : " تساؤل الإنسان وصمت الكون ، من أنا ؟ ما مصيرى ؟ ما أنت ؟ ما الحياة والموت ؟ ... إلخ . ولكن الإنسان الذى يسأل لا يتلقى من الكون جواباً . وهنا قد استنتج كتاب العبث لا معنى الكون وعيشته " . ونحن - كما يرى الحكيم - نفترق عن كتاب العبث الأوربيين فى أننا لا نلقى هذه الأسئلة على الكون . وهنا تكمن مفارقة أخرى فى رؤية الحكيم :

" إننى أقدم قدماً واحدة عندهم - فى حدود الشكل لا الفكر - واتفق معهم فى صمت الكون ، وهو المبدأ الذى بدوا منه - أما اتخاذى شكلاً مماثلاً لما يتخذونه من أشكال فى يا طالع الشجرة أو غيرها فلم يحفزنى غير أنى أريد أن أجرب وأن أجوب ميدان التجارب المتحررة من الأسس التقليدية فى الفن " .

ويهدف الحكيم من هذا كله إلى " أن نحصل على تطعيم من كتاب العبث مثل أونيسكو وبيكيت ، ومن التنازل والقبول ، ويتميز فى الوقت نفسه بالجدة والطرافة " وهذا ما جعله يتجه لكتابة مسرحيات عبثية كما يقول (١) .

### حدود العقل وآفاق الإيمان عند توفيق الحكيم :

من المعروف أن فلسفة اللامعقول أو العبث قد ظهرت - باعتبارها تياراً فكرياً فى أوربا مع بدايات القرن العشرين - عقب الحرب العالمية الأولى مع اختلال التوازن أو التعادل بين ما هو مادى هائل وما هو روحى غير فاعل ، ففقد الغربيون ثقتهم بالدين والأخلاق والفن والمبادئ السياسية ، ورأوا فى منظومة قيمهم المقدسة ضرباً من الأوهام والأباطيل ، ولم يعد ثمة معنى للحياة أو غاية للوجود ، وانقلب هذا الشعور إلى يأس من كل شىء وإنكار لكل شىء .

ومن المعروف أيضاً أن القضايا التى أفضت إلى الشعور بالعبث ؛ كقضايا الموت والوجود الإلهى ، أو وجود حياة سابقة أو لاحقة ، فضلاً عن البعث والخلود ... إلى آخر تلك القضايا التى عجز العقل البشرى - برغم الثورة التكنولوجية والعلمية - عن الجواب عنها ، هى

---

(١) أحمد سخسوخ : توفيق الحكيم مفكراً ومنظراً مسرحياً : ص ٣٧ - ٣٨ ، ومصادر النقل هناك .

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٩ .

قضايا قديمة قدم الحياة نفسها ، انشغلت بها كل الحضارات والثقافات القديمة والحديثة على السواء . بيد أن الوعي بوجودها والتفكير على نحو فلسفى فيها ، هو الذى أسفر عن فكرة لامعقولية الوجود والكون والحياة .

من لحظات الوعي هذه انبثق التفكير فى هذا كله على نحو بدا معه العالم غامضاً غير مفهوم ، ذلك أنه حينما عجز الفكر الفلسفى الغربى عن فهم هذا الكون - تفسيراً وغاية - اتهمه بالغموض والعبث واللاغاية واللامعنى واللامعقول ؛ على نحو ما فعل كبير كجورد (١٨١٣ - ١٨٥٥) وسارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠) وكامى (١٩١٣ - ١٩٦٠) وغيرهم ممن أعلنوا " موت الإله " ونظروا إلى العالم بوصفه عبثاً لا طائل وراءه ، وأكدوا أنه بلا مغزى ولا معنى<sup>(١)</sup> . الأمر الذى انعكس أيضاً فى نصوصهم الإبداعية ، وتجلياتهم الروائية والمسرحية وغير ذلك من الفنون المختلفة . وكان أبرزها - خلال الخمسينيات والستينيات - التيار المسرحى الذى يعيننا هنا : العبثى بأشكاله ومضامينه العبثية فى المسرح الغربى .

وإذا كان الحكيم عندما شرع - فى مرحلة التجريب - فى البدء بكتابه مسرحية طليعية عبثية قد أثر أن يتناص مع مسرح العبث الغربى شكلاً لا مضموناً . كما سنرى فيما بعد ، ذلك أنه - يرفض على المستوى الفكرى - مضامين هذا المسرح (١) باعتباره كاتياً شرقياً عربياً مسلماً أفاد كثيراً من ثقافة الغرب وثقافة الشرق معاً .

يبرر الحكيم موقفه الرافض لمضامين المسرح العبثى باعتبارها وليدة الفلسفة الغربية الحديثة ( المادية أو الدنيوية ) التى لم تعد تؤمن إلا بوجود عالم واحد ، هو عالم المادة منكرة عالم الروح ، خاصة بعد أن بدأ :

" العقل يواصل انتصاراته بالعلم الذى نشأ عنه وأبدع مخترعاته واكتشافاته التى أذهلت الناس ، وجعلت قدرته تحجب قدرة الله (تعالى) ، حتى أطلق الفيلسوف (نيتشه) صيحته المشهورة : (إن الله قد مات) " (٢) ١٢.

---

(١) انظر : نوال زين الدين : اللامعقول والزمان والمطلق فى مسرح توفيق الحكيم . ص ١٣ وما بعدها .  
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٨ ، ومصادر النقل هناك .

(٢) توفيق الحكيم : التعادلية فى الإسلام : ص ١٦٩ .

وهنا كما يقول الحكيم تكمن مأساة الإنسان الغربى المعاصر عندما أنكر وجود الله ( عز وعلا ) والحكيم يرفض تماماً مثل هذه الرؤية الغربية المتشائمة ، وهو على الرغم من إيمانه بعجز الإنسان ( وهو العجز الذى يدفعه إلى الصراع مع نواميس الكون الحتمية ) وبرغم إيمانه بالله وبالإرادة الإلهية على نحو ما صرح بذلك مراراً ، فى كتبه ( فن الأدب / تحت شمس الفكر / التعاادلة ) :

هذا الموقف من قضية العصر قد وقفته وتأملته ، فالإنسان عندى ليس إله هذا العالم ، وهو ليس حركاً ، ولكنه يعيش ويريد ويكافح داخل إطار الإرادة الإلهية ... هذه الإرادة التى تتجلى للإنسان أحياناً فى صور غير منظورة من عرائق وقيود ، على الإنسان أن يكافح لاجتيازها والتغلب عليها ، فأنبياء الشرق أنفسهم يبعثهم الله ويضع أمامهم العقبات ، فطريق النبى ليس معبداً ، ولكنه يجاهد فى تبليغ رسالته وسط أشواك من غرائز الناس . إن قضية العصر اليوم ، وهى التى تقوم على حرية الإنسان ، سواء باعتباره فرداً أو باعتباره جماعة ، إنما تتحد وتتلاقى فى أمر واحد هو : إنكار الله ، إنكار القوى غير المنظورة التى تؤثر فى مصير الإنسان " (١) .

ويرى الحكيم أن أزمة الإنسان الغربى هى حربه ضد نفسه هادماً ذاته بعد إنكاره الإرادة الإلهية ، حيث :

" لم يعد فى غروره يرى سوى حريته المطلقة لم يعد يرى القوى الأخرى غير المنظورة التى تحرك وجوده وتلاعب بمصيره ، وتستوجب نضاله ، وتتطلب تفكيره " (٢) .

غير أن الحكيم الذى يؤمن بوجود هذه القوى غير المنظورة ، والمؤثرة فى مصير الإنسان وفى إرادته وحرية ، وتؤكد الشعور بعجزه أمام هذه القوى ينبغى ألا يستسلم لها ، بل هى عنده الحافز الأعظم للكفاح (٣) ودافعه الأقوى للاكتشاف النبيل والدائم لنفسه ولقواه :

(١) التعاادلة فى الإسلام : ص ٦٠ .

(٢) التعاادلة : ص ٦٢ .

(٣) التعاادلة : ص ٦١ .

"ولكن كيف السبيل ؟ وفى أى طريق يسير ؟ لا بد له من هداية ، لا يد له من نموذج . هذا النموذج هو إدراكه للأرقى ، هذا الإدراك للأرقى هو دليله الذى يقوده فى طريق الحياة الإنسانية ، هو حافظه للتطور " (١) .

وليس من سبيل إلى إدراك هذا النموذج الأرقى عند الحكيم إلا من خلال عقيدة دينية هى ضرورة إنسانية فى المقام الأول غير أن إنسان العصر الحديث سرعان ما تجاهل هذه الضرورة الإنسانية اعتماداً على العقل وحده :

" واستمر التفكير العقلى يتطور لوحده فى قفزات باهرات ، جعل العصر الحديث ينسى النموذج الأسمى ، وهو الكائن الأرقى ؛ أو فكرة الله ، ولا يرى غير العقل المنتصر بمفرده " (٢) .

وكان من جراء ذلك أن أفضى به طريق العقل وحده إلى أخطر النتائج على إنسان العصر الحديث وموقعه من الكون ، إذ اعتقد :

" فعلاً بأن الإنسان وحده لا شريك له فى هذا الكون ، وأنه إله هذا الوجود ، وأنه حر تمام الحرية . وبهذا الجواب - الذى قضى على تعاليم الأديان - ختم العصر على نفسه بطابع المادية ... وينجم عن ذلك أيضاً خضوعه للنتائج المترتبة على سيطرة العقل وحده . ومنها حرية الإنسان فى هذا الكون تبعاً لحرية فكره ، وإنكار كل ما لا يثبت بالبحث والاختيار ، ومن ثم إنكار إرادة أخرى غير إرادة الإنسان ، أو وجود آخر غير وجوده ، وكان لهذا الاختلال نتيجته الطبيعية ، وهو القلق ؛ فالقلق السائد فى النفوس اليوم مبعثه هذا الاضطراب فى ميزان التعادل بين العقل والقلب ، بين الفكر والإيمان " (٣) .

---

(١) التعادلية : ص ٦٣ .

(٢) التعادلية : ص ٦٥ .

(٣) التعادلية : ص ٤٥ - ٤٦ .



وذلك كله علي التقيض من الرؤية الكونية العربية التابعة من ( روح الشرق ) و ( الثقافة الشرقية ) و ( العقيدة والفلسفة الإسلامية ) التي تقوم على التصالح والتكامل أو التعادل بين قوة العقل ( العالم المادى ) وقوة الإيمان ( العالم الروحى ) أى بين نشاط التفكير ونشاط الإيمان ، وعلى نحو ما فعل كبار فلاسفة المسلمين وعظماء فقهاءهم فى دعوتهم للتكامل بين هذين العالمين أو النشاطين :

" وقد واجه الفيلسوف الإسلامى ابن تيمية هذا الموقف وعرضه فى كتابه (درء تعارض العقل والنقل) . كما إن القارىء لابن رشد وابن سينا يشعر بما يبذلانه من جهد للعبور بأمان من خلال السور الذى يفصل بين العالمين " (١).

وهو ما آمن به الحكيم أيضاً وأعلنه مراراً فى كثير من كتبه ومسرحياته وموضوعاته الرئيسية المتكررة ( الثيمات ) ، ورأى أن العقل وحده ليس السبيل الأمثل إلى الخلاص من أزمة الإنسان المعاصر . ولئن يؤدى به إلى الشعور بالأمن والأمان ، وأن لا سبيل لذلك بغير الإيمان ( لاحظ الجذر اللغوى المشترك بين الأمن / الأمان / الإيمان ) لأن العقل محدود وعاجز ، ليس لأن الجزء لا يدرك الكل فحسب ، بل لأن الله تعالى أيضاً " خارج حدود العقل البشرى " على حد تعبير الحكيم . ومن ثم فلا سبيل إلى إدراك الكل و " فكرة الله " إلا عن طريق القلب والحدس الصوفى ، وهذا يعنى أن كلاً من العقل والقلب مسخر لما خلق له ، ومن ثم لا ينبغى الخلط بين الوظيفتين حتى لا يفقد إنسان العصر توازنه وسويته ويصبح فريسة للقلق الوجودى أو يقع فى هوة الإلحاد كما يقول الحكيم :

" ولعل هذا سبب من أسباب الإلحاد . فنحن حين نسأل العقل أن يصنع لنا صورة الله فإنه يخفق ، وبدلاً من أن نضحك ونهزأ بالعقل نضحك ونهزأ بفكرة الله ، فلنؤمن إذن بالقلب وحده ، تلك قوته ، ولندع العقل يفكر فى مجاله ( المادى / الدنيوى ) وحده ، تلك أيضاً قوته ، وهذا التعادل بين القوتين يكفل سلامة الشخصية الإنسانية " (٢) .

(١): التعادلية : ص ٢٩٦ .

(٢): التعادلية : ص ٥١ - ٥٢ .

ذلك أن الإنسان عند الحكيم مكون من العقل والقلب ، والخلط بينهما فى نظره عبث ، فالإنسان : الكائن الوحيد الذى يدرك ويعى الأرقى إنما يتوسل إلى هذا الإدراك والوعى بوسيلتين : المنطق المنبعث من العقل والإيمان المنبعث من القلب ( ... ) إن الخلط بينهما عبث .. كما أن إخضاع كل منهما لمقومات غيره عبث أيضاً :

" فالعقل يجب أن يشك دائماً ويطلب بالدليل ... والقلب يجب أن يؤمن دائماً ويعنى من الدليل .. كل منهما يجب أن يجرى فى فلك مستقل فالحكيم فى نظره إنما يعالج هذه القوى ، والفكر والعمل ، والعقل والقلب ، الفكر والإحساس .. إلخ . على اعتبار أنها قوى متعادلة متوازنة وغير متصارعة ولا متناقضة ، ومنفصلة فى الإنسان ، وما حياة الإنسان على الأرض إلا كفاح من أجل إقامة التوازن بين هذه القوى المتوازنة " (١) .

وهذا يعنى أن العقل محدود والمعرفة العقلية محدودة بما هو فيزيقى . أما الإيمان ، فطريقه المعرفة القلبية .

" فلنترك للقلب إذن أمر تلك الحقيقة الثابتة (٢) ، حقيقة الإيمان لأن الإيمان لا برهان عليه من خارجه . إنى أؤمن بأنى لست وحدى فى هذا الكون ، لأنى أشعر بذلك " (٣) .

وبغير هذا الشعور الروحى الإيمانى سوف يبقى الإنسان عاجزاً أمام مصيره فى النهاية (٤) ، ومن ثم يفقد الوجود معناه والكون مغزاه ، على نحو ما حدث مع أصحاب الاتجاه العدمى .

(١) انظر أحمد سخسوخ : توفيق الحكيم مفكراً ، ص ٤٤ ومصادر النقل هناك ، ومن المعروف أن نظرية " التعادلة " عند توفيق الحكيم إنما تقوم أساساً على الثنائية التعادلة التى تعتمد على التوازى والتفارق لا على التناقض والتفاعل ... فالموازونات لا تتلاقى ولا تدخل فى صراع ديكارتى ، والذى هو علم القوانين العامة للحركة فى الطبيعة والإنسان (م.ن) .

(٢) التعادلة ، ص ٥٨ .

(٣) التعادلة ، ص ٤٩ .

(٤) التعادلة : ص ١١٤ ، ويقصد الحكيم بهذه النواميس : قانون الزمان وقانون المكان .. إلخ .

وأرباب الفلسفة الوجودية وأنصار الرؤية العيشية ممن يفتقدون الإيمان بوجود عوالم أخرى وراء الظواهر الطبيعية ، تكتسب فيها الظواهر العارضة والمتناقضة - فى عالمنا المادى - معناها الكلى والتكاملى ، بل أيضاً حقيقتها الخالدة .

وهذا الشعور الإيمانى أو الداخلى على حد تعبير الحكيم - وأداته القلب - هو فى رأيه ورؤيته ضرب من الحدس أو المشف الصوفى أو " المعرفة الصوفية " أو " النور الإلهى " على حد تعبيره ، فذلك هو سبيلنا الأمثل إلى الإيمان وتحقيق " النفس المطمئنة " أو الأمان الروحى . ويعود إيمان الحكيم بهذه الحقيقة ؛ لأنه يؤمن أيضاً بأن الإنسان ليس الكائن الوحيد فى هذا الكون الذى لا يزال مجهولاً ، عالم لم ولن يعرفه العقل ، لا بمعادلاته ولا بتلسكوباته - على حد قوله - وحيث " المعرفة العقلية " محدودة ، ومن ثم لا سبيل إلى " منطقة الإيمان " إلا من خلال " المعرفة الروحية " :

" النور الإلهى هو الذى يصلنا بهذا المجهول ، ولذلك فإن من اعتمد على العقل وحده فى الاتصال بالله لن يراه ... أما النور الإلهى فهو الذى قد يرنا شيئاً آخر يوحى إلينا بوجود لا يعرفه غير القلب . وللوصول إلى المعرفة الكاملة، فلا ينبغي للعقل أن يطفى على القلب فلا ينتفع بنوره ، ولا أن يطفى القلب على العقل فيخسر تفكيره المنتج والإسلام مارس هذه التعادلية " (١) .

ولا يفتأ الحكيم يردد هذا الرأى / الرؤية ، ويكرره فى كثير من كتبه منذ بواكير حياته ، مثل فن الأدب ، والتعادلية ، ويقتطع الفكر ، وغيرها . يقول مثلاً فى كتابه تحت شمس الفكر (١٩٣٨) :

" وقد سبق أن بينت فى كتابى ( تحت شمس الفكر ) فى فصل بعنوان ( منطقة الإيمان ) كيف أن العقل والإيمان يمكن أن يعيشا معاً جنباً إلى جنب فى كيان الإنسان ... بأشعة العقل ومنطقه ، وحرارة القلب وإيمانه يستطيع الأدمى أن يحيا حياته الكاملة . ولعل أزمة الحضارة الحديثة - كما قلت أيضاً - أنها لم تحقق للإنسان حياته الكاملة ؛ فهو على الرغم من تألق العقل البشرى على

نحو لم يسبق له نظير ، يشعر ينقص ، وهذا النقص يبعث فيه القلق الذى أصبح من سمات هذا العصر الذى نعيش فيه " (١) .

وبهذا تكون النزعة الصوفية أو الروحية عموماً عند الحكيم نزعة إيجابية لا سلبية ، تجمع بين الدنيا والدين على نحو ما سنرى فيما بعد ، أو على نحو ما ظهرت عليه شخصية الدرويش فى مسرحية ( يا طالع الشجرة ) ، فهى تتحدث بلغة الواقع أحياناً ، لكنها تبصر - بلغتها التنبؤية أو الرمزية - ما وراء الواقع ؛ مما يستحيل على العقل إدراكه ، تماماً كما استحال على المحقق فى المسرحية أن يتجاوز حدود الواقع والمنطق الصورى . ومن ثم فالعقل البشرى لن يكون بمقدوره تجاوز الواقع والمعقول إلى غير الواقع وغير المعقول ( بمقاييسه المحدودة ) لاكتشاف " الحياة الكاملة " للإنسان الكامل ، والخروج به من دائرة العبث أو العجز أو القلق الوجودى الذى تفشى فى المسرح عقب هيمنة " الاتجاه العدمى " Nihilism كما ذكرنا من قبل ... ويكمن ذلك فى رأى الحكيم إلى أن :

" أزمة الإنسان الآن ، وفى كل زمان ، هى أنها تتقدم فى وسائل قدرتها أسرع مما تتقدم فى وسائل حكمتها " (٢) .

ولذلك لا غرو أن تشكل قضايا المصير الإنسانى وصيانتته من الدمار محوراً أساسياً فى فكر الحكيم ونصوصه المسرحية ، إيماناً منه بأن رسالة الأديب ( الجوهريّة ) تكمن فى توجيه " مصير العالم " نحو الأكمل والأجمل والأمثل :

" فإنى أومن بأن للأدب وللأدباء مهمة كبرى هى صيانة الإنسان من الدمار ، كما أن للأدب والأدباء رسالة عظيمة هى السير بالعالم إلى مصير أكمل . هذا ما قلته من قبل ، وأقول الآن مرة أخرى دون يأس أو ملل ، لأن أديب اليوم إذا لم يشعر أنه مسئول عن مصير الإنسان وحضارة الإنسان فى الغد... فقد نام الحارس الوحيد للحضارة الإنسانية " (٣) .

(١) التعادلية : ص ٦٠ .

(٢) أدب الحياة ، ص ١٧٠ ، مكتبة مصر ، ١٩٧٦ .

(٣) أدب الحياة : ص ١٧٢ - ١٧٣ .

ولما كانت هذه الرسالة الجوهرية في إبراز نقض الإنسان - أمام عجزه البشرى وعدم فهمه  
لأوامر الكون - هو ما فعله أو حاول معالجته في الكثير من نصوصه المسرحية : مثل أهل  
الكهف وشهرزاد وسليمان الحكيم وجمالليون والملك أوديب وغيرها : فإنه في مسرحية ( يا  
طالع الشجرة ) بما هي مسرحية طليعية يرى الحكيم أن التجريب فيها ينبغي ألا يتوقف عند  
مهمة التجديد في الشكل ، بل يتعداه إلى المضمون ( الإنسان ومسيره ) الذي بات اليوم  
أكثر أساسية من ذي قبل ، ويدعو فيها إلى بناء عالم جديد ، عالم روحى يعطى للحكيم  
منطقه وفلسفته وللحياة معناها وينفى عنها ما قد تنطوى عليه من عبث من وجهة نظرنا ،  
شئنا يؤكد أن للوجود مغزاه وتكامله ، فيتجاوز بذلك معطيات " العقل المادى " أو " الوجود  
والعدم " الأسرى الذى ينبغي أن يجد صدهاء فى الإبداع المسرحى والفنى عمومًا ، باعتباره تجليًا  
استعاريًا لواقعنا ؛ فيقول :

" أمام المسرح الجديد ( غير مهمة التجديد فى الشكل ) مهمة التجديد فى  
المضمون . إن عالمنا الجديد ليس مجرد عالم يائس عاثر ، يعيش أزمة سوداء ،  
ويتحدث عن ( لا جدوى ) الحياة . أظن هذه النظرة خاصة بجيل معين وظروف  
صعبة ، إنه شباب ما بعد الحرب العالمية الثانية من الكتاب والفنانين فى  
أوروبا ، لكن هناك أيضًا عالمًا جديدًا يبنى نفسه ، وهذا البناء الجديد يؤدي حتمًا  
إلى نظرة جديدة إلى كل القيم ، ليست نظرة سوداء ، بل هى نظرة جادة فاحصة  
منشئة ، لا ترى الدنيا عبثًا متكررًا ، بل تراها خلقًا مستمرًا .. " (١) .

وهى رؤية قوامها العودة إلى القيم الروحية . ذلك أن :

" بصيرتنا الدينية هى المنبع وهى الموجه لبصيرتنا العلمية ، وما من شىء  
يرينا دائمًا قدرة الله إلا عجزنا البشرى " (٢) .

ومن ثم فالكون لم يخلق عبثًا ، والعلم طريق للإيمان ، لكنه يظل عاجزًا عن فهم أسرار  
الكون والوجود ، وخاصة فى مجال الروح حيث " الروح من أمر ربي " على حد قول الحكيم فى

(١) الطعام لكل فم ، ص ١٩٩١ .

(٢) توفيق الحكيم ، فن الأدب ، ص ٩٨ .

مقال له بعنوان " قل الروح من أمر ربي " (١) يعلن فيه الحكيم إيمانه المطلق بالروح باعتبارها مصدر الخلود ، يقول :

" إن الروح ثابتة والعلم متغير ، وفي هذا دليل على أن الروح - لا العلم - هي مصدر الخلود " (٢) .

هذا العالم الجديد ، بقيمه الروحية قبل المادية - باعتباره سبيلنا إلى الخلاص - هو الذى يؤمن به الحكيم ، وهو الذى حاول أن يعبر عنه فى مسرحية ( يا طالع الشجرة ) ، بدلالاتها الروحية المتعاقبة والمتماهية مع الأغنية الشعبية ( يا طالع الشجرة ) بدلالاتها الروحية العميقة ( لا العيشية كما نتوهم ) ، على نحو ما نشرع فى تفصيله وشيكا ، ومع سائر النصوص والرموز الشعبية المختصة - بدلالاتها الروحية أيضاً - مع المسرحية .

ولم يكن صنيع الحكيم فى تجسيد هذا العالم الجديد - وفى إبراز القيم الروحية وما تتضمنه من خلاص لإنسان العصر - جديداً تماماً ، فالحكيم منذ تكوينه الفولكلورى (تنشئته الاجتماعية والثقافية ) شديد الإيمان بالقيم الروحية أو ما أسماها بروحانية الشرق - فى نزعتها الصوفية ( الإشرافية لا الطقوسية ) التى سيطرت على توفيق الحكيم ( أو محسن ) فى ( عصفور من الشرق ) ، بعظمتها وأصاله جذورها وعراقة منابعها ، منذ الفترة الباريسية (١٩٢٥ - ١٩٢٨) باحثاً عن الروح ( فى مواجهة الآخر المؤمن بالمادة ) وتشتعل الرغبة لدى الحكيم (محسن) ثانياً فى (عودة الروح - ١٩٣٣) فى البحث عن منابع هذه الروحانية الشرقية التى أخذت تتنامى وتتعاظم وتقلأ عليه حياته ، وحيث " البعث نشيد مصر الخالد " . ومن هنا :

" ظل ينقب عن منبع مبرائه الشقافى والروحى فى ( رواسب ) الآلاف من السنين الكامنة فى ضمير مصر ، ريفها وأهلها " (٣) .

(١) توفيق الحكيم ، فن الأدب : ص ٩٤ - ٩٨ .

(٢) نفسه : ص ١٠١ .

(٣) يقظة الفكر : ص ١٠٣ ، انظر أيضاً تحت شمس الفكر ، ص ٣٠ .

ومن هنا تحققت واحدة من أقصى أمنائه إبان المرحلة الباريسية :

" ألا يخرجنى العلم من ذلك الإيمان الذى كان يضىء قلوب المصريين القدماء ، إيمان قريهم من الخالق ، فإذا هم يبصائرهم العجيبة أول آدميين استطاعوا فهم أسلوب الله ، والنفوذ إلى قوانين إبداعه " (١).

وقد دفعته هذه النزعة الروحية ( الشرقية أو الإسلامية ) إلى الإيمان بأن الله يريد :

" أن تعيش الأحياء طبقًا لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تغلب على عناصر الفناء ، بما هبأ لها من مناعة طبيعية أو مناعة اكتسابية . والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية ، فلتن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد للأخرة الصحيحة ، فإن الإسلام بلا مراء هو دين الصحة فى كل شىء " (٢) .

بما هو دين يتميز بالروحية الكونية التى تعترف بكل الرسل ، على نحو ما يؤكد الحكيم ، ذلك أن الطويفة الجوهرية للدين هى التغلب على خطر الفناء وضروب القلق التى يشيرها الحاضر ، وذلك باستيعاب الإنسان ( الدنس ) داخل العمليات اللامتناهية التى تجرى فى كون ( مقدس ) ، شريطة أن يكون هذا الدين " المثالى " هو الدين الإسلامى فى صورته النقية والفطرية والبسيطة ، وهنا يتساءل الحكيم : هل أبسط من الإسلام شريعة ، وهى لا تعرف " رجال دين " كهنوتيين ؟ ممن يجعلون " الدين " سلمًا " للدنيا " لا " الدنيا " سلمًا " للدين " على حد قوله (٣) . وشريطة أن تكون الرؤية الصوفية أيضًا تجربة ذاتية ، فكرية أو عرفانية ، حيث الطريق إلى الله سبحانه وتعالى فى رأى الحكيم يحتاج إلى مجاهدة روحية لا إلى طبول وبيارق أو سيوف حديدية أو خشبية ... إلخ .

(١) تحت شمس الفكر ، ص ٦٤ .

(٢) نفسه : ص ٣٠ .

(٣) نفسه : ص ٣٠ .

ومجمل الأمر : إن الرحلة الإيمانية للحكيم منذ المرحلة الباريسية قد أفضت به إلى تلك الرؤية الدينية والنزعة الصوفية المؤمنة بالذات الإلهية الأزلية الأبدية ، حيث الإيمان بها يفضى إلى التواصل معها ، فتنتفى عندئذ الرؤية العيشية للكون ، ويتحقق للوجود مغزاه وللحياة معناها ، ذلك أن الإيمان - كما يقول الحكيم :

" متصل بالقدرة الإلهية غير المحدودة ... و ( كما وجدت الدنيا وجدت إلى جانبها الآخرة ... حتى الموت ليس فى حقيقته إلغاء لوجود ، ولكنه انتقال لموجود من وجود إلى وجود ) . و ( الوجود الميتافيزيقى وسبيله " الفلسفة الدينية " و " المعارف الصوفية " ينقص الوجود الطبيعي ) " (١) .

وهنا تكمن عبقرية " الروح الشرقى " وخصوصية " الثقافة الشرقية " المؤمنة حيث ثمة "منطقة للإيمان " ثابتة بالفطرة ، على نحو مائز ومفارق " للثقافة الأوروبية " (٢) وفلسفاتها المادية التى تزعم أن الله مات (١) ولمنطقها الذى يسعى خطأ جهلاً إلى تفسير ظواهر الحياة الدنيا بمناهج السببية المادية دون غيرها ، وبكل ما تنطوى عليه بعدئذ من خواء روحى أفضى بها إلى الشعور بالعجز والعبث واليأس والإلحاد ، ذلك أنه لا يمكن بل يستحيل فهم الألوهية أو المعرفة الكونية من خلال هذه القوانين المادية التى انتهجها العقل البشرى :

" إنما قوة الدين وحقيقته فى العقيدة والإيمان بالذات الإلهية .. وهنا لا سبيل إلى الدنو من تلك ( الذات ) إلا عن طريق يقصر عنه العلم الإنسانى ... لأن العلم معناها الإحاطة ، ( والذات الأبدية ) لا يمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية الوجود ، فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل ، ها هنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر " (٣) .

ولذلك لا غرو أن يقرر الحكيم ، برؤيته الإيمانية ونزعته الصوفية ، أن الدين - وعالمه السماء - هو وحده القادر على فض مغاليق الكون وكشف أسرارها ، ومن ثم :

(١) التعادلية : ص ١٥٤ - ١٥٨ ( بتصرف ) ..

(٢) انظر : تحت شمس الفكر : ص ١٣ ، ٨٨ ( والمصطلحات هنا للحكيم ) .

(٣) نفسه : ص ١٦



" فالدين هو الطريق لحل اللغز الأكبر ، وسبيل للنفوذ إلى المجهول الأعظم " (١) .

وحيث نرى الحكيم :

" يؤمن باللامعقول ويقصور العقل بوصفه أداة لفهم الوجود : لكنه يقيم علاقة من الحب بينه وبين الوجود ويتعاطف معه ليفهمه ، فهناك من الوسائل ما يجد العقل فيها معيّنًا على فهم هذا الوجود ، مع استعداد فطري يحظى به الحكيم في تأويل مظاهر الكون المختلفة تأويلاً صوفيًا ، مستلهمًا معطيات تراثنا الإسلامي بصفة عامة وموقف المتصوفة من الكون بصفة خاصة ، حيث المعرفة اللدنية والغوص في أعماق الأشياء للوصول إلى المعرفة عن طريق الكشف . ذلك أن الوحدة النهائية التي تحل فيها كل المتناقضات والمتقابلات يمكن الوصول إليها عن طريق المعرفة النورانية : هذه المعرفة المطلقة التي تحمل في طياتها الاتصال الروحي بالله ومملكة الله " (٢) .

ومن ثم فالحكيم يدعو إلى عقد صلات الحب مع عالمنا " اللامعقول " حتى نستطيع أن نفسر غموضه ، كما يذهب هو إلى ذلك مستعينًا بثقافة شمولية ، وقدرة بارعة على التأمل والتغلغل في أعماق الأشياء وتجاوزها إلى ما وراء العالم الظاهر للعيان ، ليراه في أبعادها المختلفة والمتكاملة . وهو يستعين في ذلك بلحظات من المعرفة النورانية والتجليات التي تشبه ما قالت به الصوفية من قبل في لحظات الكشف المعرفي اللدني . وهو ما نراه في معظم أعمال الحكيم المسرحية (٣) .

---

(١) نفسه : ص ١٥ .

(٢) انظر اللامعقول (م.س) ص ٢٣ - ٢٤ ومصادر النقل هناك .

(٣) مثل أهل الكهف ، وشهرزاد ، وبجماليون ، وسليمان الحكيم ، وأوديب ، والدنيا رواية هزلية ، ورحلة صيد ، ورحلة قطار ، ولو عرف الشباب ، وفي سنة مليون ، وفي الطعام لكل فم ، وفي بيت النمل ، وفي يا طالع الشجرة .

ولن يكون ذلك عن طريق العقل ، بل عن طريق الإيمان ، بما هو نزعة فطرية كامنة فى الإنسان ، أو بما هو نزعة اعتقادية سماوية أو رؤية صوفية ... وبهذا الإيمان الروحى يصبح للوجود معنى ، قد لا تدركه - لأول وهلة - حين نضل ( الطريق ) ولكن ذلك ليس مستحيلاً ، حتى إذا ما اهتدينا إلى هذا ( الطريق ) فسوف يصبح عندئذ اللامعقول معقولاً . وهنا تقترب المسافات التناسية وتتلاقى فكرياً - على مستوى التناس الذاتى - بين رؤية الحكيم الفكرية العامة ورؤيته الإبداعية فى مسرحية يا طالع الشجرة من ناحية ، وبينهما معاً وبين الرؤية الصوفية لأغنية يا طالع الشجرة من ناحية أخرى .

فالحكيم فى رؤيته الفكرية والإبداعية مهموم بمصير الإنسان أمام عجزه الوجودى ؛ بما هو قضية القضايا فى معظم نصوصه المسرحية ومؤلفاته الفكرية والدينية<sup>(١)</sup> ومعنى بصيانه من الدمار على حد تعبيره ، ويرى فى الدين والإيمان بالذات الإلهية سبيلاً إلى الخلاص والانتعاق من هذا العجز ، وهو ما تؤكد المسرحية أيضاً بنزعتها الصوفية .

وتؤكد الأغنية الشعبية ( يا طالع الشجرة ) بما هى أغنية صوفية الأصل ؛ ترى فى الدين والإيمان والتصوف سبيلاً إلى الخلاص ، وطريقاً إلى الانتعاق من هذا العجز ... وهنا بدأت آفاق التناس بين المسرحية والأغنية تتخلق وتتحدد ضمن رؤية فكرية للحكيم المفكر وللحكيم المبدع ( المؤلف الضمنى ) على حد سواء .

ومفاد هذه الرؤية أن العالم عالمان ، أحدهما عالم مادى وسيله العقل ( السببية المادية ) وعالم روحى وسيله القلب ، وسمته الإيمان بالغيب ، وفى القرآن إشارة مؤكدة لتجاوز هذه الثنائية ، تلك هى الإيمان بالغيب فى قوله تعالى فى سورة البقرة : « الذين يؤمنون بالغيب » ولا يقصد القرآن بالغيب ما يعرف بالغيبيات التى توصل أبواب العقل فتمنعه من تجاوز ما وراء الحواس الخمس ، وما يصله إليه منها وحدها ، إنما يهدف القرآن الكريم من الإيمان بالغيب : تقدير الإنسان بوجود ما وراء حواسه وما بعد المادة ، فيعمل جهده وعقله ووجدانه حتى يصل إليها ، حيث تنفتح أمامه أبواب الغيب ، باباً بعد باب ، وعلماً إثر علم ، حتى

(١) انظر للحكيم بعض مؤلفاته الدينية مثل : « محمد ﷺ سيرة حوارية (١٩٣٦) - أرنى الله "قصص

فلسفة" (١٩٥٣) - مختار تفسير القرطبي (١٩٧٧) - الأحاديث الأربعة "فكر ديني" (١٩٨٣) .

يصل إلى الحقيقة الكونية والحقيقة الإلهية التي هي أبعد ما تكون عما يصل إليه من الحواس وحدها ، وأشمل مما يدركه العقل المقصور على المادة والقوانين المادية .

لقد كانت البشرية - وما زالت تنتظر الإنسان الذي يتوهج فيه النور الإلهي على حد تعبير الحكيم وتتألاً به الكلمة العظمى ، فيكون من الشرق روحانيته الرشيدة ، ومن الغرب عقلانيته السديدة ، ومن الكون أغواره البعيدة وسيمولوجيته الأكيدة .

أما اعتماد الفكر الغربي على عالم العقل المادى وحده فهو الذى انتهى به إلى الفلسفة العدمية أو المادية - على حد قوله - والشعور بعشبية الوجود ، على حين أن الإنسان الكامل ( وهذا التعبير بتعالقاته الصوفية ) هو الذى يؤمن بالعالمين معاً ، عالم المادة وعالم الروحى ، فيكتشف عندئذ " المعنى " الكامن فى الوجود ، وتطمئن نفسه ، ويتحقق الأمن النفسى أو الأمان الروحى الذى افتقده إنسان العصر الحديث ، على نحو ما تعالجه مسرحية ( يا طالع الشجرة ) .

### مسرحية يا طالع الشجرة والبحث عن المعنى :

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ « قرآن كريم - المؤمنون (١١٥) » .

لما كانت المسرحية عشبية الشكل فقد كان من الطبيعى - كما ذكرنا - أن تكون عشبية المضمون أيضاً ؛ حيث لا مضمون خارج الشكل . هكذا يعترف الحكيم نفسه بأن " .... مسرح العبث يتعلق بالشكل والمضمون ... من فكرة أن العالم عبث ينتهى إلى الشكل العبثى الملائم لهذا المضمون (١) . وأن المسرح - آخر الأمر ، شأنه شأن كل الفنون - ليس إلا صورة استعارية لهذا العالم .

وقد رأينا من قبل أن مسرح اللامعقول للحكيم مضاد فكرياً ، ومعارض على طول الخط لمسرح العبث الغربى ، ومن هنا كانت محاكاته لمسرح العبث قائمة على الشكل فقط لا المضمون . الأمر الذى سبق أن تحفظنا عليه فى فقرة " الفرق بين مسرح العبث الغربى ومسرح اللامعقول العربى " .

يقول الحكيم إن الاعتماد على الشكل لا يعنى أنه بلا مضمون ، ولكن الاعتراض أو المفارقة هنا أن الحكيم يختار الشكل العبثى لمضمون لا عبثى أو معقول . حتى لو سماه

(١) مسرحية الطعام لكل فم : ص ١٨٨ .

الحكيم باللاواقعية الشعبية الفكرية التي لا تعنى شيئاً فى رأينا سوى عبثية الشكل الشعبى اللامعقول ، وإن زعم الحكيم غير ذلك .

" وهذا الاتجاه الذى تسير فيه هذه المسرحية وإن كان مسائراً لاتجاه ما يسمى بالمسرح الجديد اليوم فى تحرره من الواقعية . إلا أنه لا يخضع لنوع معين فيه ، فإن طبيعته الشخصية من جهة ، واستلها مأتى الشعبية المصرية من جهة أخرى لها دون شك - وربما على رغوى - دخل كبير فى تكييف نوعها تكييفاً خاصاً يمكن أن أسميه الآن مثلاً : ( اللاواقعية الشعبية الفكرية ) " (١) .

ومن غير ما تلاعب بالألفاظ أو مراوغة كامنة فى مصطلح الحكيم " اللاواقعية الشعبية الفكرية " فإنه يعنى به قضية المعنى ، انطلاقاً من إيمانه بأن لا نص مسرحياً بلا مضمون أو أساس فكرى - على تعبيره - يشكل ركيزة التناص الأساسية - فى هذه المسرحية - مع الأساس الفكرى المائل للأغنية الشعبية ( يا طالع الشجرة ) أيضاً ، كما سنرى عند حديثنا عن آفاق التناص بينهما .

وقد رأينا من قبل أن رغبة الحكيم التجريبية تسعى إلى التجريب فى إطار عبثية الشكل وعقلانية المضمون ؛ على اعتبار أن " المعنى " مكون بنائى ودلالى ( وحدة الشكل والمضمون ) ، وخاصة فى النص المسرحى (٢) ، ومن ثم كان عليه البحث عن معنى منطقى لا عبثى ؛ كما يقول :

" عندما أريد استلها م فننا الشعبى ( اللامعقول ) فى مسرحية فإن الأمر يختلف قليلاً ؛ فالمسرحية لابد أن تحمل معنى ، ولا يكفى المعنى الداخلى فى ذاته تشكيلها ، ربما استطاع الشعر - وخصوصاً السريالى والدادى - أن يحمل معنى وجوده فى ذات صياغته ، ولكن المسرحية وكذلك القصة ، لابد أن تقول شيئاً . فالمسرحية لا يمكن أن تقوم إلا بأشخاص ، والأشخاص لابد أن يتكلموا ، وإذا تكلموا فلا بد أن يقولوا شيئاً ، وإذا لم يقولوا شيئاً وقفت المسرحية . المسرحية عمل إنسانى ، أى تعلق بذات الإنسان ... ولابد لها من الإنسان .

(١) يا طالع الشجرة : ص ١٣ .

(٢) نفسه : ص ١٤ .

إنها كون ، والإنسان واقف فيه يتكلم ويحاور ويسأل ، ويجاب ، أو يريد أن يجاب ، وموقف الإنسان في الكون موقف عجيب . إنه يريد دائماً أن يتكلم وأن يسأل وأن يتلقى جواباً ، فإذا صمت الكون عنه فالويل للكون ... أنه يبدو عندئذ عيباً من العيب في نظر هذا الإنسان ، المسمى أحياناً ( البيركامو ) وأحياناً أخرى أسماء أخرى كثيرة في مختلف البلاد واللغات ... إنهم على استعداد دائماً لتحطيم هذا الكون أو تحطيم أنفسهم إذا لم يجدوا عنده الجواب الصريح ... ولكن الكون لا يتحطم إلا في نظرهم ... إنه قائم دائماً لا يقول شيئاً ... وهو مع ذلك يقول كل شيء " (١) .

وإذا كان هذا اللامعنى ، أو بالأحرى المعنى الخفى للعالم أو للوجود والكون والمصير غير واضح للأوروبي الذي خرج من حرين عالميتين دفعته إلى الكفر بكل القيم السياسية والدينية والاجتماعية والأخلاقية والفكرية ، فإنه - المعنى الخفى - لا يزال واضحاً بالنسبة للشرقي المؤمن ( العربي المسلم ) .

وهذا يعني أن العيب أو الجهل بالمعنى كامن في الإنسان الغربي بوجوديته الملحدة ، في إنكاره لوجوده الله ... واعتماده على العقل الذي انتهى به إلى الإلحاد ، والعجز عن قراءة أو فهم سيملوجية الكون الذي ظن أنه لا يجيب عن تساؤلاته ، مع أنه يقول كل شيء ، فكان أن عجز عن فهمه وسعى إلى تحطيمه وهو في الحقيقة يسعى إلى تحطيم ذاته - الأمر الذي أفضى به إلى التزوج نحو مسرح العيب الغربي ورؤية السلبية للوجود ؛ مع أن أية قراءة سيملوجية للكون - وأداتها القلب قبل العقل - تؤكد وجود الله عز وجل ، وتدعو للإيمان به . فيتحول عندئذ إلى كتاب مفتوح يبرح بأسراره الكبرى لكل ذي بصيرة قلبية ، ولكن أتى مثل هذه القراءة لإنسان " مادي " لا يؤمن إلا بالعقل الذي انتهى به إلى دائرة مغلقة ، جعلت كل محاولة للاقتراب من الكون ومحاورته وقهم لفته ضرباً من العيب .

ويرى الحكيم أن قتنا الشعبي عميق عمق الكون ، قد يبدو صامتاً مثله ، ولكنه يقول كل شيء ، إنه الصمت الناطق لكل ذي بصر وبصيرة ، شأنه في ذلك أيضاً شأن الفن الحديث :

" وفننا الشعبى - لأنه نابع من الفطرة المتصلة اتصالاً مباشراً بالطبيعة وبالكون - يقول أشياء كثيرة دون أن يبدو عليه أنه يقول شيئاً ... وأن هذا الخلط الذى نحسبه خلطاً ، ليس إلا وسيلة تلقائية من وسائل تعبيره ، عندما نتأملها نجدها مشحونة بطاقات صالحة للاستلham والاستغلال الفنى ... ذلك أن الفنان الشعبى لم يحاول محاكاة أساليب الجمال الفنى التقليدي ... ربما عن قصور أو تقصير أو جهل ... وربما أيضاً عن إرادة ... وكل هذا سواء المهم أنه لا يسير فى الدروب المعروفة المعترف بها ... وتلك هى الفكرة الأساسية فى الفن الحديث " (١) .

وهذا يعنى أن فننا الشعبى - فى جانبه اللامعقول أو العبثى على الأقل يقول - واعياً أو لا واعياً - أشياء كثيرة دون أن يبدو عليه أن يقول شيئاً لا لشيء إلا لأنه فن فطرى متصل اتصالاً مباشراً بالطبيعة وبالكون ، وإن المشكلة أيضاً فى فهم النص أو ما يقوله الفن الشعبى كامنة فى الإنسان لا فى النص الشعبى ... غير أن أية قراءة فولكلورية ثابتة يمكن أن تخترق هذا النص ، وأن تفض مغاليقه فيبوح عندئذ بأسراره الكبرى ، ومن ثم فالغيب فىنا لا فى النص ، النص الكونى والنص الشعبى معاً ... ولكن ماذا يقول النص الكونى ، من غير أن يقول ؟ وماذا يقول النص الشعبى ، من غير أن يقول ؟ .

يجيب توفيق الحكيم فى نصه المسرحى ( يا طالع الشجرة ) عن السؤال الأول فقط ، متجاهلاً - بحسن نية أو بسوء قصد - الإجابة عن السؤال الآخر ، حيث النص الشعبى قار فى ذهنه على أنه عبثى الشكل والمعنى ، وأنه اعتمد فى وجوده - مبنى ومعنى - على ذات صياغته كالشعر السريالى والدادى على حد تعبيره ... وما أبعد ذلك كله عن النص الشعبى الذى يتفق بالفعل مع النص الكونى فى دلالاته ومرامييه ، لأنه - كما يقول الحكيم نفسه - ليس إلا فنّاً نابعاً من الفطرة المتصلة اتصالاً مباشراً بالطبيعة وبالكون ... ومن ثم فهو فن فطرى يرى الكون بقلبه لا بعقله ... ببصيرته لا ببصره ، بما هى رؤية صوفية لا فلسفية . بعبارة أخرى إن الفن الشعبى ليس إلا تجلياً جمالياً جمعياً يعكس رؤية مبدعيه للعالم وللكون . وهى رؤية - فى جوانبها المعقولة أو حتى غير المعقولة - رؤية إيجابية بكل المعايير الفطرية أو الدينية ، الميثولوجية أو الصوفية .

وبهذا يكون النص الشعبي - مع افتراض لا معقوليته - نصاً إيجابياً ومتفائلاً فى " لا معقوليته " ، على نحو متناص مع رؤية الحكيم بما هى رؤية إيجابية متفائلة فى عالم اللامعقول ، وذلك أن :

" شعورى بعجز الإنسان أمام القوى المؤثرة فى مصيره ليس مؤداه التشاؤم" (١) .

وإنما مؤداه التفاؤل كما يقول ، إيماناً بقوله تعالى :

﴿ فوسوس إليه الشيطان ، قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد ، وملك لا يبلى ؟ فأكلا منها ، فبدت لهما سوءاتهما . وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى. قال: إهبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ٤ (٢) .

وهو القول الذى ابتدأ به الحكيم عتبة دخول كتابه " شجرة الحكم (١٩٤٥) مما يشى أن مفهوم الشجرة عند الحكيم هو شجرة الخلد حلم البشرية الأبدى ومأساتها الأزلية ( حيث الخطيئة الأولى / سوء الحياة الدنيا ) فى آن ( لغير المؤمنين بالبعث ) منذ هبوط آدم وحواء من جنة السماء (٣) .

فالمسرحية ( يا طالع الشجرة ) بما هى مسرحية تنتمى إلى تيار المسرح العبثى أو اللامعقول ( نقيض المسرح الواقعى أو المنطقى ) تنطوى - فى قراءاتها أو مشاهداتها - على قدر من الغموض الكبير :

" جاء نتيجة لعملية التجربة نفسها ، تجربة تداخل الزمان والمكان ، وتجربة تداخل المنطق ؛ ولكن لماذا هذه التجربة ؟ لأننى رأيت واقعنا الحقيقى الكامل هو فى هذا التداخل و التخلخل ... " (٤) .

(١) نفسه : ص ٩٤ - ٩٨ .

(٢) قرآن كريم : سورة طه ، آية ١٢٠ - ١٢٢ .

(٣) شجرة الحكم (١٩٤٥) : المفتتح أو عتبة دخول النص ، ص ٣ ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت

١٩٧٨ م .

(٤) لمزيد من التفاصيل ، انظر : الطعام لكل فم ، ص ١٨٧ .

ثم يقول الحكيم فى موضع لاحق : إنها أيضاً تنطوى على قدر من الوضوح كبير :  
 " حاولت أن أجعل مسرحيتى واضحة كل الوضوح ، لأن الوضوح يجب أن  
 يكون هو المطلب العزيز الأخير للفن والفكر " (١) .

وفيما بين الغموض والوضوح يبدو أن ثمة تناقضاً يمكن تبريره بقيام الحكيم بالجمع بين  
 اللامعقول الكامن فى عبثية الشكل وما يؤدى إليه من غموض وخلط ظاهرى والجمع بين  
 المعقول الكامن فى منطقية المعنى وما تؤدى إليه من وضوح وبيان ، وتكمن " تجريبية "  
 الحكيم فى الجمع بين المعقول واللامعقول فى إطار واحد :

" إنى أضفر فى هذه المسرحية موضوعين متعانقين لنخرج منهما فى النهاية  
 " ضفيرة " واحدة ، وأضفر فيها أيضاً الواقع بغير واقع ، والمعقول باللامعقول  
 لنخرج فى النهاية حقيقة واحدة ، على النحو الذى يضفر فيه الموسيقى ويعانق  
 لحنين مختلفين ليخرج فى النهاية نغمًا واحدًا " (٢) .

فى ضوء هذه المقابسات أو العتبات الثلاث يتحدد لنا أفق التوقع القرائى فى مقاربة  
 " البحث عن المعنى " المعقول واللامعقول فى هذه المسرحية . حيث يتمثل المعقول فى  
 مضمونها ، أما اللامعقول فيتمثل فى اتجاهها وبنائها أو تركيبها الفنى وفى متنها السردى  
 (المسرحى) وفى لغتها وشخصها ، حيث ينعقد التواصل بين البشر ( كما هو الحال فى تقنية  
 مسرح صموئيل بيكيت الذى تأثر الحكيم به ، ويمسرح أو نسكو أيضاً ) وحيث تختلف  
 المسميات وتتفق فى الوقت نفسه (٣) .

(١) الطعام لكل قم : ص ١٨٩ .

(٢) نفسه : ص ١٨٩ .

(٣) من الآن فصاعداً نود أن نشير إلى أننا اعتمدنا أحياناً فى عرض المسرحية وتلخيصها فقط على  
 أكثر من عرض فى أكثر من دراسة ، لعل من أهمها مقاربتين : إحداهما مقاربة نوال زين الدين لها فى كتابها  
 " اللامعقول والزمان والمطلق فى مسرح توفيق الحكيم " باعتبارها مقاربة جادة ورصينة تتفق وفكر الحكيم من  
 ناحية وتتفق مع الرؤية المسرحية التى تذهب إليها ، وإن اختلفنا أحياناً معها ، وإنما أثرتها حتى لا نتهم  
 بتأويل النص وإسقاط تفسيرنا الميثولوجى والصوفى على أغنية يا طالع الشجرة حتى تتساق وتفسر  
 المسرحية . كذلك تختلف معها فى تأويل بعض الرموز وخاصة رمز المرأة ورمز السحلية ، كما عمتنا رؤيتها  
 بنصوص أخرى اخترناها من المسرحية . انظر الكتاب المذكور ص ٤٤ - ٥٤ ، الهبة المصرية العامة للكتاب  
 ١٩٩٨ . أما المقاربة الأخرى : فهى مقاربة أحمد سخسوخ فى كتابه " توفيق الحكيم مفكرًا ومنظرًا مسرحيًا " ص  
 ٦٥ - ٧٨ . وذلك للأسباب نفسها ، من حيث الجدة والرصانة والتأويل وإنتاج المعنى ، وإن كنا سوف  
 نختلف كثيراً مع آرائه أيضاً .



بمعنى أن كل متكلم يفهم معنى كلام الآخر على النحو الذى يريد هو لا الذى يريده الآخر ، ويحملها معنى خاصاً فيما يشغله هو ، مما يؤدي إلى الكشف عن عجزهم عن التواصل ، وانفصال كل منهما عن الآخر . وحيث تتداخل الأزمنة والأمكنة ؛ فالماضى والحاضر والمستقبل أحياناً يوجد كلها فى نفس الوقت ، والشخص الواحد يوجد فى مكانين على المسرح ... كل شىء هنا متداخل ، وحيث شجرة البرتقال لم تعد شجرة البرتقال ، والسجن يتخذ معنى من معانى الحياة الدنيا ، ولغة الأشخاص تشير إلى الوحدة القاتلة التى يحيها الإنسان المعاصر ، حتى وهو موجود وسط جماعة من الناس ؛ حتى فى تساؤلاته المعرفية التى لا تنتهى عند حد لا يجد لها إجابات محددة ؛ فتزداد حيرته الوجودية ، ويزداد إحساسه بالخواء واللاجدوى .

" إنك لن تفهمنى ... إنك تفهم فقط ما تراه مفهوماً لك ... وفهمك أن

تلقى أسئلة محددة المعنى ، وتريد أن تتلقى عنها أجوبة محددة المعنى " (١) .

أما شخوص المسرحية فقد أتت من عوالم مختلفة : الدرويش ، والشيخة خضرة أو السحلية (٢) ، والشجرة . الدرويش أتى من عالم الروح ، عالم المتصوفة ، حيث رأى ما لا عين رأت وسمع ما لم يخطر بقلب بشر ، والشجرة من عالم النبات الذى يعطى معنى الحياة .

ولا معقولة هذا العالم " لا معقولة إيجابية " إذ تدخل - كما تقول نوال زين الدين - ما لا يخضع للمنطق فى دائرة العقل الذى يتحرق شوقاً إلى المعرفة ، على نقيض " اللامعقولة السلبية " ( أو الوجودية الملحدة ) كما هى عند ألبير كامى التى تنكر كل طريق للمعرفة ، وتقف لكل وسيلة تسعى لفهم اللامعقول ، وتسخر من كل محاولة تتشوف إلى الوعى به .

وعالم مسرحيتنا ينسج خيوطه من رجل وإمرأة يضمهما بيت واحد يعيشان فيه منذ تسع سنوات هو بيت الزوجية ، ولكل منهما عالمه الخاص ؛ الزوجة دائماً مشغولة بالمولود المنتظر ، والزوج تشغله شجرته الخضراء ، وما ستحمله من ثمر ، وبين هذين العالمين تتداخل الأشياء فيما بينهما ، فما يقال عن الشجرة وثمرها المنتظر يصح قوله على شجرة أخرى تنتظرها الزوجة التى أسقطت ثمرتها الأولى بيدها .

(١) توفيق الحكيم : يا طالع الشجرة ، ص ٥٤ ، مكتبة الآداب ، القاهرة (١٩٦٢) .

(٢) توهمت الباحثة نوال زين الدين فى مقارنتها أن الشيغة خضرة شىء آخر غير السحلية ، وأن الأولى أتت من عالم الجن والأخرى أتت من عالم الحيوان ، والحق أن الشيغة خضرة هى السحلية نفسها . الأمر الذى اقتضى أن نتدخل ثانية لتصحيح بعض جوانب المقاربة . ولذا لزم التنويه .

- الزوجة : كان السقط فى الشهر الرابع ، كانت قد تكونت وصارت فى حجم الكف .  
إنى واثقة من ذلك .

- الزوج : نعم إنى واثق من ذلك ، لأن الأغصان كانت تتحرك ببطء شديد .

- الزوجة : نعم . إنها كانت تتحرك فى بطنى ، شعرت بحركتها ، حركة بنت ، لأن حركة البنت يمكن أن تعرف ، ولأنى كنت أريدها بنتاً (١) .

وما يقال عن السحلية أو الشبيخة خضرة التى يعتقد الزوج فى وجود مسكنها الأسمى أو مقرها الحقيقى قائم تحت الشجرة يصح قوله على الطفلة " بهية " التى لم تولد بعد ، ومع ذلك لا تبارح خيال الزوجة ، وتحيل واقعها إلى ضرب من الخيال ؛ فلا عمل لها إلا إعداد ثوب أخضر للمولودة المنتظرة " بهية " ، ولا حديث لها إلا عن جمالها . وهى ترفل فيه حين ترتديه ، وهكذا ظلت طبيعة الخطاب بين أبطال المسرحية على غط تنصيب " كل يغنى على ليلاه " ولا سيما الزوج والزوجة :

- الزوج : إنى أراها ( يعود الضمير على السحلية ) جميلة فى جسمها الصغير المكسور بالأخضر الدائم ، وفى عينيها اللامعتين بهذا البريق العجيب ؛ إنها رائعة الشبيخة خضرة .

- الزوجة : نعم إنها رائعة بنتى بهية (٢) .

ويحدث أن تختفى الزوجة ( الأصل ) وتدعى " بهانة " ، وفى أثرها تختفى أيضاً السحلية أو الشبيخة خضرة ( الرمز التعضيدى الموازى ) ، وهما يحملان جميعاً معنى الحياة ، ويثران الوجود بالعطاء المستمر ؛ فلا يبدو القلق أو الاضطراب على الزوج الذى لا ينتبه إلى هذه الحقيقة ( حقيقة اختفاء الزوجة والسحلية فى وقت واحد ) إلا على صوت المحقق يلفت نظره ، فيعزو الزوج ذلك إلى طبيعة عمله التى أورثته تلك العادة ، فمفتش القطار " هو الوحيد بين الركاب الذى لا يعرف القلق أو الاضطراب لتأخر القطار أو وصوله أو عدم وصوله " . ومن ثم لم يكن يشغل باله بها حضوراً أو غياباً ... ولكن ها هو المحقق يدفعه إلى " الوعى "

(١) يا طالع الشجرة : ص ٣٤ .

(٢) المسرحية : ص ٣٨ .

١٦٥

بهذه الحقيقة الغائبة والمختفية ، ولم يكن هذا الوعي بالاختفاء قد حدث من قبل ( بما فى ذلك اختفاء زوجته على الرغم من مرور تسع سنوات على الزواج ) ومن ثم يعترف له الزوج بأن فكرة القتل قد راودته حينما رأى السحلية ( الرمز المقترن بالزوجة ) لأول مرة ، ولكنه اعتاد الآن قريبا :

الزوج : نعم ... كلما تذكرت اليوم ... إنى سأقتلها يوماً ما ... ولكن هذا طبيعى أن أقتلها يوم ذاك ؛ لأننى كنت أجهلها .

المحقق : فكرة القتل إذن خطرت لك .

الزوج : فعلاً .

المحقق : وبأى شىء كنت ستنفذ القتل ؟

الزوج : قتل من ؟ زوجتى ؟

المحقق : زوجتك ؟ أنا ذكرت زوجتك ؟

وهنا يختلط الأمر على الزوج ، فالحديث يدور حول السحلية ، إلا أنه يفكر فى زوجته فى الوقت نفسه ، فيختلط عليه الاثنان ويتداخلان . ويتصاعد الموقف حتى يحاصر المحقق الزوج ليستخرج من فمه اعترافاً بقتله لزوجته .

المحقق : كفى الآن حديثاً عن السحالى ، لتتحدث عن زوجتك . هل شعرت يوماً برغبة فى قتلها ؟

الزوج : طبيعى .

المحقق : ماذا تقول ؟ !

الزوج : أقول إن هذا شعور طبيعى .

والمحقق هنا يصير على استخراج اعتراف بأن بهادر قتل بهانة ، أو الزوج قتل زوجته مادامت قد اختفت ولم يعلم أحد مكانها مما يعنى أنها قد قتلت من وجهة نظر المحقق .

المحقق : إذن أنت قتلتها بالفعل .

الزوج : هل أنت متأكد ؟

المحقق : تقريباً .

الزوج : وهل تعرف أين جثتها ؟

المحقق : هذه أنت بها أدري بالطبع .

الزوج : ليس من الصعب أن تعرف

المحقق : أفضل أن تقول لى أنت .

الزوج : المكان سهل وطبيعى جداً ، ودهشنى أنك لم تعرفه !

ثم يخبر الزوج المحقق بأن أفضل مكان لوضع الجثة هو تحت الشجرة ليتحول جسدها إلى سواد يغذى الشجرة ، ثم يطلب المحقق فأساً ليحفر تحت الشجرة حتى يكتشف آثار الجريمة ، ولكن الزوج يؤكد على أنه تكلم عن دفن الجثة وليس عن القتل .

المحقق : ألم تقل الآن أنك دفنتها تحت هذه الشجرة بعد أن قتلتها ؟

الزوج : لقد تحدثت عن الدفن ، ولكن لم أتحدث عن القتل .

المحقق : تقصد أنك دفنتها ولكنك لم تقتلها ؟

الزوج : لم أقتلها ( ... ) هذه مسألة بينى وبينها ، ولكنى لم أقتلها .

ويرى الزوج أنه إذا وجد تعليلاً لاختفاء السحلية أمكن إذن إيجاد تعليلاً لاختفاء الزوجة .

المحقق : طبعاً ، إذن ما هو تعليقك لهذا الاختفاء ؟

الزوج : لا أدري له من تعليق .

المحقق : لابد أن يكون هناك تعليق .

الزوج : وما هو التعليق لاختفاء الشبيخة خضرة ؟

المحقق : دعنا الآن من هذه السحلية .

الزوج : هذا مهم جداً ... إذا وجدنا التعليق لاختفائها وجدنا التعليق لاختفاء زوجتى .

ويدهش بهادر أفندى أو الزوج - بطل المسرحية - لأنه لم ينتبه إلى هذه الحقيقة برغم مضى خمسة وثلاثين عاماً كان قد قضاها وهو يعمل مفتشاً للقطار ، ويحار المحقق الذى جاء يبحث فى أسباب اختفاء الزوجة أمام الزوج الذى تفتح وعيه - إثر لقائه بالدرويش - على أهمية التجربة الروحية ، وأثرها فى تحقيق عالم أكثر شمولاً واتساعاً من عالم العقل والمادة ، عالم

لا يمكن رؤيته إلا بقلبه وعقله معاً ، على النقيض من المحقق الذى يرمز إلى العقل بمنطقه الاستدلالي وأدلتة المادية المتعينة ، الأمر الذى بدأ يترك أثره فى لغة الحوار بين الزوج والمحقق، حتى غدا كل منهما يتحدث حديثاً يتفق لفظه ويتباين معناه ، على نحو يؤكد هوة الانفصال وعجز الاتصال .

والزوج حين يقول بأن مفتش القطار هو الوحيد بين الركاب الذى لا يعرف القلق أو الاضطراب لتأخر القطار أو وصوله أو عدم وصوله إنما يرمز للحياة بالقطار ، فالقطار رمز الحياة ، وقد حل " القطار " هنا محل " السفينة " لدى المتصوفة القدامى<sup>(١)</sup> . وهو ما يؤكد الدرويش فى المسرحية ، ليفرق بين قطار الحياة أو القطار الأصلي ، وقطار السكة الحديد ، بما هو قطار فرعى :

الدرويش : القطار الأصلي الذى قام قبل هذا القطار الفرعى . ألا تعرف ذلك<sup>(٢)</sup> ؟

وكان الزوج أثناء عمله مفتشاً للقطار قد قابل شخصية روحية هى شخصية الدرويش الذى لم يكن معه تذكرة ركوب للقطار ، بل اتضح أنه لم يركب من أى محطة ، بل ركب أثناء سير القطار . وحينما يسأل المفتش عن التذكرة ، حيثئذ يعطيه الدرويش شهادة ميلاد ، ويدعى أنها تذكرة الركوب ( ركوب الحياة ) ، وحينما يصر المفتش على التذكرة ، وهنا يتعجب المفتش ، بل يزداد عجبه حين ينبئه هذا الدرويش . ببعض ما سيقع فى حياته ، ففى ضاحية الزيتون<sup>(٣)</sup> سيكون بيته ، وفى هذا سيجد الشجرة التى تطرح البرتقال فى الشتاء ، والمشمش فى الربيع ، والتين فى الصيف ، والرمان فى الخريف ، مؤكداً له - فى الوقت نفسه - أن كل شىء من حوله واحد ، أو بالأحرى الكل فى واحد فى هذه الشجرة : فيندهش الزوج قائلاً :

الزوج : شجرة واحدة ؟

الدرويش : واحدة ، كل شىء واحد ، هناك شجرة ، والبقرة ، والشيخة خضرة .

الزوج : الشيخة خضرة ؟

الدرويش: كل شىء أخضر ... كل شىء أخضر .

(١) انظر : نوال زين الدين : اللامعقول والزمان والمطلق فى مسرح توفيق الحكيم (م.س) ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) مسرحية يا طالع الشجرة : ص ٦٣ .

(٣) لا تخلو التسمية المكانية هنا من مغزى ، فالزيتون نبات معمر ، مقدس ، رمز السلام ، دائم الاخضرار .

وعندئذ يدرك المفتش أو الزوج أنه أمام شخص مغاير ، يرى العالم ببصيرته : فيصفه بأنه إنسان " مكشوف عنه الحجاب " ، فيبادر بالتوسل إليه أن يجعله واحداً من أتباعه ومريديه : قائلاً ومتسائلاً :

المفتش : هناك سؤال لا بد لى من أن ألقيه عليك : هل تسمح أن أكون من مريديك ؟  
الدرويش : لماذا ؟

المفتش : لأنى أشعر وأنا فى جوارك بالطمأنينة (١).

تقول نوال زين الدين :

" كل شيء هنا أخضر - رمزاً للحياة - وكان الزوج قد تهيأ فكرياً لمقابلة لذلك الدرويش ، إذ سبقت هذه المقابلة إرھاصة من تأملات فكرية كان يبحث فيها الزوج عن كيفية الحصول على الشجرة ، شجرة الحياة الأبدية ، شجرة الخلود " (٢).

الدرويش : كنت تقول : أريد هذه الشجرة ، وهذه ، وهذه ، أمسكوا لى شجرة من هذه الأشجار الهاربة من القطار ! هذه واحدة ، وهذه الثانية ، وهذه الثالثة ، وهذه الرابعة ، وهذه الخامسة ، وهذه وهذه ، وهكذا وهكذا " (٣) .

وكل واحدة من هذه الأشجار تحمل فى طياتها تاريخاً مليئاً بالنشاط الروحى الذى يبذله الإنسان فى الحياة .

خمسـة وثلاثون عاماً هى عمر " بهادر " كله فى هذه الحياة العملية : عاشها ولم يقلقه فيها غير صفير القطار ، وجرس المحطة ، وما كانا ليشعرانه - الصفير والجرس - بالقلق لولا أنه أحس فيهما نذيرى موت ونهاية ، فهما يقلقانه عندما يكون نائماً أو شبه نائم ، أى عندما يكون فى الموت الأصغر ، ألا وهو النوم ، الذى يفضى به إلى التفكير فى النوم الأكبر ألا وهو الموت " أحياناً يزعجنى قليلاً جرس المحطة ، و صفير القطار ، خصوصاً عندما أكون نائماً أو شبه نائم ... " (٤).

(١) المسرحية : ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢) اللامعقول والزمان والمطلق : (م.س.) ص : ٤٧ .

(٣) المسرحية : ص ٥٩ .

(٤) المسرحية : ص ٥٦ .

وفى بعض كتب الصوفية - كما تذكر نوال زين الدين - أن فى صلصلة الجرس قوة تدفع الإنسان إلى التفكير فى أحوال الكون وصولاً إلى الذات الإلهية ؛ إذ أن المرء يسمع " أطيظاً من تصادم الحقائق بعضها على بعض كأنها صلصلة الجرس فى الخارج . كما أنه لا سبيل إلى " انكشاف المرتبة الإلهية إلا بعد سماع صلصلة الجرس " (١) .

وكان لجوء بهادر إلى الدرويش غائياً ، أى لغاية محددة ، فهو يريد أن يكون أحد أتباعه ، أو واحداً من مريديه ، ليستشعر فى جواره الأمن والطمأنينة ولكن الدرويش يقول له : " أنت لست فى حاجة إلى الطمأنينة ... من يركب القطار ... دون انتظار لمحطة وصول .. هو دائماً مطمئن (٢) .

إن بهادر يطل من النافذة وحين يكثُر النظر يرى : الأشجار تفر ... (٣) " فيسطل على حياة أشمل وأعم من حياته وحياة الآخرين الذين يختفون من الحياة اختفاء الشجر من القطار ، من القطار الحقيقى ؛ من الحياة التى لا تنتهى بنهاية الأشخاص ، بل تظل سائرة على الرغم من كل شيء حتى إذا ما أفرغت ما فى جمعيتها عادت إلى السير مرة أخرى فى دورة (٤) تتكرر لا تعرف السأم ولا الملل . ولقد كنا قطارات حين عشنا الحياة يوماً ما وقت أن كانت أرواحنا طليقة لم تدخل الجسد بعد ، وفى المرحلة الأولى من الحياة الإنسانية حين كنا فى طور السذاجة وكان كل شيء يجرى تبعاً لمعرفة فطرية ، وكذلك فى طفولتنا حين كنا على الفطرة ، قبل أن تطمس أبصارنا ، ويطبع على قلوبنا ، وقبل أن يكتمل وعينا باللامعقول .

و " الحكيم " يحن دائماً إلي طور السذاجة ، يعنى زمن البدايات المقدسة ، حيث لا علة ولا معلول بالمعنى الفلسفى ، وحيث كل شيء يجرى تبعاً لمعرفة فطرية قوامها الحدس والإحساس .

---

(١) انظر للأهمية : اللامعقول والزمان والمطلق ، ص ٤٧ ، ومصادر النقل هناك .

(٢) يا طالع الشجرة : ص ٦٧ .

(٣) نفسه : ص ٦٧ .

(٤) للحكيم رؤية خاصة للدورة الحياة أشار إليها تفصيلاً فى كتابه سلطان الظلام ، وقد عاجلتها نوال زين الدين فى كتابها " اللامعقول " ص ١٨٩ . وانظر أيضاً : التعادلية فى الإسلام للحكيم ص ١٥٤ وما بعدها .

" أستطيع أيضًا أن أدرك أشياء بدون أن تمر بجهاز عقلى وفكرى ...  
أدركها بالحدس والإحساس " (١)

حين انتهى طور السذاجة العذبة وانتهت حياة الفطرة " ولم تعد نصلح لأن نكون قطارات" (٢) ، بدأ الوعي بالشقاء فى الحياة والإحساس بالسأم ، والشعور بالملل من تكرار أشياء لا نفهم لحدوثها معنى ، ولم يكن أمام " بهادر " إلا أن يستنجد بالدرويش لعله يساعده فى مواجهة شخص ( وعيه الجديد ، سؤال العقل الجارق ) دائمًا ما يزعجه ويزعجنا معه :

المفتش : يا سيدنا الشيخ أتقضى ... أتقضى بريك !

الدرويش : إنه معك دائمًا ... ( يعنى الرب ) !

المفتش : نعم . !

الدرويش : لا تفهم ما يريد أحيانًا ... ( يعنى العقل ) !

المفتش : لا أفهم ما يريد . !

الدرويش : ولكنه يزعجك ... !

المفتش : يزعجنى ويخيفنى وأخشى أن يضلنى يومًا .... ! (٣)

وهذا الشخص الذى يزعجه إن هو إلا اكتمال وعينا " باللامعقول " ، هذا الوعي إما أن يؤدي بنا إلى التهلكة والضلال ، أو يصل بنا إلى الأمن والطمأنينة ؛ ذلك لأنه لا يكف عن وضع علامات استفهام تقلق ضمائرنا ، وتفضى بنا إلى حال من التوتر مع الحياة وما يكتنفها من غموض .

على أن " بهادر " عند " توفيق الحكيم " يشرع فى الوقوف من عبث الحياة موقفًا جديدًا .  
وجادًا ، غايته البحث عن الخلاص والمعنى ، مستغنيًا فى ذلك بمحاولة اللجوء إلى التصوف

(١) اللامعقول والزمان والمطلق : (م.س.) ص ٤٨ ومصادر النقل هنا .

(٢) يا طالع الشجرة : ص ٣٨

(٣) نفسه : ص ٧٠ .



مثلاً فى شخص : " الدرويش " ؛ لعله يجد عنده ما تطمئن به ذاته ، ويدرك الدرويش ذلك شريطة أن يلجأ بهادر - قبل كل شىء - إلى القلب ليسند العقل ويحدث من التوازن ما يعيد إلى الحياة الطمأنينة . وهذا هو ما ينشده " الحكيم " دائماً ويدعو إليه الإنسان المعاصر إذا شاء أن ينشد لنفسه الخلاص ، لو فطن لمغزى الحوار الآتى الذى دار بين الدرويش والمفتش .

ومن ثم كان هذا السؤال الخطير الذى طرحه المفتش على الدرويش عن أقصى ما يتمناه فى حياته ، ففطن ، الدرويش إلى مأساته ، وأوحى إليه أن لا سبيل إلى الخلاص إلا بالرؤية الصوفية التى تجسدها الأغنية التى أجاب بها عن سؤاله وتضمن سبيل الخلاص :

المفتش : هل تعرف ماذا أطلب من حياتى ؟

الدرويش : ( ينشد ) :

يا طالع الشجرة      هات لى معاك بقرة  
تحلب وتسقى نى      بالمعلقة الصينى

المفتش : يظهر أنك عرفت ؟

الدرويش : العارف لا يعرف (١) .

وهى إجابة تعنى أن المفتش يبحث عن طريق الخلاص ( بعد انكسار المعلقة الصينى التى يستدعى ذكرها أو يستحضر - فى ضوء الحديث النبوى - طلب العلم " المادى " أو المعرفة فى جانبها المادى ، " ولو فى الصين " ، طبقاً لبقية نص الأغنية ) ، ويعنى أيضاً أن الدرويش لم يكشف عما يجول فى خاطر بهادر فحسب بل كشف له أيضاً طريق الخلاص ، فإذا المطلوب لإنقاذ بهادر العصر الحديث هو المعرفة فى جانبها الروحى ، الإيمانى كما يتجلى - هذا المعنى - فى نهاية الأغنية ، كما سنذكرها كاملة فيما بعد .

فالمعرفة الروحية هى كل ما يحتاجه بهادر العصر الحديث ، الزوج أو المفتش الباحث عن المعنى لحياته ، ولن يتحقق هذا المعنى إلا بالإيمان ؛ لا بالمعرفة العقلية فحسب ، بل لابد من تجاوزها إلى المعرفة الروحية ، وعندئذ تنتفى - والحالة هذه - لا معقولية الحياة ، " على النقيض من " سيزيف " بطل ألبير كامى ، وموقفه السلبي من لا معقولية الحياة " (٢) .

(١) يا طالع الشجرة : ص ٦٦ .

(٢) لمزيد من التفاصيل : انظر : اللامعقول والزمان والمطلق ص ٤٨ - ٤٩ .

وترى نوال زين الدين فى مقاربتها لهذه المسرحية أن هذه الشجرة التى تطرح البرتقال فى الشتاء ، والمشمش فى الربيع ، والتين فى الصيف ، والرمان فى الخريف " (١) " مسا هى إلا شجرة المعرفة " (٢) ، وأن حياة " بهادر " ليست وحدها فى هذه الشجرة ، إن فيها حياته ، وحياة الآخرين فى هذا الكون ، ولا وجود لهذه الحياة إلا على كتف الإنسان وعنقه وروحه جميعاً . وإذا كانت الحياة لا يكون قوامها إلا من حياة الإنسان ، فلا بد أن " بهادر " قد قتل زوجته - بالمعنى المادى لا الروحى - ليقدمها غذاءً لهذه الحياة تستمد منه وجودها ، فهذه الشجرة لا تطرح هذه الفاكهة المختلفة إلا إذا " دفن تحتها جسد كامل لإنسان ... فإنها تتغذى بكل ما فيه من متناقضات ... " (٣) . وهذا يعنى أن الموت هو سبيلنا إلى الخلاص الروحى ، بمعنى أن الروح فيه تنعتق من سجن الجسد ، لتسبح فى عالم الملكوت ... عالم الروح الخالد .

ويرى الدرويش أن الزوج إما أنه قتل زوجه ( بكل رموزها الروحية أو الصوفية أو الإيمانية ) ، وإما أنه لم يقتلها بعد ( وهنا يكمن قلقه الوجودى ) . ذلك أن الشجرة تشكو من قلة الغذاء ، كما أنها إذا تغذت بالسماد المطلوب ، أى إنه دفن تحتها جسد كامل لإنسان أمكن أن تطرح البرتقال فى الشتاء والمشمش فى الربيع والتين فى الصيف والرمان فى الخريف ، كما يقول الدرويش . وهنا يعلق المحقق : " أظن أن سبب الجريمة بدأ يتضح " ... ويرى الدرويش معلقاً على قول المحقق : " إن القتل لأسباب فلسفية شىء مألوف فى عصرنا الحديث " ، فإذا ما تساءل المفتش عن معنى ذلك ، أجاب الدرويش :

الدرويش : فلسفة العصر موجودة فيك ، وفلسفة الشجرة موجودة فيها .

الزوج : فلسفة الشجرة ؟!

الدرويش : نعم .

---

(١) المسرحية : ص ٧٧ .

(٢) اللامعقول : ص ٥٠ .

(٣) المسرحية : ص ٧٨ .

(٤) إن الشجرة - عند الحكيم - تتعدد معانيها فى ضوء سياقاتها المختلفة لكنها واحدة فى النهاية ، فهى تعنى الحياة المتكاملة فى جانبيها المادى والروحى ، الدنيوى والأخروى ، اللامعقول والمعقول ، المرئى والخفى ، وليس من طبيعة المخلوق أن يسأل الخالق ! .

الزوج : وما هى فلسفة الشجرة ؟

الدرويش : تنتج ولا تسأل ... تنتج زهراً لا تشمه ، وثمرراً لا تأكله .... ولا تسأل لماذا ؟ لا يعذبها السؤال عن جواب لن تتلقاه<sup>(١)</sup> .

الزوج : حقاً ! هذا شيء جميل من الشجرة ، ولكن ما دخلى أنا فى هذا ؟

الدرويش : إنك لست شجرة .

الزوج : هذا بديهى .

الدرويش : ولذلك ستقتل زوجتك ، إن لم تكن قتلتها .

لم يجد المحقق من الأدلة ما يكفيه لتبرئة " بهادر " من تهمة قتل زوجته ، فحتى الدرويش الذى أتى به " بهادر " ليشهد له أمام المحقق ، شهد عليه ، بل زاد الطين بلة حين قال إن " بهادر " إن يكن قد قتل زوجته فهو فى طريقه إلى قتلها فعلاً ؛ " وفاء لدين عليه أملته فلسفة العصر " ، ذلك أن فلسفة العصر موجودة فيك<sup>(١)</sup> . وإن السبب عندك " يتمشى مع فلسفة العصر "<sup>(٢)</sup> . إذ لا بد من المغامرة أو التضحية إذا كنا نريد أن نعرف - ونحن لا شك نريد ذلك - بعدما اعترانا من قلق ؛ أيقظه وعينا الجديد " بلا معقولية الحياة " . و " بهادر " ليس كالشجرة التى تنتج زهراً لا تشمه ، وثمرراً لا تأكله " ولا تسأل لماذا ؟ ... لا يعذبها السؤال عن جواب لن تتلقاه أبداً "<sup>(٣)</sup> . فأين ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ أسئلة تقلق ضميره وتحيا معه مثل ظله . فليوضع " بهادر " فى السجن ، وليستمر الحفر تحت الشجرة بحثاً عن الحقيقة الغائبة عند كل من بهادر والمحقق ، وإن ظل بهادر يصيح فى وجه المحقق : " ستحفرون تحت شجرتى ، ستقتلون الشجرة ، قتلة ! يا قتلة ! " .

يوضع صاحبنا فى السجن ، فلا يرى فيه ما يراه السجناء عادة ، بل يتملكه شعور غريب يجعله يشبه جنيناً " عاد إلى بطن أمه ، يتغذى من الداخل ... وينتظر يداً تجذبه إلى الخارج فى وقت من الأوقات "<sup>(٤)</sup> .

(١) المسرحية : ص ٨٣ .

(٢) المسرحية : ص ٨١ .

(٣) المسرحية : ص ٨٣ .

(٤) المسرحية : ص ١١٤ ومن المعروف أن الشعوب القديمة التى كانت تؤمن بالبعث ظلت تدفن موتاهها على هذا النحو الجنينى ، أى على شكل الجنين فى بطن أمه على أمل ميلاده أو بعثه من جديد .

كل الذى حدث بالنسبة إليه أنه انتقل من سجن كبير إلى سجن يصغره ؛ فالإنسان سجين حياته ، أراد ذلك أو لم يرد ؛ كما أن رجلاً " مثل بهادر " يطمع فى الخلاص ، ويطمح إلى أن يسلك طريق التصوف لا تكون الحياة عنده ، وعند غيره من المتصوفة إلا سجنًا كبيرًا يمارس فيه وجوده إلى أن تحين ساعة اللقاء التى طال انتظاره توقًا لها ، وتحرق شوقًا إليها - حيث الحلم الأزلى بالخلود الأبدى - فيأتى من يجذبه من هذا العالم ، ليذهب إلى حيث الروح القدس الذى هو بضعة منه ، ونفحة من نفحاته ، فهو الذى نفخ فيه ، ودفع به إلى هذا العالم من قبل. و " السجن " فى لغة المتصوفة ، يرمز دائمًا إلى الحياة الدنيا ، ومن وصل منهم إلى مرتبة إلى مرتبة الكشف الإلهى ، يكثر من ترديد هذا المعنى الصوفى (١) .

ما إن يدخل " بهادر " السجن حتى تظهر الزوجة ، فتعود إلى الوجود مرة أخرى ، ويظهر الزوجة تنقلب الأوضاع رأسًا على عقب ، فنرى الزمن يتخذ تقويمًا آخر غير الذى نعرفه ونعمل به ، " فساعة فيه قد تساوى يومًا أو يومين ، شهرًا أو شهرين ، أو أقل من ذلك أو أكثر . ما دامت سيدتك لم تعد ، فنصف الساعة لم ينته بعد .... إنها دقيقة فى حسابها " (٢) . وعندما يخبرون الزوجة بما كان من أمر اختفائها فتقول " لم أكن تغيب بعد ... لم أكن خرجت من المنزل .... " (٣) . وترميهم بالكذب ، ثم تعود فتصدقهم القول مرة أخرى . وعندما يسألونها فى ذلك تعزوه إلى عقلها ؛ فهى حينما تحكم عقلها فى منطق الأشياء ، يبدو لها كل ما يروونه كذبًا ، فإذا ما عادت إلى حدسها بدا لها ما يروونه صدقًا .

" - لأننى كنت أتكلم حسب عقلى ! ...

- والآن ؟ ...

- حسب ما حصل .... " (٤) .

- هذا شيء لا يتقبله العقل ، وهو اللامعقول بعينه .

---

(١) لمزيد من التفصيل حول مفهوم الزمن الصوفى أو الدينى ، انظر : اللامعقول والزمان والمطلق ، ص ٥٣ .

(٢) المسرحية : ص ١١١ .

(٣) المسرحية : ص ١٠٩ .

(٤) المسرحية : ص ١٠٤ .

لكن " الحكيم " الذى يؤمن بالحدس الصوفى والإيمان بالغيب ، يعيد علينا ما قاله من ضرورة وجود تعادل دائم بين القلب والعقل ؛ كى لا يحدث خلط أو اختلال فى أوضاع الكون إذا ما أعملنا التفكير فيه معتمدين على العقل وحده أو القلب وحده ، ولا بد من الاثنين معاً ، ففى التعادل حركة دائمة يسعى بها كل من الطرفين المتعادلين إلى الآخر ، حتى لا يكون فى أى منهما جمود يدفع بالإنسان إلى الخطر ، على نحو ما كتبنا من قبل فى فقرة "حدود العقل وآفاق الإيمان عند توفيق الحكيم " .

والزوجة - حضوراً وغيباً - هى - فى رأينا - رمز للمعنى ، للروح " للروحانية الصوفية " فى تجربتها الملموسة ، ومن ثم لم يكن للزمن هنا معناه البيولوجى والسردى / التاريخى ؛ وهو ما يفسر لنا أمرين : أحدهما اغتراب الزوج عن زوجته ، وتعوده الدائم على الوحدة . والآخر جهل الزوج باختفاء الزوجة حتى اتهم بقتلها دون العثور على جثتها المادية التى يقوم المحقق بالبحث عنها ، وجهله المعرفى أيضاً بمبررات اختفائها ، السبب الذى أدى - بصمتها الناطق - إلى ثورته التى انتهت بقتلها كما تنبأ الدرويش الصوفى .

والمهم أنه بظهور الزوجة على مسرح الوجود يعود " بهادر " إلى مسرح الحياة فقد أفرج عنه ، وها هو يتخذ طريقه إلى البيت فرحاً ، ذلك لأن ساعة الخروج لها فرحة لا تعدها فرحة : " طبعاً إن ساعة الخروج مفرحة دائماً للسجين ! ... على حد قول المحقق ، وعلى حد تفسير الزوج والزوجة لمفهوم الخروج :

الزوج : ساعة خروج البذرة من بطن الأرض خضراء حية ! ...

الزوجة : حبذا لو عادت إلى البطن وخرجت حية ! .... (١)

وهنا نعود مرة أخرى إلى عالم " اللامعقول " فالكل ينطق بعبارات تكاد تكون واحدة ، لكنها تعنى لكل منهم شيئاً غير ما تعنيه للآخر ، وحيث ظاهرها غير باطنها ؛ فالمحقق يتحدث عن فرحة السجين ساعة خروجه من السجن ، والزوج يرمى إلى الساعة التى تتحرر فيها الروح من الجسد ، أما الزوجة فهى تريد الساعة التى تنفخ فيها الروح فى جنين تحتويه أحشائها ليخرج إلى الوجود .

يذهب " بهادر " إلى حديقة منزله فيفزعده أمر الحفر حول الشجرة ويخشى أن يكون قد مسها سوء ، وهناك تنعقد الدهشة على لسانه لم رأى السحلية التى كانت قد اختفت باختفاء الزوجة :

" عادت الشبيخة خضرة ... أبصرتها تنهادر فى ثوبها الأخضر ... وتتجه إلى مسكنها ... ثم تقف كالمشدهوة ... فقد وجدت حفرة هائلة فى انتظارها... " (١) .

ويتأمل الزوج الموقف كله : ترى أهذه الحفرة تنتظر السحلية حقًا ؟ إنها والسحلية كانتا مختلفتين معًا وعادتا إلى الظهور معًا ، لابد أن هذه الحفرة ستلتقهما أيضًا معًا ، لكن أين كانت السحلية ؟ هنا يتذكر " بهادر " سؤالاً كان ينبغى أن يوجهه إلى زوجته من قبل : " بهذه المناسبة : أين كنت ؟ " (٢) . ولكنه لا يتلقى جوابًا ، وأكثر من ذلك تقابله الزوجة بصمت يُخيفه فى حين أنه يتحرق شوقًا إلى معرفة المجهول " لابد أن أعرف أين هذا المكان ... هذا المكان الذى لا سبيل إلى معرفته " (٣) . ويطوف " بهادر " بزوجته فى كل مكان يطرأ على عقله ( بيت ، فندق ، مستشفى ، سجن ، مرقص ، مسجد ... إلخ ) لعلها تتذكر لكن دون جدوى فهى تقابله بالصمت ، ولا شىء سوى الصمت .

وتتحول القضية لدى الزوج من قضية الشجرة ، ثم من قضية التحقيق فى غياب الزوجة إلى قضية المعرفة ، فهو يريد أن يعرف أين كانت الزوجة :

الزوج : أنت لا تريدان ، لأنك لا تعرفين أين هو ؟ أما أنا فالأمر أصبح بالنسبة لى خطيراً خطورة هائلة !

الزوجة : خطورة هائلة !

الزوج : بالتأكيد . لابد أن أعرف أين هذا المكان ... هذا المكان الذى لا سبيل إلى معرفته .

ومنذ هذه اللحظة لا ترد الزوجة على أسئلة الزوج سوى بكلمة " لا " بما تنطوى عليه من صمت سلبي عن الجواب ، لأن الأمر فى رأيها لا يحتاج إلى سؤال ، ومن ثم فلا معنى للجواب. لكن طرح السؤال فى ذاته مشكلة ... وهو سؤال ملحاح والوعى به والعجز عن إجابته يلقي الإنسان المعاصر فى أتون الجحيم العقلى أو الفكرى :

(١) المسرحية : ص ١١٦ .

(٢) نفسه : ص ١١٦ .

(٣) نفسه : ص ١٨٩ .

- " إنك ستقتليننى قتلاً ... لو تركت على ما أنا فيه ساعة أخرى ... فقد  
ترتكب جريمة " (١) .

ولا يفيق " بهادر " من سورة غضبه إلا على حقيقة قتل زوجته ، وهكذا ظل " بهادر " يبحث عن جواب لسؤال لا يحتاج إلى جواب ، لو فطن إلى المعنى الذى ينطوى عليه حوار الزوجة ، ومن قبل حوار الدرويش ، فكان أن قتل زوجته :

- " بهانة ! ... ! " بهانة ! ... ! زوجتى ! ... ! عزيزتى " بهانة " ! ... ! لا حول ولا قوة إلا بالله .... أكان الأمر يحتاج إلى ... إلى هذا .... " (٢)

وهنا تتحقق نبوءة الدرويش الذى قال بأن " بهادر إن لم يكن قد قتل زوجته فهو فى طريقه لقتلها فعلاً ، وفاء لدين أملت فلسفة العصر المادية وما اقتضته من ضرورة البحث المستمر عن الحقيقة وصولاً إلى المعرفة الروحية ، وسبيلها القلب لا العقل .

يحمل الزوج الجثة على كتفه ، ويتجه بها نحو الحديقة ، وفى هذه الأثناء يسمع طرْقاً على الباب ، فيخفى الجثة ، وإذا بالطارق هو الدرويش ، يضطرب الزوج عندما يخبره الدرويش بأنه يعرف أنه قتل زوجته . وهنا يطلب الزوج من الدرويش أن يساعده فى دفن الجثة فى القبر الذى حفره البوليس بأمر من المحقق تحت الشجرة ، ولكن الدرويش يرفض ، ليس لأن الموت البيولوجى يكاد يكون عديم الدلالة بالنسبة للصوفى فحسب ( الأمر الذى يبرر اختفاء الجثة فيما بعد ) بل يعنى أساساً اعتناق الروح من سجن الجسد وعودتها - فى توق أزلى - إلى بارئها ، ومن ثم اتحادها مع الآخر المتعالى إذا شئنا استخدام المعنى الصوفى الأعرق ، ومن هنا براعة الحكيم فى استخدام استعارة الجثة للزوجة الميتة . ومن ثم لا غرو أن ينفذ الدرويش يده من بهادر الذى لم يفهم المعنى حتى بعد أن قتل زوجته .

وقبل أن يذهب الزوج لدفن زوجته تحت الشجرة يوجه سؤالاً استنكارياً مثيراً للدرويش :

الزوج : هل ستطرح الشجرة كل هذه الثمار المختلفة فى المواسم الأربعة ؟

(١) المسرحية : ص ١٢٨ .

(٢) المسرحية : ص ١٣٠ .

(٣) المسرحية : ص ١٣٤ .

وخلال الحوار بين بهادر والدرويش - لحظة أن شرع الزوج فى دفن الزوجة تحت الشجرة - يصبح للشجرة معنيان أو رمزان ، فالدرويش يرى فيها " شجرة حياة الروح " وبهادر يرى فيها شجرة العقل - المعرفة العقلية ، فإذا ما تحققت نبوءة الدرويش الذى لم يكن أو بالأحرى لم يعد يثق كثيرًا بشخص بهادر الذى بادر بالفعل إلى قتل زوجته ( الرمز الروحى ) دون ذرة ندم ، بل ينوى تقديمها قربانًا على مذبح العقل ( تحت الشجرة ) على وهم أن تثمر ثمرها العجيب الذى يحلم به ، عندئذ يشرع الدرويش فى السخرية من موقف بهادر ومن رؤيته العبثية ( فيتبنى موقفه ليستدرجه لعله يرى ذاته فى مرآة الدرويش الصوفى ولكن من دون جدوى ) ، إذ ليس العيب ( الجهل بالمعنى ) كامنًا فى الزوجة ولا فى الشجرة ؛ ولكن العيب فى داخل ذات بهادر نفسه الذى لم يعرف أن " معنى كل كائن داخل كيانه ذاته لا داخل رأسه " ، على نحو ما نرى فى هذا الحوار الذى دار بين بهادر والدرويش ، إثر قيام الأول بقتل زوجته وسعيه إلى دفنها فى قبر " المعرفة العقلية " الذى قام المحقق والبوليس بحفره ، وعندئذ يتغير موقف الدرويش من بهادر الذى لم يدرك " المعنى " حتى هذه اللحظة ، ويرفض أن يد له يد العون :

الدرويش : لا تنتظر المعونة من أحد ، أحملها بنفسك !

الزوج : فليكن ! ، سأحملها بنفسى !

الدرويش : إنى واثق من قوة ساعدك !

الزوج : سأحملها ، وسأدفنها تحت الشجرة ، ولست بنادم على شيء ، حياتها كانت عبثًا ، أسقطت ثمرتها ، ولم تعش إلا على وهم الأمومة .

الدرويش : إنها ليست عبثًا ، ما دمت ستقدمها غذاءً شهياً لشجرتك .

الزوج : صدقت ، من هذه الوجهة هى نافعة .

الدرويش : إذا كان هناك عبث ففى حياة الشجرة .

الزوج : كيف ؟ ، الشجرة ؟ !!

الدرويش : إنها تأتى بزهرة لا تشمه ، وبألوان هى لا تشاهدها ، ويثمر هى لا تأكله ، ومع ذلك تكرر هذا العمل العبث كل عام .

الزوج : هذا ليس عبثًا ، هذا عمل نافع .



- الدرويش : بالنسبة إليك أنت ؟  
 الزوج : طبعاً .
- الدرويش : اعترف إذن أن ما تسميه بالعبث هو بالنسبة إليك أنت .  
 الزوج : تريد أن تقول إن حياة امرأتى كان لها معنى ؟
- الدرويش : معنى كل كائن داخل كيانه ذاته ، لا داخل رأسك أنت .  
 الزوج : ولكنها عندى بلا معنى إلا عندما أقدمها الآن غذاء للشجرة ، وتنمو بها الشجرة فموها العظيم ، وتنتج ثمرها العجيب .
- الدرويش : البرتقال فى الشتاء ، والمشمش فى الربيع ، والتين فى الصيف ، والرمان فى الخريف ؟
- الزوج : نعم ، نعم ؟
- الدرويش : اذهب إذن وأعد لشجرتك الوليمة !
- الزوج : إنى ذاهب ، لكن .
- الدرويش : لكن ماذا ؟
- الزوج : هل حقاً ستطرح الشجرة فى هذه الثمار المختلفة فى المواسم الأربعة ؟
- الدرويش : لا تسألنى أنا<sup>(١)</sup> !!
- وهكذا تظل شجرة بهادر هى شجرة المعرفة العقلية لا المعرفة الروحية ( التى يعينها الدرويش ) ، ومن هنا شكك الصوفى فى إنتاج ما تثمر ، ورفض أن يجيب عن السؤال الأخير.
- لذلك لا غرو أن ترى بهادر - رمز الإنسان المعاصر - يرى أن خلاصه من حكم الإعدام الذى ينتظره يكمن فى الاعتراف بجريئته التى دفعه إليها العقل " جريمة البهادر " ولن ينقذه من هذا الحكم بالإعدام جزاء ما اقترفت يده الأثمتان إلا الشجرة ( بالمعنى الصوفى ) ، ومن ثم كان قراره بضرورة امتلاكها ، بعد أن تأكد لديه أن حياته بدونها لا شىء ، عبث ولن تساوى شيئاً ، ولكن أتى له هذا الامتلاك بعد أن قتل زوجته أو بالأحرى قتل نفسه .

(١) يا طالع الشجرة : ص ١٤٦ - ١٤٧ .

هنا تكمن عبقرية الإنسان الباحث عن الخلاص والمعنى فى اتخاذ مثل هذا القرار ، قرار امتلاك الشجرة والانتماء إليها والتواصل معها شريطة أن يعرف ما هو طعامها ( الروحى ) بالضبط ، وأن يعترف أولاً بجريته فى حق زوجته ، وماذا ينتظره من عقاب من جراء قتلها :

الدرويش : أريد أن ترى المسألة بوضوح ، وأن تعرف جيداً ما ينتظرك .

الزوج : الاكتشاف معناه اكتشاف جريمتى .

الدرويش : بالضبط .

الزوج : ( مفكراً ) يجب إذا أن أقرر ؟

الدرويش : وأن تتخذ قرارك بعد إمعان .

الزوج : لا داعى للإمعان ، قرارى جاهز ولا رجوع فيه ، ولا شىء يجعلنى أخاف

وأحجم ، ولو حكم على الإعدام ، لأن حياتى بعد ذلك لن تساوى شيئاً .

الدرويش : ما هو قرارك ؟

الزوج : أريد الشجرة العجيبة !

الدرويش : إذن أذهب وأحمل إليها طعامها (١) .

ولم يكن هذا الطعام من وجهة نظر الدرويش إلا الغذاء الروحى الذى لا تنمو الشجرة بدونهُ ، والذى لن نكتشف قيمته إلا فى العالم الأخرى ، عبر الموت وانعتاق الروح من سجن الجسد ، وهو الموت الذى تجسده هنا السحلية - كما اكتشفه بهادر فجأة - فى قلب الحفرة . التى كانت تحت الشجرة ، بدلاً من جثة زوجته التى اختفت فجأة ، حيث الموت عند الحكيم "ليس فى حقيقته إلغاء لوجود ، لأن الله لا يلغى ما خلقه ، ولكنه انتقال لوجود من وجود إلى وجود" (٢) . وهنا يكتمل المعنى فى التكامل الوجودى ، ولكن أتى لبهادر العصر الحديث أن يدرك ذلك ؟ خاصة بعد أن اتبع هواه وسائر عقله وأعماه غروره الفلسفى الذى انتهى به إلى موت الإله فى رأيه ، وراح يلهث وراء امتلاك شجرة العلم المادى أو العلقى .

(١) يا طالع الشجرة : ص ١٥١ .

(٢) التعاودية فى الإسلام : ص ١٥٤ .

ولأن لغة الدرويش تختلف عن لغة الزوج فإن القضية لم تنته بعد ، فما زالت هناك مشكلة الاسم الذى ستحمله الشجرة . إن بهادر يطمع فى أن تسمى الشجرة باسمه " شجرة البهادر " التى كان يمكن أن تخلد اسمه فى الكتب والقواميس كما أنه يأمل أن تكون الشجرة من أهم اكتشافات العصر الحديث ، ولكن ليس بالمعنى الذى يدور فى ذهن الدرويش ( العودة إلى الإيمان ) على نحو ما يؤكد الدرويش له ذلك ، ولعل كليهما مُحق فى ذلك ، حيث لم يتفتق وعينا بهذه الشجرة إلا فى العصر الحديث ، حيث العبث أو اللامعقول ( سمة الوعى الفلسفى لا الدينى فى هذا العصر ) . لكن هذه الشجرة لن تؤتى أكلها إلا حين يؤمن بهادر ؛ إنسان العصر الحديث ، ويستعيد ثقته بخالقه ، وحيث يكتمل بذلك وعيه الوجودى الكامل ، بالمعنى الصوفى أو الروحى ، وحينئذ سوف ينتفع الجميع بشجرة بهادر ، ولكن بهادر نفسه سيوضع فى السجن ( والسجن ضرب من الغياب أو الموت المعنوى ) فلينتظر ساعة الخلاص إذن ، ومادامت شجرة البرتقال لم تعد شجرة برتقال فكل شيء إذن " يجب أن يغير اسمه ومعناه " (١) .

فليخلق لهذه الشجرة " شجرة بهادر الجديد " عالم جديد بمعايير جديدة ، معايير روحية لا عقلية فحسب ، عالم تتخذ فيه الروح مكانها ومكانتها بما هى سبيل الخلاص الروحى الوحيد أمامه ، حتى تفى بمقتضيات العصر الذى نعيش فيه ، وننظر للأمور نظرة شمولية من خلال أعمال الفكر فيها ، بحيث لا ينفصل المعقول عن اللامعقول ، والمادى عن الروحى والدينوى عن الآخرى . ذلك أن الفكر وحده هو مبدأ صادق فى جميع الأزمان كما قال ريتشاردز ، وحتى " لو لم تنضج الثمرة الأولى لشجرة ما نضوجاً تاماً ، فإن الشجرة نفسها ستبقى شجرة الحياة لحياة الروح " (٢) .

فإذا كان بهادر قد مات قبل أن يكتمل وعيه بشجرته ، فإن هناك من سيحاول مرة أخرى لربما يكتمل وعيه بوجوده ، بل ينبغى له أن يكتمل هذا الوعى الروحى ، إذا شاء البحث عن " المعنى " وتحقيق السعادة فى الدارين . وإذا كانت زوجة بهادر ( المتصوفة ) قد اختفت جثتها المادية فذلك لأن الروح لا تموت ، ولكن الذى مات أو وجد بهادر فى الحفرة القائمة تحت

(١) يا طالع الشجرة : ص ١٥٠ .

(٢) انظر : اللامعقول والزمان والمطلق : ص ٥٦ ومصادر النقل هناك .

الشجرة ميتاً هو السحلية أو الشبيخة خضرة رمز التواصل الشعبى فى الفلكلور - كما سنرى - بين عالمين أو مملكتين مملكة الأحياء ومملكة الأموات ، أو بين اللامعقول والمعقول على حد تعبير الحكيم ، ولم يفهم بهادر عندئذ الرمز الكامن والمعنى الكائن فى موتها وهو موت مجازى يشير إلى موت بهادر نفسه ، بهادر العصر الحديث بطابعه المادى بعد أن عجز عن فهم " المعنى " الروحى الذى ألمع إليه الدرويش مراراً " دون جدوى " . إن الموت بهذا المعنى ، موت السحلية أو إعدام بهادر أو حتى وضعه فى السجن ، يعنى الانقطاع بين عالمين . بعبارة أوضح الموت لكليهما يعنى فقدان الاتصال بين عالم المادة وعالم الروح من وجهة نظر بهادر لا الدرويش ، وهنا تكمن مأساة بهادر المروعة ويتجسد شعوره بالعيشية والاغتراب واللاجدوى .

من هنا كان حوار الدرويش يتسم دائماً فى اللحظات الأخيرة بالسخرية من سلوك بهادر الذى لم يفهم معنى اختفاء الجثة ولا مغزى موت السحلية بدلاً منها ، دون أن يفقه حقيقة مغزى موتها على الرغم من ادعائه الحب لها ، ذلك أن الموت البيولوجى عند الصوفى يشكل لحظة انعتاق الروح وفقاً لما يقر به الصوفى من ضرورة رحلة الروح - إثر مغادرة الجسد - لتحقيق عودتها إلى الله ( بحيث يصبح الموت عندهم وكأنه عبور إلى الخلود ) ، ومن المعروف أن ما ينشده الدرويش / الصوفى ليس فى إعادة بعث الجثة أو عودة الحياة إلى الروح فى البدن الذى مات . ومن ثم لا غرو أن يشرع الدرويش فى السخرية من بهادر ، ويتركه وحيداً يواجه مصيره المجهول ، معللاً ذلك بضرورة ذهابه إلى مكتب التلغراف ( الاتصال المادى أو التواصل بين العالم ) ليرسل إليه برقية عزاء ، مع أنه كان حاضراً لمشهد الوفاة المعلن ، وجهاً لوجه مع بهادر . ومغزى سخرية الدرويش هنا من بهادر أن الأخير أفزع الموت ( بالمعنى المادى ) ، باعتباره نهاية عدمية ، ولم يكتشف المعنى الوجودى الكامن والمتكامل الذى أشار إليه الدرويش ، أو بالأحرى لم يكتمل وعيه به على الرغم من تشبثه بامتلاك الشجرة العجيبة وحيه الشديد للسحلية ، ومن هنا كانت جرميته فى قتل زوجته ! والحق أنه بهذه الجريمة المادية أو " جريمة البهادر " <sup>(١)</sup> عموماً لم تزده إلا يأساً وإحباطاً وإحساساً بالعيشية ( لقد ظل يبحث عن سر اختفاء الجثة دون أن يعلم أين اختفت ، مثلما اختفت من قبل وهى حية ، دون أن يعرف أيضاً أين اختفت ، أو لماذا اختفت ) . ولولا هذا الجهل بالمعنى أو بالسر أو بالأحرى

---

(١) يا طالع الشجرة : ص ١٤٩ .

عجزه المعرفى العقلى ما انتهى به الأمر إلى قتلها بيديه الآثمتين حين عجز عن معرفة الإجابة، إذ كان صحتها قاتلاً بالنسبة إليه : فكان أن أقدم على جريمته ، والحق أنه قتل نفسه ! .

إن الزوجة هنا - حضروا أو غياباً - هى الرمز الصوفى ، حلمه الأزل ( فى الخلود ) بالحجاب بهية أو المولود المنتظر ، إنجاب الإنسان الجديد أو الكامل البهى . ومن هنا كان السجن - بالمعنى السابق - هو مآله المادى الذى قاده إليه عقله وعجزه عن المعرفة الروحية ، بما هو يشكل عندئذ المصير المأساوى لبهادر ومصير كل بهادر غريبى معاصر أعلن موت الإله ، فانتهى إلى الإلحاد وقتل الروح ، وواد البعد الدينى فى نفسه ومن ثم فقد أصدر بنفسه على نفسه الحكم عليها بالإعدام ، وتلك هى قمة العيشية والعدمية لأنه قتل ذاته لا الوجود الذى سوف يبقى دائماً يقول ولا يقول : لكل ذى بصر أو بصيرة .

ولكن ذلك - فى نظر الحكيم - لا يعنى الكف أو التوقف " بحثاً عن المعنى " الذى عجز بهادر عن الكشف عنه ( ومن هنا كانت تعاسته على الرغم من اقترابه الشديد من الدرويش والتواجد معه فى زمان واحد وفى مكان واحد وتحت سقف واحد ) : لأن بهادر ما زال على وعيه الناقض أو رأيه السابق الذى لا يرى العالم إلا بعين عقله أو بصره ، لا بعين قلبه أو بصيرته ، الروحية أو الصوفية ، أى أنه لم يكتشف بعد ساعة الخلاص على حد تعبير المسرحية ، مع أنه كان قاب قوسين أو أدنى منها ، بواسطة الدرويش الذى فتح " فجرة " فى عالم الخواء الروحى للزوج ، فتاق الخواء فيه إلى الملء ، وكان الحلم بامتلاك الشجرة ، ويقدر ما كان الخواء نقصاً كانت الرغبة فى الملء حلاً . لقد عكس هذا الخواء وجوده فى وعى الزوج مرتين : مرتين فى شعوره بالقلق المعرفى الحارق ، ومرة فى انتظار حكم الإعدام ، وجاء موت السحلية تعبيراً عن الوجود الأنطولوجى المغاير لعالم الظواهر الذى يجب أن يملأ ذلك الفراغ الروحى .

وبذلك تنتهى المسرحية باختفاء وسيلة إخصاب الشجرة إخصاباً روحياً ( جثة زوجته الصوفية ) وموت السحلية ( رمز الانقطاع عن العالم الروحى الآخر ، بعدما كانت رمزاً للاتصال والتواصل وهى حية ، كما سنرى فى تفسير رمز السحلية فى الفولكلور أو المعتقدات الشعبية ) . فى لحظة الموت هذه ، يدوى فى أرجاء المسرح / الحياة / النص : أغنيتان غنيتان بـرموزهما ، أعنى أغنية " يا طالع الشجرة " وأغنية " برجالاتك برجالاتك " كتعبير عن الوجه الآخر للمجذب الدينى والخواء الروحى والعقم العقلى والعدم الوجودى .

بالرغم من ذلك الموت / الانقطاع / الجذب سوف تبقى دورة الحياة ( الموت والميلاد ) فى ديمومتها بقاء القطار ذاته فى سيره بصفيده المستمر وضجيج المعتقد " إلى يوم يبعثون " ، ويختلط الموت ( موت السحلية وإعدام بهادر ) فى نهاية المسرحية مع أغنية السبوع التى تتهاذى أنغامها مع نزول ستارة المسرح معلنة نهاية المسرحية ، حيث كان ظهورها وإنشادها فى هذه اللحظة الختامية - لحظة موت السحلية - يشير إلى الميلاد المتجدد فى دورة الأكوان، وقد راحت أنغامها متماهية أو متناغمة فى الوقت فى نفسه مع أغنية يا طالع الشجرة وصفير القطار ، ثم لا تلبث الأصوات الثلاثة فى التداخل بما هى مؤثرات مسرحية ؛ موسيقية وغنائية وصوتية ، بكل ما تنطوى عليه من علامات دالة فى سيميولوجية العرض المسرحى ، وذلك فى لحن متكامل المعنى لتعلن فى النهاية - بتآلفها وتناغمها ، بتقابلها وتكاملها - استمرارية المعنى الذى تنطوى عليه سيميولوجية النص المسرحى ومن ثم سيميولوجية النص الكونى الخالد .

" وهكذا نرى توفيق الحكيم يحرص دائماً على التعميق فى الأشياء ، ولا يأخذها بسمياتها الحرفية الظاهرة ، وإنما يفوس فى أعماقها ، ويدور حولها ؛ يستكشفها من الداخل والخارج ، مثلما يفعل أصحاب المنهج الظاهراتى حين نظروا إلى الأمور نظرتنا إلى المكعب من وجوهه الأربعة لنكتشف " المعقول " فيما يبدو لنا " لا معقولاً " ، ونكتشف الوجود " فيما كنا نعتقد فيه " العدم " وهى نفسها النظرة التى عرفها الشرق فى المعرفة النورانية التى تجمع فى ثناياها بين عقليين : يعترف للأول بما لديه من قصور فى معالجة الأشياء الميتافيزيقية ، ويعترف للثانى بما لديه من قدرة متجاوزة تعلو الأشياء المحسوسة لتنفذ إلى ما وراء المحسوس" (١) . وهى نفسها الرؤية الكاملة أو المتكاملة فى الأغنية الشعبية بطابعها الصوفى الذى آثره الحكيم ، وتعالى معه ، على نحو ما تكشف عنه هذه الدراسة لاحقاً ، وإن ظل ينكره حتى لا ينقض بنفسه اكتشافه " للعبث الشعبى العربى " .

بهذه الرؤية الإبداعية فى النص المسرحى يكون الحكيم - بداية - متناصاً مع ذاته الفكرية فى رؤيته التعادلية وكيونته الروحية ، وصيرورته الإيمانية ، ونزعته الصوفية ، حيث لا خلاص - فى رأيه - من لا عقلانية الوجود بالمعنى الغربى إلا بالعودة إلى عقلانية الوجود

---

(١) اللامعقول والزمان والمطلق : ص ٥٦ .

بالمعنى الشرقى أو العربى الإسلامى . وبهذا يتناص اللامعقول مع المعقول ويتعالقان معاً تأكيداً للمعنى الوجودى المتكامل والكائن فى ذوات الموجودات على نحو ما رأينا فى فقرة "حدود العقل وآفاق الإيمان عند توفيق الحكيم" . وتلك هى رؤيته الذاتية للعالم .

ولكن ما هى آفاق التناسل فى المسرحية مع الأغنية الشعبية ذاتها ؟ وماذا عن التناسل مع العناصر الفلكلورية الأخرى التى ترددت أصداؤها بقوة فى نسيج النص المسرحى ؟ وإن كان الذى يعنينا هنا هو آفاق التناسل مع الأغنية الشعبية قبل غيرها ، ومثلها السحلية أو الشبيخة خضرة باحثين عن مفاصل هذا التناسل الظاهرة أو المضمر ، وأين تكمن ، وكيف كانت ؟ ولماذا ؟ .

هنا تكمن عبقرية الحكيم فى الربط بين النص الشعبى الذى يسعى إلى معرفة "الحقيقة" بالطريقة الصوفية وبين المسرحية التى يبحث خلالها البطل عن الخلاص الروحى أو المعرفة الروحية من خلال الرؤية الصوفية التى جسدها الدرويش ذو المعرفة اللدنية وبين المعرفة العقلية أو العلمية التى يجسدها بهادر رمز الإنسان المعاصر بما هى معرفة قائمة على التحقيق والتفتيش والبحث والتقصى بالمعنى المادى ، وعلى نحو يعكس ثقافة الأسئلة العقلية الغربية على أمل توقع الإجابات الروحية دون جدوى ، فلكل معرفة طريقها ، ولكل حقيقة سبيلها ، ولا معنى للخلط بينهما ، ولهذا لا غرو أن يكون "بهادر مفتشاً" فى قطار "الحياة" شأنه شأن المحقق النيابى الذى انتهى به تحقيقه العقلى إلى لا شىء ، ومن ثم لم يستطع أن يميز بين الوهم والحقيقة أو بين اللامعقول والمعقول ، وهنا تكن مأساة بهادر العصر الحديث وأمثاله من البهادر<sup>(١)</sup> المعاصرة .

---

(١) بهادر لغوياً مشتق من الفعل "بهدر" بمعنى بطىء الحركة سىء الغداء ، والبهادر هو السبىء الغداء بمعنىء الحسى ( المادى ) وبمعناه المجازى ( الغداء الروحى ) . انظر المعجم الكبير مادة " بهد " ج ٢ ص ٦١١ . مجمع اللغة العربية فى القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٢ . انظر أيضاً مادة " بهدر " بمعنى الإنسان الذى بطؤ شبابه ، والبهدرى هو المرقم أى البطىء الشباب ، وعلى المستوى المجازى تعنى البطىء النمو والوعى ، انظر : جورج مترى عبد المسيح : معجم لغة العرب ، ج ١ ص ١٢٠ مكتبة لبنان طبعة ١٩٩٣ م .

## آفاق التناس بين المسرحية وأغنية يا طالع الشجرة :

فى إيجاز - يتلوه تفصيل - تنتهى بنا مسرحية يا طالع الشجرة إلى أمرين : أحدهما : عبثية الشكل ، والآخر لا عبثية المضمون ، وهذا هو مفهوم اللامعقول عند الحكيم ؛ وعلى نحو ما طبقه إبداعياً فى المسرحية ، فإذا ما انتقلنا إلى الأغنية وكيف تناس معها الحكيم تناساً " ما وراثياً " وهو ما أطلقنا عليه مصطلح " الميتا تناس " ، رأينا أن الأغنية تنتهى بنا أيضاً إلى أمرين : أحدهما : عبثية الشكل ( إذ كيف تكون ثمة بقرة فوق شجرة ... إلخ) . والآخر ؛ لا عبثية المضمون : بما هى أغنية صوفية ، كما ذكرنا ذلك مراراً .

وعلى الرغم من إدعاء الحكيم المراوغ بأن أغنية يا طالع الشجرة هى أغنية عبثية الشكل وعبثية المعنى آن .. ونقول إدعاء الحكيم المراوغ ، لأن معنى كلامه أنه ينكر أن يكون قد تناس معها أو تعالق بها على مستوى المضمون أو الدلالة وإنتاج المعنى ... وهذا غير صحيح ، بل إنه كان على وعى كامل بحقيقة " معنى المعنى " القار فى الأغنية ودلالاتها الفولكلورية ، الميثولوجية والصوفية ، وأنه أثر أن يتناس معها - على المستوى الفكرى (الصوفى) اتساقاً مع رؤيته الصوفية فى المسرحية ، باعتبارهما - الأغنية والمسرحية - تدعوان إلى فتح نافذة روحية على العالم .

ولعل ما يكشف زعم الحكيم ويقوض ادعاء المراوغ ، ويؤكد أنه كان على علم كامل بمعنى الأغنية وعلى وعى بدلالاتها الصوفية أن الأغنية لا تتردد طيلة المسرحية إلا على لسان الدرويش ، باعتبارها عنده جزءاً من الحوار الذى يحمل المعنى الروحى فى المسرحية ، حتى عندما تتردد الأغنية على لسان أطفال المدارس باعتبارها نشيداً مدرسياً فإنما يعنى الحكيم بذلك طابعها التعليمى فى زمن الطفولة ، ومن الفطرة والبراعة ، ومن البدايات المقدسة ..

ثمة دليل فرعى آخر ، لكنه لا يخلو من دلالة ، وهو أن الحكيم يكتفى طيلة المسرحية بعرض المقطع الأول من الأغنية دون سائر الأغنية ، لأن المقطع الأول يتجلى فيه الجانب العبثى فى الأغنية ( لغير العارفين بلغة الصوفية المحملة بالرموز ) ، أما المقطع الثانى ، فلا عبثية فيه ، بل فيه يكمن المعنى ، والمنطق ، والسبيل إلى الخلاص الروحى فى نظر الدرويش أو الصوفى الواصل ، وفى نظر المريد الآمل ، المفتش أو الباحث عن الخلاص أو الأمان الروحى من خلال الطريق الصوفى ، وباعتباره هو سبيل القلب لا العقل فى المعرفة اللدنية ، معرفة ما وراء الطبيعة ، معرفة ما وراء " ظاهر " الكون ، معرفة ما وراء المادى والمحسوس ، وحيث



تؤكد لنا مثل هذه المعرفة " معنى " الوجود ، و " فلسفة " الكون وغاياته التى لا سبيل للعقل إليها . وإنما سبيلها " بيت الله " أيًا كان هذا البيت ، وحيث " رسول الله " هو سبيلنا إلى الدين الذى يرى الحكيم ضرورة الإيمان به دون سؤال العقل ، أى عن طريق القلب ، حيث الإيمان فطرة لا تحتاج معها إلى دليل على حد قوله ، وعلى نحو ما رأينا فى "حدود العقل وآفاق الإيمان عند توفيق الحكيم " .

إن الحكميم تناس مع الأغنية على مستويين : مرة باعتبارها أغنية شعبية يرددها الأطفال ، وهنا استفاد من الشكل الفني العبثى للأغنية ، كما هو ذائع بين الأطفال . ومرة باعتبارها أغنية صوفية عندما كان الصوفية ينشدونها فى حلقات الذكر ، وهنا تناس معها على المستوى الدلائى .

بعبارة أبسط ، إذا كان التناص فى أبسط تعريفاته تركيب نص لاحق على نص سابق مع المغايرة فى الدلالة ، فإن الحكيم هنا لم يقم - على مستوى التجريد - بهذه المغايرة ، لا فنياً ولا دلاليًا ، فكان أن قام بتركيب المسرحية - فنياً - على الأغنية ، ومسائراً لها فى اتجاهها الفنى العبثى بعد أن انحدرت إلى سفح الكيان الاجتماعى وفقدت وظائفها الصوفية ، وأضحت أغنية من أغانى الزطفال . وكان أن قام أيضاً بتركيب المسرحية - دلاليًا - على الأغنية ومسائراً لها فى رؤيتها الأنطولوجية للعقل والمعرفة والوجود ، يوم كانت أغنية صوفية حية يرددها المتصوفة فى حلقات الذكر من قبل .

من هنا نرى ضرورة ذكر نص الأغنية الشعبية كاملاً ، تمهيداً للوقوف ، لا على جوانبها عبثية الشكل والمضمون لغير العارفين بلغتها الرمزية فى معناها الصوفى أو معناها الميثولوجى الاعتقادى ( حيث الميثولوجيا عقيدة فى عصور البدايات المقدسة ، وقبل الديانات السماوية ) ، وإنما للوقوف على معناها الكامل والكامن أو الحقيقى على المستويين الميثولوجى والصوفى ، وهذا هو نص الأغنية :

يا طالع الشجرة  
تخلب وتسقينى  
والمعلقة انكسرت  
وف ايده حمام أخضر

هات لى معاك بقرة  
بالمعلقة الصينى  
يا مين يريـنى  
بيلقطة السكر

يا ريت أنا دقيته

وسوف نتأكد وشيكًا أن شبكة العلاقات الأنطولوجية ، أيًا كان التفسير ، ميثولوجيًا أم صوفيًا ، تشير إلى أن نص الكون - فى عالم الأغنية - كتاب مفتوح ، أمام المؤمنين والعارفين بالله ، فطرة أو اكتسابًا ، ومن ثم لا عبث ولا عبثية . بل ثمة منطق ومعنى وغاية فى ضوء الإيمان أو المعرفة الروحية ، على النقيض من المعرفة العقلية الغربية التى انتهت بالإنسان الأوروبى إلى الإلحاد وإنكار وجود الله ، وأن الإنسان - سيد هذا الكون غرورًا - قد اكتشف أن مسالة العقل انتهت به إلى طريق مسدود ( أو " حارة سد " على التعبير الشعبى الدارج ) فكان اليأس وكان الإحباط مصيره ، وكان الشعور بالعبث واللامعنى هو المرفأ العاصف ؛ فكرًا وإبداعًا .

وإذا كان الحكيم يرى أن حياة الإنسان متصلة من قبل ولادته إلى ما بعد موته ، وبعد البعث ضروريًا لإعادة الإنسان إلى الطبيعة ، فالأغنية - أساسًا - تتمحور حول هذا المعنى تأكيدًا لهذا المعنى الوجودى المتكامل ، الذى يحدد طريق الخلاص أمام الإنسان للخروج من محتته الوجودية ، وأن ثمة حياة أخرى خالدة وعودة إلى الرحم السماوى من جديد . وإذا كانت الأغنية فى اعتصامها بالمعرفة الميثولوجية أو الصوفية بحثًا عن هذا المعنى فإنها - برؤيتها فى الحالىين - تتوسل إلى هذه المعرفة بالقلب دون أن تنكر العقل ، تمامًا كما يدعو الحكيم إلى ذلك فكرًا وإبداعًا .. وهنا تكمن عبقرية الحكيم - فى تناصه مع الأغنية - شكلاً ومضمونًا ، حيث يدعو كلاهما - الأغنية والمسرحية - إلى ضرورة فتح نافذة على العالم الروحى مقابل نافذة العالم المادى ، ويظل الإنسان فى النصين - الفنى والوجودى ، المتخيل والواقعى - فى شوق دائم للوصول إلى معرفة الله .

من المعروف أن حملة التراث من آحاد الشعب العاديين كثيرًا ما يجهلون أو ينسون الأصول الأنطولوجية والمعانى الاعتقادية ، الميثولوجية أو الصوفية - التى ينطوى عليها الكثير من النصوص الشعبية الأدبية أو القولية والحركية والتشكيلية والإيقاعية .. إلخ . باعتبارها فنورًا متوارثة من حقب زمنية موهلة فى القدم ؛ حتى صاروا يمارسونها دون أن يشغلوا بالهم بأسباب نشأتها ، وكل ما يعنيههم فى هذه الممارسة هو الوظائف الجمالية أو النفعية التى تؤديها هذه النصوص فى ممارساتهم اليومية .

إن الباحثين المتخصصين فى علوم الفولكلور والأنثروبولوجيا الفلسفية و المعرفية والدينية ، أو فى علم النفس الشعبى أو الجمعى ؛ يعرفون جيدًا أن ليس فى التراث الشعبى ، المادى والروحى ، نص بلا معنى أو بلا منطق أو بلا وظيفة جمالية أو نفعية تحفظ عليه حياته على

امتداد الزمان أو اختلاف المكان ... فإذا ما فقد معناه أو وظيفته اندثر تلقائياً . أو تحول إلى ممارسة أو شعيرة أخرى ( رواسب ثقافية ) تزداد غموضاً مع الأيام ، بسبب انقطاعها عن سياقها المعرفى والوظائفى ، أو انفصالها عن سياقها السوسيوثقافى الحقيقى وأشهر مثال تاريخى على ذلك هو الرقص الشعبى الذى كان فى الأصل نوعاً من الطقوس والشعائر ، ما لبث أن فقد - مع الزمن - وظائفه الدينية ، وتحول إلى وظائف أخرى غايتها التعبير عما يعترى الناس من أفراح وأتراح . وربما كان أيضاً أحدث مثال على ذلك فى الماضى القريب أغنية " الطشت قاللى " التى اجتثت من بيئتها الشعبية الطبيعية ، وقامت بغنائها إحدى المطربات فى الإذاعة والتلفزيون ، بعيداً عن سياقها الاجتماعى ، وعندئذ أصبحت الأغنية نصاً بلا روح وشكلاً بلا مضمون ، حتى أضحت مثار سخرية أبناء القاهرة والمدن الكبرى الذين لم يعرفوا السياق الأصلى الذى كانت تردد فيه هذه الأغنية فى القرى والنجوع المصرية النائية ، على أهميتها فى التعبير عن منظومة القيم الريفية فى يوم " الصباحية " عقب زفاف العروس إلى بيت زوجها لأول مرة ، وهى قيم تتصل بالعفة والحياء والحجل الفطرى النبيل .

مثال ذلك أيضاً أغنية يا طالع الشجرة التى انتقلت من بيئتها الصوفية مع انحسار التيار الصوفى فى مصر فى بدايات عصر النهضة الحديثة ، ففقدت الأغنية عندئذ " وظائفها الروحية " لكنها لم تمت ، بل تحولت إلى بيئة أخرى ووظيفة أخرى ، هى عالم الأطفال وألعابهم الشعبية ، فأضحت عندئذ أغنية بلا معنى ولا مضمون خارج سياقها الأصلى ، وراح الأطفال يرددونها فى بعض ألعابهم التى تشبه حلقات الذكر الصوفى - كما سنرى وشيكاً - دون أن يشغلوا بالهم بأصولها الصوفية ، وحسبهم أنها تساعد على أداء الوظيفة الحركية والإيقاعية المصاحبة لألعابهم الشعبية ..

ولا أدرى هل كان الحكيم حقاً لا يعرف المعنى الصوفى الكامن فى أغنية يا طالع الشجرة التى استعار عنواتها " الصوفى " - فى تناص ظاهر - عنواً متماهياً أو مشتركاً مع نصه المسرحى ( الصوفى ) ، أم كان يتجاهل هذا المعنى الصوفى / الروحى / المنطقى / المعقول ، مكرراً وخيثاً بدهائه المعروف ؟! ليقدمه بعد ذلك منسوباً لنفسه تحت مقولته الطريفة " اللاواقعية الفكرية الشعبية " ... وإلا فما مغزى ورودها دائماً على لسان الدرويش ، والدرويش فقط ، دون سائر العاملين أو الفاعلين فى النص ( شخصيات المسرحية ) .

ذلك أن دلالة المعنى التى أنتجها النص المسرحى تتفق تماماً مع دلالة المعنى الكامن فى النص الشعبى ، على نحو لا يمكن أن يكون الأمر معه مجرد مصادفة ؛ أو توارد خواطر ، إلى

حد وقع الحافر على الحافر " لسبب بسيط جداً ، هو أن الحكيم نفسه ينكر بل ينفي - كما رأينا من قبل - أن يكون للأغنية أى معنى مفهوم ، بل هى فى رأيه عبثية المعنى ! ..

إن دلالة المعنى الذى تنتجه المسرحية هو نفسه المعنى الكامن فى الأغنية على نحو ما نرى فى تفسيرها الأنطولوجى ، الميثولوجى والصوفى الذى نذهب إليه ، مستعينين أحياناً بالتحليل النفسى والسيميولوجى إلى جانب التفسير الفولكلورى :

وقبل الوقوف على دلالة المعنى فى الأغنية نستعرض هنا الآراء أو التفسيرات الخاطئة أو السطحية التى ذهب إليها النقاد ودارس الحكيم فى تفسيرهم لأغنية يا طالع الشجرة : فالناقد المعروف محمد مندور - بما هو أول ناقد تعرض لتفسير الأغنية إبان عرضها مسرحياً عام ١٩٦٢ - لا يراها إلا موالاً شعبياً ( مع أن الموال فن قائم بذاته ويختلف عن بنية الأغنية الشعبية الجماعية ) ، وأن هذا الموال " ليس من المعقول ، بل من الرمزية " ( وهو ما نوافقه عليه ) ولكن أية رمزية يعنى مندور ؟ يقول :

" إنها رمزية بلجاً إليها الأدب الشعبى ، آخذاً بالتقية حيناً ، وسترًا لماء الوجه حيناً آخر ، فهذا الموال يجرى على لسان رجل فقير يسأل من اغتنى - أى مَنْ طلع الشجرة - أن وجود عليه ببقرة تسقيه شيئاً من لبنها ، وليس هذا من اللامعقول فى شيء ، بل إنه من تدبير العقل الذكى الواعى القادر على الرمز وستر الحياة خلفه " (١).

واستمر هذا التفسير الساذج ذائعاً بين الباحثين والنقاد حتى الآن . مثال ذلك ما ذكره محمد الدالى فى كتابه الأدب المسرحى المعاصر (١٩٩٩) ، حيث يقول :

" هذا الموال المبدع للغة الأحلام ، هو المصنع لآمال الأدميين الذين قضى عليهم شظف العيش وخشونته ، وطحتهم الفاقة حتى أنهم لم يعودوا يحلمون إلا بالطعام والشراب . ولما كان معظمهم من الفلاحين الكادحين تبلور حلمهم وتوقع طلبهم فى بقرة حلوب تدر عليهم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، وملعقة فاخرة مصنوعة فى الصين الشهيرة بصناعة هذه الملاعق الفاخرة التى لا يحملها إلا القادرون من الأغنياء وكبار الفلاحين " (٢).

(١) محمد مندور : مسرح توفيق الحكيم ، ص ١٦٧ ، دار نهضة مصر ، القاهرة (ب.ت) .

(٢) محمد الدالى : الأدب المسرحى المعاصر ، ص ١٩٨ ، ط ١ عالم الكتب ، القاهرة ١٩٩٩ .

أما آخر ناقد تعرض لهذه المسرحية بحسب علمنا فهو الناقد المسرحى أحمد سخسوخ فى كتابه توفيق الحكيم مفكراً ومنظراً مسرحياً (١٩٩٩) ، فلم يخرج أيضاً من عباءة محمد مندور ، فسار على نهجه فى تفسير الأغنية التى يسميها أيضاً موالاً ، فيقول :

" فقد استخدم الفقراء موال يا طالع الشجرة للتعبير عن أحلامهم فى الطعام والشراب ، كوجه آخر للجوع والحرمان ، وقد استخدم هذا الموال فى المسرحية كتعبير عن وجه الجذب فى الشجرة والرحم " (١) .

والأكثر غرابة أن سخسوخ يبرر عبثية الأغنية بأنها تنتمى إلى خرافة البدائيين ، وأن الأدب الشعبى فى معظمه أدب خرافى ! ناجم عن التخلف الحضارى والبعد عن التفكير العلمى ، وأن هذا الطابع الخرافى - كما يقول سخسوخ - هو ما جعل الحكيم يعتقد أن فننا الشعبى يحوى أصل العبث والفنون الحديثة ! ثم يضيف :

" إذا كان الأمر كذلك ، فكل الآداب الشعبية فى العالم يغلب عليها الطابع الخرافى ، وأنها بمنطق الحكيم نفسه تعد فنوناً عبثية ، ومن ثم فلا معنى للحكيم أن يتباهى باكتشافه للعبثية الشعبية العربية ( المصرية تحديداً ) وأن الصواب قد جانبه فى رأيه ورؤيته " (٢) .

والحق أن سخسوخ هو الذى جانبه الصواب فى رؤيته للأدب الشعبى .

وفيما بين مندور وسخسوخ قرابة نصف قرن لم يضاف النقاد جديداً خلاله ، وعلى نحو يكشف عن مدى سذاجة مثل هذه التفسيرات والتأويلات السطحية ، بقدر ما يكشف أيضاً عن قصور الفولكلوريين العرب ( فى إسهاماتهم النقدية أو دراساتهم الأدبية ) الذين لم يصححوا مثل هذا الخطأ على ذيرعه فى الخطاب النقدى المسرحى المعاصر ، على مدار أكثر من أربعين عاماً .

---

(١) أحمد سخسوخ : ص ٨٣ .

(٢) نفسه : ص ٥٥ - ٥٨ .

أما السحلية أو " الشبيخة خضرة " ، فلم يفتن أحد من النقاد والدارسين إلى دلالتها الفولكلورية الذائعة في معتقداتنا الشعبية ، ولم يسألوا أنفسهم لماذا اعترف الحكيم بأنه مدين لها بلحظة التوهج الدرامى عند تخلق هذه المسرحية أيضاً ، كما لم يسألوا أنفسهم أيضاً : لماذا اختار السحلية - دون غيرها من الزواحف - لتكون معادلاً للزوجة أو الوجه الآخر لها ، كما يقول أحد الدارسين إن الحكيم اختارها من عالم الزواحف " التي تمثلت فيها الروح مثلما تمثلت في الإنسان ، وفي غيره من الكائنات التي نفخت فيها الروح .

غير أن التناص الفولكلورى معها سوف يكشف أن الحكيم لم يقع اختياره عليها عبثاً ، وإنما عمد إليها عمداً لتعزيد المعنى الروحى أو الوجودى الذى يدعو إليه فى المسرحية ، ومن ثم تتفق فى معناها الفولكلورى مع المعنى الدلالى للمسرحية .

### التفسير الميثولوجى لأغنية يا طالع الشجرة :

إن الأغنية فى مجملها بنية رمزية دينية ، ذات أصول ميثولوجية ، وتحمل رؤية أنطولوجية، تعود إلى آلاف السنين ، قبل أن يتحول معناها - عند المسلمين - إلى " نص صوفى " رمزى ، يعبر عن المضمون الروحى الميثولوجى ذاته ، حيث لا مكان هنا والآن - فى زمن البدايات المقدسة - للعبثية ، ومن ثم فالأغنية تحمل تأويلاً روحياً ورؤية صوفية للكون والوجود والحياة ... وكان قوامها فى الحالين : الميثولوجى والصوفى يعتمد على الرمز والأسطورة والصورة التى تخص جوهر الحياة الروحية لدى المجتمع الشعبى ؛ فهى على المستوى الأنطولوجى والميثولوجى تتحدث عن قصة الوجود الإنسانى فى اللاوعى الجمعى ، منذ لحظة الخروج من الرحم السماوى ( الطرد من الفردوس ) مما يعنى حتمية انفصال أو انقطاع الإنسان - منذ لحظة الميلاد الوجودى - عن " الشجرة الكونية المقدسة " شجرة الحياة وعنوان البعث والتجدد ، ورمز الخلود . وهى بهذا المعنى ذائعة ومعروفة فى ميثولوجيا العالم القديم ؛ فهى فى الأساطير المصرية - على سبيل المثال - شجرة الحياة المقدسة ، وذات الأبناء الناهدة التى ترضع الفرعون لتمنحه الخلود .

وهى أيضاً شجرة البعث ( أو شجرة الميلاد )<sup>(١)</sup> التى تلعب دوراً أساسياً ومهماً فى بعث أوزيريس ، وفوقها يجلس الإله ، ويتغذى من ثمار الأبرار ( من البشر ) ... إلخ<sup>(٢)</sup>. وهى أيضاً " القطب " الكونى ، أو " قطب العالم " الواصل بين ثلاثة عوالم : العالم تحت الأرض (بجذورها) والسما (بقرونها) عبر الأرض ، وبهذا المعنى أصبحت الشجرة - فى أساطير عالمية أخرى - نوعاً من الطريق المفتوح بين الأرض والسما ، صعوداً وهبوطاً .. فهى تأتى من أحشاء الأرض لتصلها بالسما ، وهكذا تتمثل الصلة بينهما - الأرض والسما - بطريقة رمزية فى صورة شجرة ، هى فى الوقت نفسه شجرة الكون أو العالم ، وعلى نحو فهمت معه

---

(١) الأصل فى شجرة الميلاد معتقد شعبى قديم يعود إلى مصر الفرعونية ، وإلى أسطورة إيزيس وأوزيريس تحديداً ... ويشىء من الاستطراد الذى لا يخرج بنا عن الموضوع ، نقول : إن الشجرة الخضراء فى التراث الدينى الفرعونى - تعتبر رمزاً لرجوع الحياة أو الروح التى تنبعث ثانية بعد الموت ( وهى أيضاً الشجرة التى ولد تحتها حورس الطفل الإلهى فى الأسطورة ) " ونشأ عن ذلك الحادث عبد شعبى جليل كان يُقام فى كل سنة تذكرة لتلك المناسبة ( عودة الحياة إلى أوزيريس فى شكل شجرة ) ، وذلك برفع شجرة مقتلعة ، وغرسها فى الأرض فى محفل عظيم ، وكانت تجمل فتغلى بالأوراق الخضراء وبالزخارف والتنانيم مثل الكف ( خمسة وخمسة ) ومفتاح الحياة وغيرها ، وذلك عند إرجاعها على الحياة ذلك الوجه المذكور...".

لمزيد من التفاصيل عن هذه الشجرة الدائمة الاخضرار ، وعلاقتها بالحياة السماوية والبعث والخلود ، انظر ، جيمس هنرى برستيد : فجر المظير ، ترجمة سليم حسن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ( سلسلة المصريات ) طبعة ١٩٩٩ .

(٢) لمزيد من التفصيل : انظر :

- ديانة مصر القديمة ، تأليف أدولف إرمان ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى ، ص ٢٤٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الزسرة ١٩٩٧ .

- معجم الحضارة المصرية القديمة ، تأليف جورج بوزنر وآخرين ، ترجمة أمين سلامة ، ص ١٣٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الزسرة ١٩٩٦ .

- الرموز فى الفن والأديان ، تأليف فيليب سبرنج ، ترجمة عبد الهادى عباس ، ص ١٢ ، ص ٢٨٤ - ٢٩٦ . الناشر : دار دمشق سورية ١٩٩٢ .

وفى هذا الكتاب صور ورسوم جدارية مصرية قديمة للشجرة الكونية المقدسة التى تصل الأرض بالسما حيث توضع الآلهة ؛ رمزاً للحبورية والتجدد والخلود ، ومصادر النقل هناك .

هذه الشجرة الكونية - فيما بعد - من قبل الصوفية برمزية معقدة ، تربط بين العوالم الثلاثة: عالم الله ، وعالم الإنسان ، وعالم الكون<sup>(١)</sup> ، كما سنرى وشيكًا ، وكان من جراء الخروج من الرحم السماوى ، والانقطاع عن شجرة الخلد ( السماوية ) ، أو الهبوط الأرضى ، المتمثل فى لحظة الميلاد الوجودى للإنسان أن تولدت لديه رغبة جامحة - واعية أو لا واعية - وتوقًا أبدىًا فى العودة إلى هذا الرحم ... على نحو يعكس حلمًا إنسانيًا أزليًا أبدىًا فى الحنين إلى هذا "الفردوس المفقود" بمعناه المثالى الذى يتمتع فيه الإنسان بالغبطة والسعادة وبالحرية والمعرفة معًا ، ولا يخضع لأى شرط من الشروط إلا شرط الإنسان الكامل ؛ شرط آدم قبل السقوط أو الهبوط ، ( ما قبل الخطيئة ) . ولما كان ذلك مستحيلًا ؛ فقد ترتب عليه إحساس عميق بالفقد والخوف والعجز وظهور الوعى بالحاجة إلى التواصل والشعور بالأمان من خلال رغبته فى التواصل مع الصاعدين إلى هذه الشجرة الفردوسية السماوية .

ووسيلته إلى ذلك " البقرة المقدسة " أو " البقرة الإلهية "<sup>(٢)</sup> بكل رموزها وطقوسها الذائعة فى أساطير العالم القديم ( وحكاياته الفولكلورية ورموزه الصوفية فيما بعد ) . ويمثل حليبيها الخالد والمقدس نقطة الإنطلاق لتجديد الإنسان وبعثه وخلوده ، بما هى رمز لعقيدة مقدسة فى الميثولوجيا المصرية ، التى كان توفيق الحكيم شغوفًا بها ، وبما هى رمز مقدس منذ عصر مبكر للغاية للإلهة حتحور<sup>(٣)</sup> التى انتشرت عبادتها فى مراكز كثيرة بالدلتا ومصر العليا ،

---

(١) فى الرسوم الإسلامية عادة ما ترسم الشجرة بفروعها الممتدة اللامحدودة ، وأوراقها الكثيفة الثلاثية ورمزًا للشجرة الكونية ، شجرة الحياة ؛ انظر : الرموز فى الفن والأديان (م.س) ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .  
(٢) حول البقرة المقدسة أو البقرة الإلهية فى التراث الدينى الفرعونى ، بشىء من التفصيل ، انظر : فرانسوا دوما : حضارة مصر الفرعونية ، ص ٣٨٢ - ٣٨٤ . المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٨ .  
(٢) من المعروف أن الإلهة حتحور قد صورت - فى فنون الإهرام والرسوم الجدارية على المعابد - فى صورة شجرة مقدسة مرة ، بأعبارها الروح الحية للأشجار ، وفى صورة بقرة مقدسة مرات كثيرة ، باعتبارها ربة فى صورة بقرة ، ومربية للفرعون ، ومرضعة له ، وقادرة على البعث ( مثل إيزيس ) وهى أيضًا - بالمناسبة - ربة الذهب (لون البقرة) وهى ربة الأماكن البعيدة ، وربة السعادة والأمل عن ذلك كله .  
انظر :

- الديانة المصرية القديمة ، تأليف ياروسلاف تشرنى ، ترجمة أحمد قدرى ، ص ٢٢ ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٩٦ .

- معجم الحضارة المصرية القديمة (م.س) ص ٥٤ ، ١٠٠ ، ١٣٠ ، ١٥٧ ، ١٧١ ومصادر النقل والنقوش والصور الفرعونية هناك .

- معجم الأساطير ، تأليف شابيرو ، ترجمة حنا عبود ص ١١٣ دار الكندي بيروت ١٩٨٩ .



باعتبارها الربة حامية الفرعون ، وقد مثلت صورتها فى معبد الدير البحرى فى شكل بقرة ترضع الملك / الفرعون والتي تنفث فيه ( اللبن الإلهى )<sup>(١)</sup> . وعلى الرغم من أن هذه البقرة المقدسة بحليبها الإلهى المانح للخلود قد فقدت وظائفها ورؤيتها الأنطولوجية ( الشعبية ) مع مرور الزمان وتغير الثقافات وتبدل الديانات ، فإنها قد عرفت طريقها - فيما بعد - إلى كثير من الحكايات الشعبية المصرية العربية باعتبارها رمزاً للأومة المنقذة ، والأومة الحارقة ، القادرة على " بعث " الحياة لكل الأبرياء من الأطفال الطيبين الذين تغدر بهم زوجة الأب ، فتقتلهم تحقيقاً لغيرتها القاتلة ، وإشباعاً لرغباتها الحسية المقيتة<sup>(٢)</sup> .

### التفسير الصوقى لأغنية يا طالع الشجرة :

فإذا ما تجاوزنا هذه الأصول الأنطولوجية والدلالات الميثولوجية ، لكل من الشجرة والبقرة ، وجدنا الأولى فى الديانات السماوية ليست إلا شجرة المعرفة / الخلد أو الخلود التى أكل منها آدم ، فطرد على إثر ذلك من الجنة ، فكان السقوط وكان الهبوط وكان اللامعقول الدنيسوى<sup>(٣)</sup> ، وقد نصت الديانات السماوية الثلاثة فى تأويل الشجرة تأويلاً رمزياً ، لا تخرج

---

(١) قد لعب اللبن دوراً مهماً فى المعتقدات الشعبية الفرعونية ، إذ تدل فنون الأهرام والنصوص والصور والرسوم الفرعونية على جدران المعابد على أن إرضاع الربة ( ورمزها البقرة المقدسة ) للملك / الفرعون كان رمزاً لدخوله فى العالم الإلهى ومن ثم الفوز بالخلود ( فكما أن الطفل يرضع لبن أمه فيحفظ عليه حياته فى الشهور الأولى من عمره ، كذلك كان الملك عندما ترضعه الربة أو الإلهة ، فينال بهذا الطقوس حياة إلهية جديدة تعطيه القوة على القيام برسائله الملكية على الأرض ) فإذا ما انتقل إلى العالم السماوى قامت بإرضاعه كى يبعث من جديد ويعيش إنساناً خالداً ) ، انظر : معجم الحضارة (م.س) ص ٢٨٩ ، ٢٩٦ .

(٢) البقرة مرفيى أساسى فى كثير من الحكايات الشعبية المصرية والعربية والفرعونية منذ حكاية الأخوين فى التراث الفرعونى ، فهى تقوم بدور الأم البديلة الحانية أو المنقذة التى ترعى الفتاة اليتيمة ( ست الحسن والجمال ) بعد موت أمها ، فتحميها وتنقذها من مكر زوجة الأب الغيور التى تتأمر على قتلها . وهى أيضاً الأم الحارقة التى تعيد الحياة إلى الابن اليتيم ( الشاطر حسن أو الشاطر محمد ) بعد أن قتله أبوه غدراً وظلماً بتحريض من زوجة الأب الحاقدة أو زوجة الأخ الفاجرة ... إلخ .

(٣) من الجدير بالذكر أن الحكيم مؤمن بهذا المعنى للشجرة ، فقد افتتح كتابه شجرة الحكم ١٩٤٥ فيما يشبه عتبة الدخول إلى الكتاب بهذه الآية التى تحدد أفق التوقعات لدى قرائه : « فوسوس إليه الشيطان ، قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد ، وملك لا يبلى ؟ فأكل منها ، فبذبت لهما سوماتهما . قال : اهبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو » سورة طه ، آية ١٢٠ ، انظر : شجرة الحكم : ص ٣ .

عما ذكرناه ، ولكنها جميعاً تؤكد عجز الإنسان المعرفى والوجودى أمام مصيره الأرضى والدينوى الفانى .

فإذا ما اتجهنا إلى عالم الصوفية وجدناهم يتماهون فى بنيتها الرمزية ، ويعيدون صياغتها وتأويلها - بكل رموزها الميثولوجية والدينية - وتحميلها بالرموز جرياً على عاداتهم ، فأعادوا صياغتها أو كتابتها ( إنتاجها ) على شكل أغنية صوفية من أغاني الإنشاد الصوفى المصاحب لحلقات الذكر ولحظات الوجد الصوفى ... وقد انطوت " الشجرة المقدسة " عندهم على معنيين ، فى تورية رمزية صوفية ، فإذا الشجرة فى معناها الباطنى ومغزاها الخفى - هى الشجرة الكونية التى تربط - عند خواص المتصوفة - بين عوالم ثلاثة : عالم الله ، وعالم الإنسان وعالم الكون التى يرغب كبار الصوفية فى التماهى فيها واجتياها من خلال إيمانهم بـ " وحدة الوجود " ( التى يخشون البرح بها لغير أصحاب الطريقة ) وهدفهم عندئذ الوصول إلى مرتبة السعادة القصوى والغبطة الأولية .

أما الشجرة ، فى معناها الظاهرى والقريب عند عوام الصوفية ليست إلا دالاً على " شجرة أنساب الصوفية " ( مثل شجرة الأنبياء ) التى كان الدراويش المتأخرون يعتبرون أنفسهم الخلفاء الروحيين للمتصوفة الأوائل ، وكان لزاماً على كل درويش " مرید " أن يتلقى فترة تدريبه على يد أحد شيوخ الصوفية الواصلين ، وأن يتلقن شجرة نسبة الروحى حتى يصبح متضلعا فى " الطريق " وعندئذ يسمح له بإجراء مراسم القبول ( أو طقوسه ) من شيخ الخلوة أو شيخ الطريقة ، وهذه هو المعنى السائد والظاهرى فى الأغنية بالنسبة للدراويش الجدد الباحثين على الانتماء الروحى فى إحدى طرق الصوفية ، باعتبارها - آنذاك - طوق الخلاص وطوق النجاة فى عالم فانٍ محيط وغامض وغير مفهوم لديهم<sup>(١)</sup>.

وبهذا المعنى الظاهرى للشجرة يمكن أن يجد " العامة " أو فقراء الصوفية أسلوباً واضحاً للتواصل وتحقيق الانتماء ، وهو ما يبحث عنه " المرید " المبتدىء أو الحائر الفقير إلى ربه ، الذى يقف عاجزاً أمام مصيره الأخرى ، فيشرع فى البحث عن الخلاص - فى الأغنية - من

(١) لمزيد من التفصيل ؛ انظر : المجتمع الإسلامى والغرب ، تأليف هاملتون جب وهارولد بويين ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى وعبد الحميد الجمال ، ج٢ ، ص ٣٥٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ١٩٩٦ .

خلال التوجه إلى أحد شيوخ التصوف الواصلين ( يا طالع الشجرة ) بما هي شجرة المعرفة / الخلود ، متوسلاً إليه ( هات لى معاك بقرة ) بما هي معتقد مقدس ، حتى تروى ظمأه - المعرفى والروحى - الفطرى وتوقه الأزلى فى الخلود ( تحلب وتسقىنى ) ( بالمعلقة الصينى ) على نحو يستدعى معنى طلب العلم ( العقلى أو المادى وليس دينى ) ولو فى الطين ، بيد أن ( المعلقة أنكسرت ) بنمو الوعى ( العلم ) وانتهاء عصر الفطرة والبساطة ، أو بالأحرى عندما عجز العلم العقلى بقوانينه المادية عن تحقيق الإشباع الوجودى بنزعاته الروحية ؛ فكان أن أصابه عندئذ هلع الفطام - على حد قول علماء النفس - ذلك أن الحليب الذى كان يصله بالرحم السماوى / الفردوسى قد انقطع عنه .

الأمر الذى ولد لديه إحساساً بالضيق والفقد ( فقدان الشرط البشرى فى التواصل والخلود ، أو بالأحرى العجز عن استرجاع الشرط الإلهى قبل السقوط ) وأكد لديه الشعور بالقلق والخوف من عدوان وجودى ، إذ لم يفهم مغزى الفطام الحسى وانقطاع الحليب ( المادى ) وتحلب حاجته إلى نوع آخر من ( الحليب الروحى ) ولكن كيف السبيل إليه ، فتبدى له العالم ( الخارجى أو الدنيوى ) حينئذ ، عالمًا عبثيًا لا معقولاً ، أى بلا معنى مفهوم أو مغزى معقول ، وتحلب عندئذ له غريته الوجودية عن الله ، ومن ثم كانت حاجته الشديدة والجامحة - بفعل الوعى الجديد - إلى من يعطيه المعنى أو المغزى ( الغذاء الروحى ) الذى يمكن أن ينتشله من حمأة المصير المجهول ، والإحساس بالعدمية التى انتهى إليها العقل المادى أو الفلسفى .

لذلك نراه - فى الأغنية - يهرع إلى شيخه الصوفى وهو يتساءل فى ضراعة وتوسل : ( يا مين يربينى ؟ ) بكل ما تنطوى عليه هذه التربية من أبعاد إيمانية وروحية ... لعله يجد عند هذا الشيخ الواصل ، شيخ الطريقة ، طريقاً للخلاص من أزمتة الوجودية فى هذه الدنيا القانية ( دار الانتقال ) قبل أن يصيبه اليأس والإحباط ، فيعصمه من " السقوط " والانحراف عن جادة الطريق والطريقة<sup>(١)</sup> ويكشف له عن " المعنى " و " الغاية " و " المصير " ويمنحه عندئذ

---

(١) مفهوم التربية بالمعنى الصوفى يقوم على الحدس والإشراق والفيض الإلهى أو العلم اللدنى ، من خلال التربية الروحية التى تعتمد - بداية - على تلقين الشعائر والرياضة الصوفية والأدعية والأوراد الخاصة ، حتى إذا ما أتقنها على يد شيخه الواصل أعطاه " العهد " ضمن طقوس خاصة تشير إلى تعميده وقبوله =

الأمن والأمان ، ويؤكد له التواصل الروحي ، ويحق له " الانتماء " بالمعنى الصوفي " والدينى ، ويرقى به إلى " الصوفى الكامل " أو " الإنسان الكامل " .

ويعد لأى شديد ، يجد المريد استجابة لصرخته عند هذا الشيخ الصوفى ، بحكمته العملية وخبراته الصوفية وتجاريه الروحية الشاملة ، فيأخذ بيده على نحو عملى ، من غير أن يظهر صوته فى الأغنية ( تأكيداً على فعل الاختيار الإنسانى ) ومن ثم فهو يشير عليه أو يرشده إلى بداية " الطريق " القويم ، حتى إذا شاء أن يسير عليه سار عليه بحض اختياره . فكان أن استجاب المريد فى الأغنية : ( دخلت بيت الله ) بكل رموزه المقدسة<sup>(١)</sup> وحيث رمزية المركز " الكلى " القداسة ، وفيه يتم الاتصال والتواصل مع السماء ، ويتجلى له المعنى " الكلى " للوجود ، ويتحقق حلمه فى الخلود ، وفى العودة إلى " الفردوس المفقود " حيث السعادة الأبدية والغبطة الأولية ، وفيه أيضاً يتحقق الإنسان الكامل ( قبل السقوط ) .

---

= فى إحدى هذه الطرق الصوفية ، حتى إذا ما أخلص وتفانى تحققت له الكشف النورانية والفيوض الربانية ولذلك كثيراً ما نسجع فى بدايات الإنشاء الدينى فى حلقات الذكر الصوفى أغنية شعبية صوفية ؛ فى معنى التربية الروحية وأصولها وشروطها ، يطلب خلالها المريد / المبتدئ من شيخه أو عمه الصوفى الواصل أن يتعهد بالتربية كما جاء فى مطلعها :

صايح يقول لعمه : يا عم      زى ما اتربت ريبنى  
قبل ما أميل فى الطريق      يصيح الغير يربنى

إلى آخر الأغنية التى تحذر المريد من الانحراف - والويل له إذا انصرف - وتعهده إذا سار على النهج - بالوصول والوصال ( تحقيق الذات الإيمانية ) .

(١) بيت الله هنا هو الكعبة عند المسلمين ( والقدس عند غير المسلمين ) باعتباره المكان الذى يلامس المسلم فيه القداسة ملاسة مباشرة ( الحجر الأسود أو الأسعد ) وباعتبارها - الكعبة - أيضاً - عند المسلمين - مركز العالم وسرة الأرض وفيه ماء البدايات الأولى والمقدسة ( ماء زمزم / التطهر / التجدد ) وأنه النقطة التى بدأ منها خلق آدم من ترابها ، وهنا أيضاً الجبل المقدس ( عرفات ) الذى عرف فيه آدم حواء بعد السقوط من الفردوس أو الهبوط من الجنة ، كما هو معروف فى المعتقدات الدينية الشعبية . وأن المكان يرمته يشكل الرابطة المحسوسة بين السماء والأرض ، أو بين العالم العلوى الخالد والعالم الدنيوى الفانى ، وعندئذ يتحقق للإنسان / المريد أسباب الاتصال والتواصل مع المركز الذى ينبغى الواقعية والقداسة ، محققاً بذلك رغبة إنسانية ضاربة بجذورها فى أعماق الإنسان ، رغبة العثور على الذات فى قلب الواقع ، أى فى مركز العالم ، حيث يتم الاتصال مع السماء من أجل أن يتحقق حلمه الأسمى فى الخلود .

بهذه التجربة الروحية يستطيع المريد / الباحث عن المعنى والمعرفة والمصير أن يتجاوز عجزه البشرى ، ويتأكد لديه أن للحياة / الوجود معانى خفية لا يمكن إدراكها بعيداً عن (بيت الله ) ، حيث يكون بمقدوره عندئذ أن يرى بنفسه ( رسول الله ) أو النموذج الأجمل والأكمل ﷺ للإنسان الكامل حياً خالداً فى قلب المركز الكلى القداسة ، وهو يطعم بيديه الكرمتين ( السكر ) أو حلاوة الإيمان أو الغذاء الروحى لـ ( حمام أخضر ) بكل دلالة الرمزية والسيمولوجية فى المعتقدات الشعبية الدينية والصوفية ؛ ربما هو رمز للنفس البشرية فى "فطرتها" الإيمانية وبما هو " حمام الحِمَى " حِمَى المستضعفين ، ورمز السلام ( مع الذات والعالم ) والشعور بالأمن والأمان ( الداخلى والخارجى ) . لهذا كان طبيعياً أن يكون لون هذا الحمام أخضر ، فى إشارة دالة على التجدد والنماء الروحى ( نقيض الموت المادى والعدم الوجودى ) ، وباعتباره أيضاً - الحمام - رمزاً للزوج الآمنة والنفس المطمئنة التى ذاقَتْ فى (بيت الله ) حلاوة السكر أو لذة الإيمان واليقين ، وبهجة الاتصال الروحى ، ومتعة الكشف المعرفى اللدنى ( معرفة الله ) وفرحة الانتماء وغبطة الخلود أو الانتصار على الموت ، ( حيث أن ما يراه الصوفى من الحق لا يأتبه عن طريق الحواس الظاهرة ، ولا هو بما يصاغ فى كلمات لأنه " حالات " يشعر بها الصوفى من الداخل ، كشعوره بحلاوة العسل أو بمرارة الحنظل ) .

غير أن هذا ( الحمام الأخضر ) هو أيضاً - كما يقول يونج - هو النفس الحاملة وهى فى طريقها إلى الرحم السماوى مرة أخرى ، باحثة عن هذا التوازن النفسى العميق فى النفس البشرية ، الفردية والجمعية على السواء ، مما يعنى - فى ضوء ما سبق كله - أن " الطريق " المعرفى أو " الطريقة " الروحية التى أشار إليها الصوفى ( القديم ) هى التى يمكن أن تعطى للحياة معناها ، وللوجود مغزاه الخفى الكامن ، وهكذا يتصل الكائن الذاتى بالموجود اللاتهنائى ؛ فتستعيد الذات عندئذ سويتها وسلامتها ، توازنها وثناء حياتها الداخلية ، والأمر عندئذ يتعلق على القيام برحلة داخلية إلى مركز العالم ، رحلة إيمانية روحية صوفية ، يعثر خلالها الإنسان / المريد على المعنى أو المفزى الوجودى الذى يبحث عنه ، فلا يكون نهياً لهذا الشعور بالعجز الوجودى أو ضحية للإحساس بالعبثية والعدمية ..

ولكن أتى له ذلك ، والطريق طويل والطريقة وعرة إلا على ذوى الهسم وأولى العزم . ومن هنا كانت أمنية هذا المريد المستحيل - أول الأمر - فى تناول السكر من يد رسول الله ص ، فقال متمنياً ومتشوقاً : ( يا ريت أنا دقته = يا ليتنى ذقته ) فأين هو من رسول الله ﷺ

وليس أمامه - عندئذ إلا شيخه لعله " يأخذ بيده " ويساعده فى اجتياز الطريق الروحى حتى يتجاوز شرطه البشرى أو الدنيوى ، ولكن هيهات ! .

وهنا تتوقف الأغنية عند حدود التمنى ، دون أن تعد الإنسان بالخلاص ... فتلك هى مسئوليته ، وعليه فى سبيل تحقيق ذلك أن يأخذ نفسه بـ " المجاهدة " و " الرياضة " الروحية وعندئذ يتجلى له " ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " ، وتتمثل عندئذ الذات الإنسانية فى أرقى درجات العرفان ، فتهدأ النفس وتطمئن الذات السائلة ، وتنجلي لها المعرفة الإيمانية ، وتكون النهاية عندئذ مجيدة وفردوسية ، بحيث تفوق كل ما قد يخطر الآن على خيالها ، وبذلك يتحقق لها الخلود والسعادة الأبدية .

إن الأغنية - بهذا المعنى الدينى أو الصوفى وبهذه الدلالة الروحية أو الباطنية العميقة - تؤكد المعنى الوجودى ، وتعكس حلم الإنسان فى التواصل والخلود ، وتجاوز عجزه البشرى أمام الموت ، وتفصح عن التمنى القابع فى أعماق الذات الإنسانية بالعودة إلى الرحم السماوى ، والفردوس الإلهى ( الأخرى ) كما ينشده الوعى ، ويحلم به اللاوعى الجمعى الفطرى ، ويؤكد المعنى الدينى ... هنا يتحقق السبيل الأمثل إلى الانتقال من الدنيوى المندس إلى الأخرى المقدس ، ومن المؤقت إلى الخالد ، ويرتبط الأرضى بالسماوى الذى لا تدركه الأبصار ، كما يرتبط الفردى بالكونى ، والمرئى بغير المرئى ، واللامعقول بالمعقول . إن الأغنية - فى إيجاز - دعوة إلى فتح نافذة واسعة على العالم الروحى .

هذا هو الصوفى الكامن بما هو مفهوم مركزى - فى هذه الأغنية الصوفية التى اندثرت - واندثرت معها مؤخراً وظائفها الدينية ومعانيها الصوفية - بعد أقول المذاهب الصوفية . وانحدرت - الأغنية - إلى سفح الكيان الاجتماعى مجرد أغنية فولكلورية من أغاني الألعاب الشعبية عند الأطفال وتبدلت وظائفها الفولكلورية ، فأضحت تؤدي وظائف ترفيهية ، كالترنيم والغناء الجماعى ، وتشكيل خطوات المشى والرأس وحركات اللعب أو الاهتزاز الجسدى ، شأنها شأن معظم أغاني الألعاب ، لكنها - فى الوقت نفسه - ظلت تحمل "جيناتها" الصوفية<sup>(١)</sup> ، وإن لم يدركها أطفال الأجيال اللاحقة لطول العهد وبعد الأمد .

---

(١) معروف أن أغنية يا طالع الشجرة من الألعاب المصاحبة لألعاب الأطفال الشعبية التى تشبه حلقات الذكر الصوفية ، وتحيلنا عليها مباشرة . إذ يقف الأطفال اللاعبون فى دائرة ، وجوههم إلى الداخل ، =

٢٠١

وإذا كان الحكيم قد زعم أنها أغنية لا معقولة فى معناها ، فلا أظنه كان صادقاً فى زعمه ، بعد أن اتضح لنا معناها الإشارى والدلالى والسيمولوجى ( المعقول ) ، وإلا ما توقف فقط - طيلة المسرحية - عند مطلع الأغنية وحده مكتفياً بتكراره مراراً على لسان الدرويش كما ذكرنا ، أو بترديد إيقاعاته فى خلفية الأحداث ، على نحو يبدو معه مطلع الأغنية عبثياً فى زعمه ، وهو :

يا طالع الشجرة      هات لى معاك بقرة  
تحلب وتسقىنى      بالمعلقة الصصينى

إذ يتبدى الأمر فى هذا المطلع عبثياً غير ذى معنى لمن لا يحفظ الأغنية كاملة ، أو لمن يجهل الرموز الميثولوجية والصوفية لكل من " الشجرة " و " البقرة " صعوداً وهبوطاً ، ثم كيف ترضعه بمعلقة ( من الصصينى ) دون أئدائها أو بالأحرى ضرعها إذا كانت بقرة حقيقية ، هذا إذا افترضنا أن ثمة بقرة بالمعنى المادى فوق شجرة يستحيل عليها صعودها بله هبوطها .

وحتى لو جارينا الحكيم فى الاكتفاء بهذا المطلع " العبثى " لوجدناه يحمل فى شبكة علاقاته ما ينفى هذه العبثية أصلاً كما أشرنا . ولو أن الحكيم ذكر نص الأغنية كاملاً - ولو لمرة واحدة - لأدركنا ما تنطوى عليه من دلالة عامة ، على الأقل ، تحلينا إلى ( بيت الله ) و ( رسول الله ) أى إلى مرماها الروحى أو مغزاها الدينى العميق الذى يؤكد التواصل بين ما هو مادى وما هو معنوى ، بين ما هو دنىوى وما هو أخرى ، بين ما هو فيزيقى ، وما هو ميتافيزيقى ، ذلك أن الرحلة ( الخارجية ) إلى ( بيت الله ) تعنى أن يجتاز الإنسان " المريد " هذا الفراغ الفاصل بين ما هو إنسانى وما هو إلهى . أما الرحلة ( الداخلية ) إلى ( بيت الله ) فهى تعنى المزيد من المعرفة بالروح ومصيرها ، ومن ثم كانت ( رحلة الروح ) ضرورة وجودية لتحقيق عودتها إلى الله .

= وأيديهم متشابكة ، ويدورون بالدائرة دورات كاملة ، وأحياناً يدورون بها دورة جهة اليسار ، وأخرى جهة اليمين ، وهم يقفزون فى رشاقة ، وفى مناطق أخرى ، يسند كل لاعب ظهره إلى ظهر زميله ، ويتمايلان إلى الأمام ، وإلى الخلف وهم يغنون يا طالع الشجرة ... إلخ . وكأنهم فى حلقة ذكر من حلقات المتصوفة بالفعل .

( حول طريقة أداء اللعبة : انظر : ألعاب الأطفال وأغانيهم فى مصر ، محمد عمران ، دار الفنى العربى ، بيروت والقاهرة ١٩٨٣ ، ص ٢٩ - ٣١ ) .

غير أن الحكيم يتجاهل هذا المعنى من خلال قيامه بحجب بقية الأغنية عن المتلقى أو المشاهد؛ لعله يستأثر به لنفسه فى المسرحية ، وإن مضى يراوغنا بقوله إن هذا " اللامعنى " الذى تنطوى عليه هذه الأغنية الشعبية ، هو فى حد ذاته معنى وعمادها - فى إنتاج الدلالة- التعبير عن الواقع بغير الواقع كما يقول ا .

وحتى لو سائرنا الحكيم - مرة أخرى - فى مفهومه لمطلع الأغنية - إذا كان حقاً لم يفتن لرموزها الأنطولوجية والميثولوجية والصوفية - وذكر النص كاملاً ، لأدركنا - بمفهومه هو - أن الأغنية بدأت من اللامعقول المادى الطبيعى ، وانتهت بالمعقول الروحى / ما فوق الطبيعى ، وهكذا يتواصل المادى / الدنيوى مع الروحى / الأخرى ويتكامل الدال والمدلول . ( أليس هذا هو ما يريد الحكيم قوله فى المسرحية ؟ أليس هذا هو رأى الحكيم أو رؤيته للعالم فى المسرحية ؟ ) حيث المعقول فى الأغنية - بهذا المعنى - ينفى عبثية الدنيوى ، ويؤكد على الأخرى على نحو يشى لكل ذى قلب بوجود القوة الروحية المحركة للحياة التى تهبها المعنى المعنى الوجودى الخفى ، ومغزاها المنطقى الغائب ( عن الإنسان الغربى ) ، شريطة أن يبادر الإنسان فى البحث عن هذا المعنى بغير طريق العقل وحده ، بل بطريق الحدس من خلال ثقافته وموروثاته الدينية ، وتلك هى مسئوليته ، إذا شاء تحقيق إنسانيته والخروج من عديميته الفلسفية أو عبثية الوجودية كما يعتقد . هذه الرؤية الغربية يرفضها الحكيم فكرياً بحكم كونه " شرقياً مؤمناً أفاد كثيراً من ثقافة الغرب المادية وثقافة الشرق الروحية معاً ، وبحكم ميراثه الروحى ونزعته الصوفية وفطرته الإيمانية فى آن .

أغلب الظن أن توفيق الحكيم قد راوغنا - ولا أقول ضللنا - عندما توقف عند معطيات "الأطفال" الدلالية للأغنية ، فاستند إلى تفسيرهم ، وزعم أنها أغنية عبثية المعنى ، حين سأل - وهو كبير - الأطفال عن معناها ... فلم يجيبوه مكتفين بقيمتها الجمالية ووظائفها الإيقاعية فى أداء ألعابهم الشعبية ، كما سبق أن ذكرنا ... ولم يكن الذنب هنا هو ذنب حملة التراث / الأطفال ؛ فما أكثر ما يمارسه الكبار - وليس الأطفال وحدهم - فى حياتهم اليومية من " ممارسات " فولكلورية موروثية منذ آماذ بعيدة ، من دون أن يعرفوا جذورها أو أصولها الميثولوجية أو الدينية أو الاعتقادية التى اندثرت مع الزمان ، وطوتها ذاكرة النسيان ومازلنا نقارس " شعائرها " فى حياتنا حتى اليوم دون معرفة الجذور أو الأصول . وعدم المعرفة بهذه



الجذور أو الأصول - جهلاً أو تجاهلاً - لا يعنى أنها بلا معنى ، فلا شىء فى الأدب الشعبى بلا معنى أو وظيفة<sup>(١)</sup> ؛ حتى لو كان أسطورياً أو خرافياً ، إلا من وجهة نظر ثقافية مضادة .

وأيًا ما كان الأمر ، وسواء أكان الحكيم على علم بالمعنى الفكرى الكامن أو الخفى (الروحى) الذى تنطوى عليه الأغنية أم لا ، فإن هذا المعنى الخفى فى الأغنية بأبعادها الأنطولوجية والصوفية (الروحية) وما تنطوى عليه من درجة عالية من الاكتناز الدلالى ، هو الذى استطاع الحكيم أن يفجره فى مسرحيته ، ولذلك يمكن القول بأن الأغنية تتفق دلاليًا وسيمبوتيقيًا مع المسرحية ، وأن الحكيم استطاع أن ينفذ إلى معناها الباطنى العميق وأن يتمثله ، وأن يعيد إنتاجه فى مسرحيته على نحو يؤكد التماهى الدلالى بينهما .

ذلك أن حدود الواقع كما يقول الحكيم لا تكفى لتفسير ما يجاوز أحداثه المنطقية ، وأن الكون فى ظاهره غير المفهوم أو المبرر إنما هو فى الحقيقة كون منطقى ومعقول ، وينطوى على معناه الذى لم يعد الإنسان القربى المعاصر قادرًا على فهم كنهه أو اكتشاف مغزاه الخفى الذى تبدى له عندئذ عبثيًا (على نحو ما تجلّى فى الفلسفة الوجودية إلى حد ما ، وفى النزعة العدمية إلى حد كبير ، وتجلياتها الروائية والمسرحية والفنية) على غير ما يعتقد الحكيم - بحكم شرقيته وثقافته الإسلامية - من أن للوجود ظاهراً قد يبدو عبثياً لا ندرك معناه أو نقف على مغزاه ، على حين أن له باطنًا عميق الدلالة ومنطقًا حكيماً يحكمه ، وإن لم ندركه . وأن علينا أن نفهم معناه وأن نعى منطقاً أو مغزاه الخفى ، وهذه هى مسئوليتنا الإنسانية ، وطريقتنا إلى ذلك هو القلب أو الحدس الصوفى .

أليس هذا هو ما صرح به فى مقدمة المسرحية ، وفى كتبه الأخرى مثل : فن الأدب ، وتحت شمس الفكر ، ومسرحية الطعام لكل قم ( خاصة عندما تتردد على لسان الدرويش فى

---

(١) للنص الشعبى ، القولى أو التشكيلى أو الإيقاعى ... إلخ . وظائف أساسية ، أهمها الوظيفة التواصلية (الإبلاغية) والوظيفة الجمالية (البلاغية) والوظيفة النغمية فى حياتهم اليومية ، العادية والعملية والاعتقادية ... وهو ما يمكن تطبيقه على الأغنية (يا طالع الشجرة) ببساطة ، فهى تدعو إلى التواصل .. إبلاغياً وبلاغياً ، فكرياً وجماليًا ، وتؤدى فى الوقت نفسه وظائف نغمية ونفسية ، فى الحياة الاعتقادية للصوفية ، وخاصة فى حلقات الذكر ، وفى الحياة اليومية للأطفال - بعد ذلك - باعتبارها أغنية مصاحبة لإحدى ألعابهم الشعبية ، وفى الحالىين تنظم حركة الجسم فى حلقات الذكر أو ساحات اللعب ، بإيقاعاتها المتوازية والمنظومة ، مثلما متحد معالم الطريق والطريقة لدى جمهور المتصوفة .

المسرحية ، أو نسمع صداها في بعض المشاهد التي تبدو لنا في ظاهرها بلا معنى معقول ، (أو حتى في سلوك " السحلية " أو " الشبيخة خضرة " ظهوراً واختفاء ) مما يعنى أن ثمة منطقاً ما يحكم هذا العالم برغم كل ما قد يبدو فيه من عشوائية وانفلات ، وأن مأساة الإنسان الحقيقية تكمن في أننا لم ندرك الحكمة الكامنة والقوة المهيمنة أو المعنى الخفى أو غير المرئى لهذه الحكمة الأبدية التي تحكم العالم والكون والوجود ، لأننا ببساطة لم نعد نعرف " الله " .

وبهذا تبدو المسرحية كالأغنية الشعبية ، سواء بسواء ، كلتاها تتفق في بنيتها الشكلية أو التركيبية التي تبدو في الظاهر المرئى أو في بنيتها السطحية بلا معنى ، على حين أن بنيتها الدلالية العميقة الخفية أو غير المرئية تنطوى على هذا المعنى الخفى أو المنطقى ، وأن هذا الواقع محكوم عندئذ بقوانين لا نعرفها نحن ، وأن البحث عنها واكتشافها ومواجهتها هو مسؤولية الإنسان ، وقضية الجوهرية .

ومن ثم فالحكيم يعارض هنا الفكر الفلسفى الاغترابى الأوروبى الذى بدأ مع ماركس فى تشييده للإنسان ، وانتهى مع هيدجر بهيمنة الاتجاه العدمى Nihilism فى الفلسفة الأوروبية الحديثة أو المعاصرة التى طورها سارتر فى كتابيه الذاتيين ( نقد العقل الجدلى ) و ( الوجود والعدم ) . إن هذا الفكر العدمى - إذا صح التعبير - هو الذى راح الحكيم - فى مسرحية يا طالع الشجرة - ينقده وينقضه فى هذه المسرحية الطليعية الرائدة و " المعقولة " جداً ؛ باعتباره شرقياً مؤمناً ، كما يقول ، وورثاً شرعياً لديانات سماوية ثلاث .

وإذا كانت الوجودية قد سلطت الأضواء على المفارقات اللا معقولة والمرعبة التى تكتنف موقف الإنسان فى الزمان ، فى مؤلفات تمتد من أسطورة سيزيف (١٩٥٠) لمؤلفها البير كامى، وفى مسرحية فى انتظار جودو (١٩٥٢) من تأليف صمويل بيكيت ، فإن الحكيم يتوسل فى مواجهتها بالدين ، ذلك أن الدين نفسه استجابة للغز الزمان الأساسى : اقتتار الإنسان إلى الأمن حين يحيا فى الحاضر ، وإعياً بأبعاد الماضى السحيقة للكون ، حيث لا يمتلك سلطاناً مباشراً عليها ، ومذعوراً من الموت أو الفناء الظاهرى فى آن ، والحل الذى تقدمه معظم الأديان - ولا سيما الإسلام - ونزعاتها الصوفية ، هو التأكيد على غط للوجود يتصف بالخلود والتعالى والأبدية ، بغير بداية ولا نهاية ، مبرأً من كل الأخطار ، ومنزهاً عن كل تغيير .

غير أن الدين يعتمد أيضاً إلى إدماج الحاضر الأرضى والطبيعى والإنسان فى الماضى والمستقبل . وهكذا يصبح سباق الزمان الذى يجرى " هنا والآن " جزءاً من ناموس أعلى لتجدد الحياة مجدداً مستمراً لا نهاية له ، وبهذا تكون الوظيفة الجوهرية للدين هى التغلب على خطر الفناء وضروب القلق التى يشير بها الحاضر ، وذلك باستيعاب الإنسان الدنس داخل العمليات اللا متناهية التى تجرى فى كون مقدس كما سبق أن ذكرنا .

### التفسير الفولكلورى للسحلية ( الشيغة خضرة ) :

ويمثل هذه الغواية أو المراوغة استخدم الحكيم عنصراً فولكلورياً آخر هو السحلية التى ظلت تتبدى أحياناً وتتخفى أحياناً أخرى طيلة المسرحية ، لأسباب غير مفهومة فى الحالين ، أى من غير أن يشير الحكيم إلى رموزها الفولكلورية ووظائفها المعروفة فى المعتقدات والمعارف الشعبية ، وكل ما يمكن أن نلاحظه عنها أنها جزء من هذا العالم العياني " اللامعقول " الذى تشخصه المسرحية ، وكأنها تجسيد لهذا اللامعنى الذى يحكم ظاهر الوجود ، وكل ما يذكره الحكيم عنها أنه مدين لها بلحظة التوهج الدرامى<sup>(١)</sup> التى شكلت لديه الحافز الإبداعى لكتابة المسرحية ، وذلك عندما شاهدها فى الحديقة - فى لحظة تأمل - إذ يقول إن " مسرحية يا طالع الشجرة قد نبعت فعلاً من تأملى لسحلية فى حديقة " (٢) .

وإن لم يشرح لنا كيف كان ذلك ؟ أو يقل لنا ولا " فحوى " هذا التآكل ، ولكنها - بكل رموزها - شرعت تشاغب أفقه الإبداعى فترة ما لبثت خلالها - بما هى رمز واقعى ملموس - أن طفت على سطح ذاكرته النصية ( الفولكلورية ) بكل رموزها الاعتقادية وطاقاتها الإيحائية فى الفولكلور العربى والمصرى لتلعب دوراً تعضيدياً فى رؤيته الفكرية فى المسرحية ، باعتبارها رمزاً غايته المعلنة :

" وهو إزالة الحائط الفاصل بين المعقول واللامعقول " (٣) .

(١) انظر : مسرحية سميرة وحمدى ، أو الطعام لكل فم ، ص ١٩١ ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ،

١٩٧٣ .

(٢) توفيق الحكيم : مسرحية الطعام لكل فم ، ص ١٨٨ ، مكتبة مصر (١٩٦٣) .

(٣) نفسه : ص ١٨٨ .

لذلك لم يتردد فى أن يطلق عليها فى المسرحية اسم " الشيخة خضرة " وجعلها تقطن تحت شجرة دائمة الاخضرار ( شجرة الحياة بكل رموزها السابقة ) أو هكذا ظل يتمناها بطل المسرحية ؛ باعتبارها " معادلاً موضوعياً " موازياً أو جماعياً أو رمزاً " واقعياً " يربط بين عالمين : لا معقول ومعقول . أحدهما دنيوى ( هو عالم الأحياء ) والآخر أخروى ( هو عالم الأموات ) ... وبهما تتكامل دورة الحياة ( الميلاد والموت ) ( التجدد والفناء ) ( الوجود والعدم ) وتتجلى الأسرار الكامنة فى ثنائيات الوجود ، وهو ما يمكن أن تشير إليه رمزية السحلية فى معتقداتنا الشعبية ، باعتبارها تقدم مفهوماً فولكلورياً أو تصوراً شعبياً للموت من حيث هو معاودة الاتصال بعد الانفصال الذى يثله الموت ، ومن حيث الموت نفسه " أن تلقى وجه الله الكريم " .

ومن الجدير بالذكر أن السحلية هى البديل " الإسلامى " أو " العربى عن ذلك " الجعل المقدس " فى الحضارة الفرعونية أو المعتقدات الشعبية فى مصر القديمة وهو ( الجعران ) الذى كان يوضع فوق قلب الميت ، حتى يكون بمثابة أمر له نفوذ سحرى فعال ، يمنع القلب من أن ينم عن أخلاق المتوفى " أثناء محاكمته فى العالم الآخر " (١) ، ومن ثم يحظى بالخلود .

هذه السحلية أيضاً رمز ذائع فى المعتقد الشعبى العربى منذ أن كانت تحمل الماء إلى النبى إبراهيم لتروى أو بالأحرى لتخفف عنه لهيب النار عندما ألقى به النمرود فى أتونها ، وقد باتت عندئذ برداً وسلاماً عليه . ثم تطور الرمز فأصبحت السحلية عند العامة هى ناقلة الماء إلى عالم الموتى عموماً ، ولذلك فهى تظهر أكثر ما تظهر بين المقابر لتروى أرواح الموتى ، كما يعتقد العامة ، فهى عندهم من هذه الناحية جسر أو رمز تراحم وتواصل بين عالم الأحياء المرئى أو الظاهر وعالم الموتى اللامرئى أو الخفى ، حيث يتداخل الزمان والمكان وتلغى المسافات بين المحدود والمطلق ، أى بين الدنيوى والأخروى ، كما يؤمنون به ، وأن هذا التواصل هو الذى يعطى للوجود الدنيوى المعنى والمنطق والقيمة ، ما دامت الدنيا " دار انتقال " و " جسر عبور " .

فى الوقت نفسه فإن للسحلية رمزاً آخر فى الفولكلور المصرى يؤكد هذه المقولة ، وهو أن السحلية تحمل مفتاح الجنة ، وهذا يعنى أنها على اتصال بعالم غير مرئى هو العالم الآخر ،

(١) انظر ، فجر الضمير (م.س) الفصل الخاص بالحساب فى الآخرة ، ولا سيما ص ٢٨٢ .

وربما كان هذا المعتقد الشعبى المصرى هو الذى جعل من مشاهدة الحكيم للسحلية مثبِّراً إبداعياً ، أو مُنصّاصاً حافزاً ، رمزياً وفكرياً .

إنها - فى المسرحية ، كما هى عند العامة " جسر " يصل بين عالمين متكاملين ومتصلين ؛ هما عالم الأحياء وعالم ما وراء القبور ، أو بين الدنيوى والأخوى . تماماً كالموت " معبر " من الفانى إلى الخالد ، وهى - فى الوقت نفسه " برهان " على عودة الروح إلى الجسد الميت ... وإلا فما معنى أن تنقل الماء إلى الأرواح فى مملكة الموتى ؟ .

ويبقى أيضاً للون الأخضر الناضر ، بما هو لون السحلية أو الشبيخة خضرة ، دلالة الفولكلورية فى المعتقد الشعبى على النماء والخصب والتجدد والبعث والخلود ، فضلاً عن ديمومته أو رمزية التواصل بين عالم الأحياء ومملكة الموتى ، ومن هنا كان دعاؤنا الشعبى بالسقيا على القبور ، لديومة الأخضر ، ومن هنا أيضاً لا تخلو أضرحة الأولياء والقديسين ، وملابسهم من اللون الأخضر ، باعتباره رمزاً للبعث والأمل فى حياة أخرى متجددة وخالدة (إلى حد زعم العامة بأنهم أحياء فى قبورهم ) . بل زعموا أيضاً أن الجن المؤمنين لا يلبسون إلا ثياباً خضراء .

وفى الميثولوجيا المصرية كان اللون الأخضر هو لون أوزيريس عندما عاد للحياة ... أما فى الإسلام ؛ فقد كان اللون الأخضر هو اللون المقدس للنبي ﷺ وصحابته ( ومن هنا كان علم المسلمين الأوائل أخضر اللون ) ، فضلاً عن المعتقدات الدينية الشعبية التى ترتبط بالأخضر عليه السلام باعتباره رمزاً شعبياً ودينياً للخلود والنماء والتجدد ، والحياة والروح ؛ ومن ثم فهو لا يلبس أبداً من الثياب إلا " أخضر فى أخضر " على حد التعبير الشعبى .

نخلص من هذا كله إلى أن الحكيم استخدم السحلية أو الشبيخة خضرة باعتبارها عنصراً فولكلورياً سيمولوجياً يشير إلى وجود عالمين ؛ أحدهما دنيوى هو عالم الأحياء ، والآخر . أخوى هو عالم الموتى ، وأن ثمة علاقة بين العالمين . تماماً كما يؤمن الحكيم أيضاً بوجود زمانين : أولهما الزمن الدنيوى أو الطبيعى ، والآخر الزمن الأزلوى الأبدى السرمدى ، وهو صفة الله وحده ، ويقول بوجود علاقة تداخل بين الزمن الطبيعى والزمان اللانهائى يحققها الموت الذى يعد معبراً إلى العالم الآخر والأخوى . وقد تجسدت هذه العلاقة فى السحلية التى تنتقل بين العالمين ، حاملة (قرايبن) الماء إلى الموتى فى العالم الآخر ، تأكيداً رمزياً فولكلورياً لوجود عالم غير مرئى ، ينبغى أن نقيم معه صلة أو تواصلاً مادام العالم عالمين : اللامعقول الدنيوى والمعقول الأخوى ، عبر سيمولوجية السحلية ، وليس عالماً واحداً ، هو الحياة

الأوروبية الحديثة ، وتيار مسرح العبث ... وأن هذه هي قناعة توفيق الحكيم ، وشتان ما بين " العبث " و " البعث " من وجهة نظره كشرقى مؤمن هضم ثقافة الغرب والشرق معاً...

لعل في هذا الرمز الفولكلورى ما يفسر لنا قول الحكيم بأنه مدين فى إنتاج هذه المسرحية للسحلية ، دون أن يشرح لنا ذلك إلا من حيث سلوكها الظاهرى ( خاصة فى مملكة الموتى ) الذى تبدى له عندئذ سلوكاً لا معقولاً ، فهى أيضاً كائن حى شأنه شأن سائر الكائنات الحية محكوم عليها جميعاً بالفناء ، ولكن الموت نفسه ينطوى فى الوقت نفسه على الحياة (البعث) مثلما تنطوى الحياة على ( الموت ) ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وبهذا المنطق التواصلى بين العالمين جاءت شخصية الدرويش فى المسرحية ، باعتبارها شخصية " شعبية " ذات " كرامات " خارقة ... تسمح له أن يكون وأن لا يكون فى آن ، حضوراً وغيباً ، ظهوراً واختفاء ، بلا منطق أو تبرير كالسحلية سواء بسواء ، فضلاً عن لغته الرمزية ؛ المنطقية والتنبؤية فى آن ، يضافى على أحداث المسرحية طابعاً لا معقولاً فى الظاهر / الواقع ، ولكنه معقول فى الباطن و " الحقيقة " بالمعنى الصوفى - وهو ما يرمى إليه الحكيم فى الحقيقة أيضاً .

والآن بعد هذه الجولة بين شبكة العلاقات التى ينطوى عليها نص الحكيم والنص الشعبى وتعلقاته المعلقة أو المضمرة (ابتداء من الأغنية بلغتها الرمزية ، الميثولوجية والصوفية ، وبكل ما تنطوى عليه من رموز كالشجرة والبقرة ، والدرويش صاحب الأغنية ومبدعها الشعبى ) بالإضافة إلى بعض العناصر أو الموتيفات الفولكلورية التعضيدية أو المساعدة فى إنتاج المعنى المسرحى كالسحلية أو الشبيخة خضرة ، ولنا أيضاً أن نضيف عناصر فولكلورية أخرى متعلقة ومتقاطعة فى فضاء المسرحية ، وتصادفنا كثيراً بين طبقات النص الحكيمى ، قابضة هناك تضىء المشهد كله بدلالاتها وإيحاءاتها ووظائفها الجمعية ، ولكننا لم نشأ أن نقف عليها فى هذا النمط التناصى ، لأنها دخلت فى نسيج النص الحكيمى على نحو ظاهر ( فى تناص معلن ) وساهمت فى إنتاج المعنى بشكل مباشر لا يخفى على أحد ( ١ ) .

( ١ ) منها طقوس الولادة ، وأيضاً فى أغنية السبوع التى تكررت كثيراً فى فضاء المسرحية رمزاً للميلاد المتجدد فى دورة الأكوان ، ومنها الأعداد الاعتقادية ( كالرقم ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٩ ) والأمثال والأقوال السائرة والعبارات الصوفية والشعبية الدارجة والمحفوطة ( الأكليشيات ) التى وردت على لسان الشخصيات فى المسرحية ولا سيما الدرويش ... إلى غير ذلك من عناصر دخلت فى نسيج النص المسرحى بكل طاقتها الفولكلورية الإشارية والدلالية ( أو الإيحائية والرمزية والاعتقادية والميثولوجية ) وساهمت فى تشكيل

أقول بعد هذه الجولة التى طالت أكثر مما ينبغى لها إنه يمكن لنا أن نخلص إلى ما يلى :

أولاً : أن أغنية ( يا طالع الشجرة ) فى ضوء سياقها الثقافى الراهن فقدت وظائفها الأنطولوجية والصوفية ، وأصبحت مجرد أغنية من أغاني الأطفال الشعبية ، دون أن يفتن نقاد الحكيم إلى لغتها المحملة بالرموز الصوفية النفسية ، ومن ثم أصبحت لديهم أغنية بلا معنى ، أى عبثية الشكل والدلالة ، فصدقوا الحكيم وجاروه فى تفسيره ، وأقصى ما فعلوه أنهم انصرفوا إلى رمز الشجرة فى المسرحية دون الانتباه إلى رمزها المتماثل فى الأغنية الشعبية ، مرة باعتبارها شجرة الخلود ، وقد فاتهم جميعاً أن الأغنية صوفية الأصل ، منطقية المعنى ، بالمنطق الذى يؤمن به الحكيم نفسه ، حيث لا اتجاه للإنسان المعاصر إلا بالعودة إلى الدين ، لا فى شعائره - طقوسه الشكلية أو الظاهرة - وإنما فى غايته الوجودية أو الروحية الأسمى .

ثانياً : وأن نص الحكيم ( يا طالع الشجرة ) قد تعالق مع هذه ازغنية بهذا المعنى الطفولى ، أى باعتبارها فى زعمه نصاً عبثى الشكل والدلالة ، وقد وافقه النقاد على ذلك ، وقد ظل يؤكد ذلك أكثر من مرة ، وفى أكثر من كتاب ، وظل يتساءل : هل لهذا النص معنى ؟! وليس ثمة من جواب لديه ، إن صدقاً وإن زعماً ، وهو زعم لا أخال الحكيم ينكره .

ثالثاً : وإن الأغنية فى ضوء تفسيرنا لها تبدو عبثية الشكل - إذا التزمنا بظاهر اللفظ / النص ، ولم تنتبه إلى لغتها الرمزية المكثفة والمكتنزة بالدلالات الصوفية - ولكننا إذا انتبهنا إلى نص الأغنية كاملاً الذى لم يذكره الحكيم وجدنا ( المعنى الروحي ) الذى يبحث عنه الحكيم كاملاً فى الأغنية ، ومن ثم فهى أغنية ذات معنى ، إنها عندئذ أغنية عبثية الشكل ورمزية البناء . منطقية المعنى / الدلالة ، وليست - كما يقول الحكيم ونقادها - عبثية الشكل والمعنى .

رابعاً : ومعنى هذا - على مستوى الرؤية العميقة - إن ثمة تعالقاً مضمراً بين نص الحكيم والنص الشعبى ، وأن ثمة تماثلاً بينهما على مستوى شبكة العلاقات الفنية والدلالية ،

---

= الرؤية الدرامية البنائية والدلالية للنص الحكيمى ، حيث احتشد لها الحكيم فى المسرحية على نحو يؤكد التماهى أو التماثل فى إنتاج المعنى الصوفى أو الروحي الذى تسمى المسرحية إلى تأكيد .

فالنصان كلاهما عبثى الشكل منطقي المعنى لا معقول فى صياغته أو تركيبه ، معقول فى دلالاته . بعبارة أوضح : إن دلالة الشكل والمعنى التى أنتجها النص الحكيمى تتفق تمامًا مع دلالة الشكل والمعنى الكامنة والكائنة فى النص الشعبى ، وتتماهى الرؤية الذاتية للعالم عند الحكيم مع الرؤية الجمعية الشعبىة للعالم فى الأغنية ... بما هى رؤية صوفية محملة بالمعنى الوجودى المتكامل ، وغايتها المعرفية الإيمان بالله والبعث والخلود .

فبماذا نسمى هذا النوع أو النمط من التناص الذى لم يدخل فى نسيج النص - مورفولوجيا أو بنائياً - بشكل تناصى مباشر ، ولكنه محفز قائم فى ذهن الحكيم ورؤيته الإبداعية من قبل إنتاج النص المسرحى ، وظل قابلاً كذلك فى الخلفية الإبداعية والفكرية لديه لحظة تخلق أو إنتاج المسرحية ( يا طالع الشجرة ) : مؤكداً على تلك المفارقة القائمة بين عبث ظاهر ومعنى خفى للوجود ، متناصاً بذلك - فنياً ودلالياً - مع النص الشعبى ( الأغنية ) على نحو غير مباشر أو " متعين " فى نسيج النص المسرحى ، وهو ما دفعنا إلى أن نطلق عليه - إجرائياً - مصطلح " الميتا تناص " وهنا تكمن عبقرية الحكيم فى مثل هذا النمط الخفى من التناص الذى لم ينتبه إليه نقاد الحكيم ودارسوه من قبل .

ربما كان الأمر سهلاً ميسوراً فى أنماط التناص السابقة ، حيث كان التعالق فيها مع النص الشعبى تعالقاً مورفولوجياً يشكل جزءاً من نسيج النص المنتج ( بفتح التاء ) . أما وجه الصعوبة هنا فيكمن فى أن لا تقاس مباشرة معلناً أو مضمرًا بين ( يا طالع الشجرة ) المسرحية ، و ( يا طالع الشجرة ) الأغنية اللهم إلا فى سيميولوجياً العنوان المشترك بين النصين ، وما ينطوى عليه هذا العنوان ( يا طالع الشجرة ) ، بما هو رمز استعارى مكثف ، من وظائف دلالية وجمالية وفنية تؤكد " التعالق " النصى ، ولا تنكره وتحيل عليه . وتوجه الدلالة المركزية للنص ، وهنا تكمن عبقرية العنوان فى النصين - المسرحى والغنائى - بما هو عتبة من عتبات النص وأهم مفاتيحه ، وبما هو الإشارة الأولى التى يرسلها النص باتجاه المتلقى خاصة بعد بيان التفسير الأنطولوجى فى جانبيه الميثولوجى والصوفى للأغنية ، وتعالقه الفنى الدلالى العميق أو الباطنى مع النص المسرحى .

ومن ثم فنمط التناص هنا الذى أطلقنا عليه اصطلاح الميتاتناص لا يقوم على عناصر نصية " معنية " أو " متضمنة " فى النص الحكيمى ، معلنة أو مضمرة ، حتى يمكن " القبض "



عليها وتحديدًا أو الإفصاح عنها ، تمهيداً لمقارنتها ومقارنتها وظيفياً : ثنائياً أو تعارضاً أو تحولاً ، على نحو ما رأينا فى أنماط التناسل السابقة ، بما هى جزء من نسيج النص .

إن التناسل أو التعالق النصى الأساسى هنا تناسل " ما ورائى " أى كامن أو كائن فيما وراء النصوص نفسها ، السابقة واللاحقة ، وقائم بينهما من خلال التوازى أو التماثل الفنى والفكرى ، أعنى فى الشكل العبثى والمعنى المنطقى . ومن خلال هذا التوازى أو التابع أو التماثل الفنى والدلالى أمكن للنص الشعبى أن يساهم فى إنتاج الدلالة من ناحية ، وتعزى المذهب أو الاتجاه العبثى للمسرحية من ناحية أخرى ، من حيث هى نص متعين يستحضر فلسفة النص الشعبى واتجاهه الفنى فى آن (١١) ، ويحذو حذوه فكراً وجمالاً ، دون أن يتناسل معه ( لفظياً أو بنائياً ) . من هنا آثرت أن أطلق على هذا النوع من التناسل نمط " الميتما - تناسل " باعتباره تناسلاً خاصاً يتحقق فيما وراء النصوص المناصية والمتناصية معها ، على نحو غير مباشر ، وليس فى ملفوظ النصوص ذاتها ؛ ريثما يعدد نقاد علم النص مصطلحاً نقدياً مناسباً له .

ثمة إشارة أخيرة على غاية الأهمية ؛ وهى أن الحكيم فى تناسله الفكرى أو الصوفى مع الأغنية لا يدعو إلى صوفية الأغنية ، بما هى صوفية شعبية ، وإنما يدعو - بقدر ما يعنى - صوفية كبار المتصوفة المسلمين ، بما هى تجربة ذاتية ( فكرية أو روحية أو عرفانية ) . ذلك أن الطريق إلى الله - فى رأيه - لا يحتاج إلى طبول وبيارق ، ولكن التصوف الحقيقى تجربة ذاتية غايتها تجاوز الدنيوى إلى الأخرى ، ضمن رؤية شمولية تكاملية للكون والحياة والوجود .

وبهذا يكون التناسل الحكيمى - على المستوى الدلالى - قد تجاوز المعنى الشعبى للتصوف إلى المعنى الفكرى أو الفلسفى للتصوف كما يدعو إليه الحكيم ، وعلى نحو يذكّرنا بتجربة حى بن يقظان الروائية لابن طفيل الأندلسى ، وتجارب كبار المتصوفة وذوى البصيرة النافذة

---

(١١) لا يعنى هذا أن الحكيم لم يتأثر بالشكل العبثى المهيمن على المسرح الأوروبى عند إنتاج الحكيم لهذه المسرحية ، ولكنه حاول أن يجد لتيار العبث الغربى أصولاً أو جذوراً عربية يمكن غرسها ورعايتها وتطويرها فى النهضة المسرحية الواعدة آنذاك فى مصر ، ليتجاوز بذلك التبعية " الفنية والحضارية للغرب ، ويستبدل الإبداع بالاتباع ، ضمن المشروع المسرحى للحكيم " .

من الفلاسفة فى الإسلام ، ولعل هذا يفسر لنا سر إعجاب الحكيم بأفكار ابن طفيل وابن سينا وابن رشد والسهروردي وفريد الدين العطار وابن عربى وغيرهم ممن تناولوا موضوع " الإيمان الكونى " فى مؤلفاتهم الروحية الكبرى عن " الإنسان الكامل " على نحو ما ذكرنا من قبل ، وحيث يتميز الإسلام بروحه الكونية التى تعترف بكل الرسل ، وبرؤيته الشمولية التى تنفتح على الكون وتدعو إلى قراءته قراءة سيميولوجية حرة واثقة .

فى مختتم قراءتنا لمسرحية ( يا طالع الشجرة ) يبقى أن نسجل لهذه المسرحية الطليعية خمسة أمور هى :

الأول : أن المسرحية مضادة فكرياً للمسرح العبثى الغربى ؛ برغم مواكبتها وانتماؤها فنياً إليه ( من حيث الشكل لا الفكر ) . وأنها أيضاً - على مستوى التناس الذاتى - متعاقبة مع نصوص مماثلة أخرى للحكيم نفسه <sup>(١)</sup> ، انطلاقاً من مرجعيته الثقافية الشرقية الإسلامية ذات الرؤية المؤمنة بالغيب التى تصل بالإنسان وبالإنسانية إلى آفاق الكونية وأعتاب الألوهية ، على نحو يؤكد به الحكيم أنه معارض - فكرياً وجمالياً - لفلسفة التيار العدمى الغربى ( وما كان له أن يعارضه إلا من خلال استحضار هذا الفكر " العدمى " وفهمه وهضمه واستيعابه ومن ثم تجاوزه ومعارضته ) مستحضراً فى الوقت نفسه خطأ دفاعياً صلباً قوامه ثقافته الإسلامية ومعطياتها الدينية والروحية والفلسفية فى الكون والوجود ، والبعث والخلود ، فضلاً عن نزعة الإيمانية الروحية الصوفية وذلك ضمن رؤية جدلية فاعلة لا منفعة .

وهذا يعنى أن خلاص الإنسان المعاصر يكمن فى معرفته لنفسه ، وفى معرفته لربه ، وفى معرفته لكونه ، معرفة صحيحة قوية حتى يمكنه أن يتوافق مع نفسه فى سلام ، وأن يتخافق مع الألوهية فى إيمان ، وأن يتوافق مع الكونية فى أمان .

الثانى : أن التجريب فى مسرحية يا طالع الشجرة ينطوى على مفارقة طريقة ، قياساً إلى التجريب الغربى ، فالتجريب ، فى الغرب قائم على تمهى الشكل والمضمون معاً

---

(١) من هذه النصوص : مسرحية بيت النمل (١٩٥٠) ومسرحية فى سنة مليون (١٩٥٣) . ومسرحية الطعام لكل فم (١٩٦٣) وحديث مع الكواكب (١٩٧٤) ومسرحية الدنيا رواية هزلية (١٩٧٤) انظر : اللامعقول والزمان والمطلق فى مسرح توفيق الحكيم (م.س.) ص ٣٩ وما بعدها .

باعتبارهما نتاج بنية فلسفية وفنية واحدة ، وحيث لا معنى للفصل بين الشكل والمضمون ، إبستمولوجيًا أو إبداعيًا ، أما التجريب عند الحكيم فقائم على الشكل فقط ، والشكل غير برى ، عن فلسفته أو مضمونه . فكيف تسنى له الجمع بين الشيء ونقيضه ، أو بين الشكل اللامعقول وفلسفته أو مضمونه المعقول ؟ يبدو أن الحكيم انخدع - وخذعنا معه - بمسرح العبث العربى ، حيث أراد أن يكون مسرحه " لامعقول" الشكل دون المضمون ، يقول :

"أنا أومن باللامعقول من حيث الشكل ، ولكن المضمون معقول " .

وهنا تكمن المفارقة أو " اللامعقول " نفسه فى محاكاة الشكل العبثى الذى جاء - أصلا - تجلياً فنياً وترجمة إبداعية للفكر العبثى نفسه الذى يؤمن بعبثية الوجود ومأساة الإنسان العاجز أمام مصيره ، أى أن الاتجاه العبثى اتجه فلسفى قبل أن يكون اتجاهًا أو شكلاً فنيًا ، وعندئذ لا معنى للتجاوز مع شكله دون مضمونه ؛ حتى وإن سعى الحكيم إلى معارضته .

والطريف أن مثل هذا المأزق لم تقع فيه الأغنية الشعبية ، فهى ليست عبثية الشكل ولا هى عبثية المضمون بعد أن وقفنا على رموزها الصوفية التى تناص معها الحكيم مضمونًا لا شكلاً كما رأينا ، على حين أنه تناص مع تيار العبث الغربى شكلاً لا مضمونًا ، الأمر الذى أوقعه فى مثل هذا المأزق ، حيث لا شكل بريئاً عن مضمونه أو منفصلاً عنه ، والتناسخ بدهة يكون فى المضمون ، وكلنا يعلم أن لا مضمون خارج الشكل ، بل إن الشكل هو المتحكم فى المتناسخ والوجه إليه ، وهو هادى القارىء والمشاهد لإدراك النص وفهمه تبعاً لذلك .

الثالث : إن مراوغة الحكيم لقارئه فى هذه المسرحية هى - فى رأينا - مراوغة نصية إيجابية ، وفيها تكمن عبقرية الحكيم المراوغة فى هذه المسرحية ( يا طالع الشجرة ) بما هى نص مفتوح ، قابل للتأويل وللتعدد القرائى ، وبما هى نص لا يستسلم بسهولة للقراءة أو التلقى ( العرض المسرحى ) . ولعل أهم أشكال المراوغة فى هذا النص لا تكمن فى التناسخ الخفى أو المضمحل والماورائى - الميتا تناص - مع الأغنية فحسب كما ضللنا الحكيم فى عتبات المسرحية ، بل تكمن أيضاً فى مراوغة النص نفسه والتى

تقوم على " المفارقة " بين الشكل العبثى والمضمون المنطقي ، أو بين الظاهر والباطن ، والمعلن والكامن ، غير أن القارئ الخبير والمؤهل ، الجاد والصبور ، المبدع ( المنتج ) وليس القارئ العادى ( المستهلك ) يستطيع فى تعامله مع هذا النوع من النصوص الحكيمية أن يستنطقها وهى فى حالة المراوغة ، فالنص المسرحى هنا يشير إلى مفاتيحه التى ترشدنا إلى المداخل المؤدية إلى باحاته وأعماقه ، وتساعدنا على الولوج إلى معنى . ومثل هذه الإشارات ، وما أكثرها ابتداء من العنوان الصوفى وانتهاء بالخاتمة مروراً بمجمعها الروحى أو الصوفى وبحقولها الدلالية العقلية والإيمانية ، وبقراءة المعنى الغائب عن السياق ( المتخيل أو اللامرئى ) الذى يتبغى البحث عنه مثل هذه الإشارات هى التى تتيح للقارئ المنتج أن يغوص فى أعماق النص المسرحى وأن يستخرج كنوزه المظلمة ، فيتمكن من النص والأخذ به ، وأن يتجاوز اللامعقول إلى المعقول ، وأن يتخطى عبثية الشكل إلى منطقية المضمون ، ولعل الحكيم يشاركه لحجب محفوظ خاصة وأنه يعد رائد مثل هذه المراوغات النصية أو النصوص المراوغة ( المفتوحة ) فى المسرح العربى الحديث والمعاصر .

الرابع : أن نص الحكيم - بهذا المعنى - جاء على مستوى التناص أو السياق الخارجى نصاً منفتحاً على بنية مجتمعية مشتركة تعود إلى فترة بداية الستينيات وخطابها المعرفى والفكرى والثقافى والاجتماعى المصرى والعربى ؛ باعتبارها فترة البحث عن "الهوية " الثقافية الموزعة آنذاك بين أقصى اليمين الأصولى وأقصى اليسار الشيوعى. والمشتتة بين القيم المادية والقيم الروحية ، ولذلك ليس محض مصادفة - على مستوى التناص الذاتى مع السياق الإبداعى السائد - أن يكتب نجيب محفوظ - على سبيل المثال - فى هذه الفترة روايته الشهيرة أولاد حارتنا مسلسلته فى جريدة الأهرام (من ٩/٢١ - ١٩٥٩/١٢/٢٥) ثم نشرت كاملة فى مطالع ١٩٦٠ ، وأن يكتب أيضاً مجموعته القصصية دتيا الله سنة ١٩٦٢ ورواية الطريق سنة ١٩٦٤ ، والشعاذ سنة ١٩٦٥ ، ويتمحور خطابها الفكرى حول أزمة البحث عن الوجود الروحى ، والرؤية الكلية للوجود ، وحمية التواصل مع " زعبلاوى " و " سيد سيد الرحيمى " أو الشجرة التى يتحقق فى ظلها الحرية والكرامة والسلام " على حد قول نجيب محفوظ ، بنزعتها

الصوفية المعروفة<sup>(١)</sup> ، وحتمة فتح نافذة على العالم الروحي لتجاوز العجز البشرى أمام المصير المحتوم فى روايته ألف ليلة وليلة (١٩٧٩) ولتجاوز الخواء الأنطولوجى والروحي ، وعالم الظواهر الحسية إلى عالم " الأشياء فى ذاتها " Noumena أو الوجود الخالص ، من حيث أنه مغاير لعالم الظواهر الواقعية أو الطبيعية الذى يجب أن يملأ ذلك الفراغ الروحي<sup>(٢)</sup> .

الخامس : أن النصوص الشعبية الأخرى فى مسرحية ( يا طالع الشجرة ) التى تعالتق معها الحكيم - فى تناس ظاهري - جاءت نتيجة وعى معرفى ونقدى بها وبوظائفها الفولكلورية ، قبل أن تكون مخزوناً ثقافياً موروثاً ( على صورته الأولية أو الشعبية ) فى ذاكرته النصية ، فأعاد اكتشافها ، وقام بتطويرها فنياً ، وتفجيرها دلاليًا ، على نحو تفاعلى جدلى ، استطاعت معه هذه النصوص الشعبية أن تتجاوز معطياتها الفولكلورية التقليدية إلى معطيات فكرية وفلسفية معاصرة ، وهنا تكمن حيوية التناس الفولكلورى وتعدد أنماطه عند الحكيم .

---

(١) انظر : محمد جبريل ، نجيب محفوظ - صداقة جيلين ص ١٦٢ وما بعدها ، الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة ١٩٩٣ . ومن المعروف أن علاقة نجيب محفوظ بالصوفية تعود إلى عام ١٩٣٤ عندما سجل رسالته فى الماجستير عقب تخرجه من قسم الفلسفة بجامعة القاهرة عن التصوف الإسلامى .

(٢) انظر للأهمية : وفاء إبراهيم : الفلسفة والأدب عند نجيب محفوظ ( قراءة فلسفية لبضع أعماله ) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ .



## خلاصة وتركيب

فى ضوء هذه الدراسة المطولة عن " توفيق الحكيم والأدب الشعبى " يتأكد لدينا - أو هكذا أرجو - أن الحكيم مدين فى تحقيق " مشروعه المسرحى " للأدب الشعبى خصوصاً والفن الشعبى عمومًا ، فى أهم مفاصله التكوينية أو التأسيسية والتجريبية على مستويات ثلاث هى :

(١) المستوى الموضوعاتى : فى اختيار الموضوعات والنماذج الإنسانية الشعبية " أقنعة مسرحية " فى مجال التأليف ، لغايات معاصرة ؛ فكرية وسياسية .

(٢) المستوى التجريبى : فى اختيار اتجاهات فنية شعبية موازية لأهم الاتجاهات أو المدارس والمذاهب المسرحية الغربية آنذاك .

(٣) المستوى التأصيلى : فى اختيار قوالب قشيلية شعبية يمكن من خلالها تشكيل "قالبنا المسرحى" المفارق للقالب الغربى عمومًا ومسرح العلبة الإيطالية خصوصًا ، وعلى نحو يمكن معه غرس هذا القالب " الشعبى " فى خطابنا المسرحى الحديث .

وبهذه المستويات الثلاثة يمكن الخروج بالظاهرة المسرحية العربية عمومًا والمشروع المسرحى للحكيم خصوصًا من دوائر التبعية الغربية ؛ موضوعًا وتجريبًا وتأصيلًا . وإن كان ثمة غايتان أخريان ، على المستوى الثانوى للدراسة .

الأولى : أن الحكيم ليس " رائد " المسرح العربى الحديث فحسب ، بل هو أيضًا " رائد " فولكلورى من رواد الدعوة إلى العناية بالأدب الشعبى والفنون الشعبية ودراستها ورد الاعتبار لها .

الأخرى : لعل فى اعتصام الحكيم بتراثه الشعبى ، منذ سنوات " تكوينه الفولكلورى " المبكر ما يخفف من غلواء الاتهام الموجه للحكيم بتبعيته للثقافة الغربية وتنكره لثقافته العربية . وقد رأى أن المكون الفولكلورى للمثقف العربى هو خط الدفاع الأول فى مواجهة الآخر ، والحيلولة دون التماهى فيه ، شأنه فى ذلك شأن كل مثقفى التنوير فى بلادنا . وهو رأى لا يزال قائماً بقوة ، خاصة فى عصر العولمة .



## المصادر والمراجع

إبراهيم درديري : تراثنا العربى فى الأدب المسرحى الحديث . الرياض . ١٩٨٠ .  
أحمد سخسوخ : توفيق الحكيم مفكراً ومنظراً مسرحياً ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،  
١٩٩٩ .

\_\_\_\_\_ : التيارات المسرحية المعاصرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ .  
أحمد شمس الحجاجى : الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر ، دار الثقافة ، القاهرة  
١٩٧٥ .

أحمد صقر : توظيف التراث الشعبى فى المسرح العربى ، مركز الإسكندرية للكتاب ،  
١٩٩٨ .

أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر وآخرون ، الهيئة المصرية  
العامة للكتاب ، ١٩٩٧ .

إسماعيل أدهم : الأعمال الكاملة ، ج ١ : أدباء معاصرون ، إعداد وتحرير أحمد الهوارى ،  
دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .

بول شاؤول : المسرح العربى الحديث ، رياض الريس للنشر ، لندن ، ١٩٨٩ .

توفيق الحكيم : أوبريت على بابا (١٩٢٦) ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة

- رواية عودة الروح (١٩٣٣) .

- مسرحية أهل الكهف (١٩٣٣) .

- مسرحية شهرزاد (١٩٣٤) .

- محمد (ﷺ) سيرة حوارية (١٩٣٦) مكتبة مصر .

- عصفور من الشرق (١٩٣٨) .

- تحت شمس الفكر (١٩٣٨) مكتبة مصر (ب.ت) .

- نهر الجنون (١٩٣٨) المسرح المتنوع ، مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٥٦ .

- أشعب ملك الطفيليين (١٩٣٨) مكتبة مصر (ب.ت) .

- مسرحية سليمان الحكيم (١٩٤٣) مكتبة مصر (ب.ت) .

- زهرة العمر (١٩٤٣) مكتبة الآداب (ب.ت) .

- شجرة الحكم (١٩٤٥) مكتبة مصر (ب.ت) .
- فن الأدب (١٩٥٢) مكتبة مصر (ب.ت) ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٤ . أرني الله ، قصص فلسفية (١٩٥٣) مكتبة مصر .
- التعاقلية (١٩٥٥) مكتبة مصر (ب.ت) .
- مسرحية الصفقة (١٩٥٦) مكتبة مصر (ب.ت) .
- المسرح المتنوع (١٩٥٦) مكتبة الآداب . القاهرة .
- مسرحية السلطان الخائر (١٩٦٠) مكتبة مصر (ب.ت) وطبعة مكتبة الآداب بالقاهرة ، ١٩٦٢ . مسرحية يا طالع الشجرة (١٩٦٢) الشركة العالمية للكتاب ، بيروت (ب.ت) .
- مسرحية الطعام لكل فم أو سميرة وحملدي (١٩٦٣) .
- مسرحية مصير صرصار (١٩٦٦) مكتبة مصر (ب.ت) .
- سجن العمر أو حياتي (١٩٦٤) دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٤ .
- قالبنا المسرحي (١٩٦٧) مكتبة مصر (ب.ت) .
- مجلس العدل (١٩٧٠) مكتبة مصر (ب.ت) ومكتبة الآداب، القاهرة ١٩٧٢ .
- عودة الوعي (١٩٧٤) مكتبة مصر (ب.ت) .
- أدب الحياة (١٩٧٦) مكتبة مصر (ب.ت) .
- بين الفكر والفن ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- مختار تفسير القرطبي (١٩٧٧) مكتبة مصر .
- التعاقلية مع الإسلام والتعاقلية (١٩٨٣) مكتبة مصر (ب.ت) .
- الأحاديث الأربعة ( فكري ديني ) مكتبة مصر (١٩٨٣) .
- شجرة الحكم السياسي (١٩٨٥) مكتبة مصر (ب.ت) .
- يقظة الفكر ، مكتبة مصر (ب.ت) .
- حماری الفيلسوف ، كتاب أخبار اليوم ، القاهرة ، (ب.ت) .
- حماری قال لي ( مقالات ) (١٩٣٨) ، مكتبة مصر .
- حمار الحكيم ( رواية ) (١٩٤٠) ، مكتبة مصر .
- الحمير ( مسرحية ) (١٩٧٥) ، مكتبة مصر .

٢٢١

تسعديت آيت حمودي : أثر الرمزية الغربية فى مسرح توفيق الحكيم ، دار الحداثة ، ١٩٨٦ .

التنوخى ( أبو على القاضى ، المحسن بن أبى القاسم ) : الفرج بعد الشدة ، مكتبة الخالجي بمصر ، ١٩٥٥ .

جابر عصفور : آفاق العصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ .  
جاك دريدا : الكتابة والاختلاف ، ترجمة كاظم جهاد ، دار تويقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ( ١٩٨٨ ) .

ابن الجوزى : أخبار الحكماء ، مطابع الأهرام ، القاهرة (ب.ت) .  
جورج بوزنر وآخرون : معجم الحضارة المصرية القديمة ، ترجمة أمين سلامة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦ .

جوستاف لوبون : الحضارة العربية ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .  
جوليا كريستيفا : علم النص ، ترجمة فريد الزاهى - دار تويقال ، ١٩٩١ .  
جيرار جينيت : مدخل لجامع النص ، ترجمة عبد الرحمن أيوب ، بغداد ، (ب.ت) .  
\_\_\_\_\_ : أطراس ( الفصل الأول ) ترجمة محمد خير البقاعى ، مجلة علامات ج ٢٥ ، ٦م ، جدة ، ١٩٧٧ .

- أطراس ( الفصل الأول ) ترجمة المختار الحسينى ، مجلة علامات ، ج ٢٥ ، ٧م ، جدة ، ١٩٧٧ .  
جيمس هنرى پرستيد : فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (سلسلة المصرات ) ط ١٩٩٩ .

حسن بحراوى : المسرح المغربى ، بحث فى الأصول السوسيوثقافية ، المركز الثقافى العربى ، بيروت ، ١٩٤٤ .

حسن عطية : الثابت والمتغير ، دراسات فى المسرح والتراث الشعبى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

رولان بارت : نظرية النص ، ترجمة منجى الشملى وآخرين ، حوليات الجامعة التونسية ، ع ٢٧ ، تونس ، ١٩٨٨ .

السبكى ( عبد الوهاب ) : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٥ ط ١ المطبعة الحسينية ، القاهرة (ب.ت) .

سعد الدين حسن دغمان : الأصول التاريخية لنشأة الدراما فى الأدب العربى ، جامعة الدول العربية ، ١٩٧٣ .

سعد الدين ونوس : بيانات لمسرح عربى جديد ، دار الفكر الجديد ، بيروت ١٩٨٨ .  
سعيد الناجى : التجريب فى المسرح ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ١٩٩٨ .  
سعيد بقطين : انفتاح النص الروائى ، المركز الثقافى العربى ، بيروت ، ١٩٨٩ .  
صالح سعد : تقاليد الكوميديا الشعبية ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٤ .  
صلاح طاهر : أحاديث مع توفيق الحكيم ، دار الكتاب ، القاهرة ١٩٧١ .  
صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة ع ١٦٤ ، أغسطس ١٩٩٢ ، الكويت .

\_\_\_\_\_ : شفرات النص ، دار الفكر للدراسات ، القاهرة (١٩٩٠)  
طه حسين : أحلام شهرزاد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ .  
عبد الحميد يونس : معجم الفولكلور ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٣ .  
عبد الكريم برشيد : المسرح الاحتفالى ، الدار الجماهيرية للنشر ، ليبيا ، ١٩٩٠ .  
عبد الله إبراهيم : المتخيل السردى ، مقاربات نقدية فى التناسخ والروى والدلالة ، المركز الثقافى العربى ، بيروت ، ١٩٩٠ .  
عبد اله شقرون : فجر المسرح العربى بالمغرب ، تونس ، ١٩٩٨ .  
عبد الله الغذامى : الخطيئة والتكفير (ط٣) دار سعاد الصباح ، الكويت ، ١٩٩٣ .  
\_\_\_\_\_ : ثقافة الأسئلة ، (ط٣) دار سعاد الصباح للنشر ، الكويت ، ١٩٩٣ .  
\_\_\_\_\_ : تشريح النص ، دار الطليعة ، بيروت ، ط ١ (١٩٨٧) .  
أبن عرب شاه : فاكهة الخلفاء ، ومفاكهة الظرفاء ، تحقيق محمد رجب النجار . دار سعاد الصباح للنشر ، الكويت ، ١٩٩٨ .

على الراعى : فن الكوميديا من خيال الظل إلى الريحانى ، دار الهلال ، ١٩٧١ .  
\_\_\_\_\_ : المسرح فى الوطن العربى ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٠ .  
\_\_\_\_\_ : الكوميديا المرتجلة ، دار الهلال ، ١٩٦٨ .  
على عقله عرسان : وقفات مع المسرح العربى ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٦٨ .

\_\_\_\_\_ : الظواهر المسرحية عند العرب ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٨١ .

فائق مصطفى أحمد : أثر التراث الشعبى فى الأدب المسرحى ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ .

فؤاد رشيد : تاريخ المسرح العربى ، كتب للجميع ، ع ١٤٩ ، القاهرة ١٩٦٠ .  
فرانسوا دوما : حضارة مصر الفرعونية ، ترجمة ماهر جويجاتى ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٨ .

فاروق خورشيد : الموروث الشعبى فى المسرح ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٩٢ .  
فيليب سيرنج : الرموز فى الفن والأديان ، ترجمة عبد الهادى عباس ، دار دمشق ، سوريا ، ١٩٩٢ .

كامل كيلانى : سارق الحمار وقصص أخرى ، دار مكتبة الأطفال ، القاهرة ١٩٤٤ .  
كمال الدين حسين : التراث الشعبى فى المسرح المصرى ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٩٣ .

ماكس شابيرو : معجم الأساطير ، ترجمة حنا عبود ، دار الكندى ، بيروت ١٩٨٩ .  
مجهول المؤلف : الأسد والغواص ، حكاية رمزية من القرن الخامس الهجرى ، بعناية رضوان السيد ، دار الطليعة ، ط ٢ بيروت ، ١٩٩٢ .

محمد الدالى : الأدب المسرحى المعاصر ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٩٩ .  
محمد رجب النجار : جحا العربى وفلسفته فى الحياة والتعبير ، عالم المعرفة ، الكويت ط ١ (١٩٧٨) .

\_\_\_\_\_ : أبو زيد الهلالي ، الرمز والقضية - دار القبس - الكويت ١٩٧٩ .  
\_\_\_\_\_ : التراث القصصى فى الأدب العربى ، مقاربات سوسيوسردية . ذات السلاسل ، الكويت ١٩٩٥ .

\_\_\_\_\_ : نصوص أدبية ( بالاشتراك ) دار النشر الجامعى ، الكويت ، ١٩٩٧ .  
محمد عبد الرحمن يونس ( وآخرون ) : تأثير ألف ليلة وليلة فى المسرح العربى المعاصر والحديث ، دار الكنوز الأدبية ، بيروت ، ١٩٩٥ .

محمد عزيزة : الإسلام والمسرح ، ترجمة رفيق الصبان ، دار الهلال ، ١٩٧١ .  
محمد عمران : ألعاب الأطفال وأغانيتهم فى مصر ، دار الفتى العربى ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

- محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٧ .
- \_\_\_\_\_ : فى النقد المسرحى ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- محمد كمال الدين : رواد المسرح المصرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٠ .
- محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعرى ( استراتيجية ) التناسل المركز الثقافى العربى .  
الدار البيضاء ، ١٩٨٦ .
- \_\_\_\_\_ : دينامية النص ، المركز الثقافى العربى ، الدار البيضاء ، ١٩٩٠ .
- محمد مندور : المسرح النثرى ، نهضة مصر ، القاهرة (ب.ت) .
- \_\_\_\_\_ : مسرح توفيق الحكيم ، نهضة مصر ، القاهرة (ب.ت) .
- محمد يوسف نجم : المسرحية فى الأدب العربى الحديث ، ط ٢ ، دار الثقافة ، بيروت ،  
١٩٦٧ .
- محمود تيمور : طلائع الفن المسرحى ، مكتبة الآداب ، القاهرة ( ب.ت) .
- محمود حامد شوكت : الفن المسرحى فى الأدب العربى الحديث ، دار الفكر العربى ،  
القاهرة ، ١٩٧٠ .
- نجوى عانوس : المسرح الضاحك ، كتاب الهلال ، القاهرة ١٩٨٩ .
- نهاد صليحة : التيارات المسرحية المعاصرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ .
- \_\_\_\_\_ : المسرح بين النص والعرض ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ .
- نوال زين الدين : اللامعقول والزمان والمطلق فى مسرح توفيق الحكيم ، الهيئة المصرية  
العامة للكتاب ، ١٩٩٨ .
- هاملتون (وآخرون) : المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى  
(وآخرين) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦ .
- وفاء إبراهيم : الفلسفة والأدب عند نجيب محفوظ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب  
١٩٩٧ .
- ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ترجمة أحمد قدرى ، دار الشروق ، القاهرة ،  
١٩٩٦ .
- يعقوب لاندو : تاريخ المسرح ، ترجمة يوسف عوض ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- يوسف إدريس : نحو مسرح عربى ، مطبعة الوطن العربى ، بيروت ، ١٩٧٤ .

## المقالات والدراسات المنشورة فى مجلات علمية متخصصة :

إبراهيم حماده : توفيق الحكيم والبحث عن قالب مسرحى ، مجلة ، عالم الفكر ، م٢ ، ع٣ ، إبريل ١٩٨٢ الكويت .

سيد على إسماعيل : مصطفى ممتاز بين الحياة والفن ، مجلة البيان ، ع ٣٤٤ مارس ١٩٩٩ ، الكويت .

عبد الفتاح قلعه جى : نحو مشروع آخر فى المسرح العربى ، مجلة الفكر العربى ، ع ٦٩ ( يوليو ١٩٩٢ ) معهد الإنماء العربى ، بيروت .

عبد الكريم برشيد : الاحتفالية بين التأسيس وإعادة التأسيس ، مجلة الفكر العربى ، ع ٦٩ ( يوليو ١٩٩٢ ) معهد الإنماء العربى ، بيروت .

عبد المجيد شقرون : خصوصية الخطاب ، خصوصية القراءة ، مجلة البيان ، ع ٣٥٧ ، إبريل ٢٠٠٠ الكويت .

محمد رجب النجار : مصادر دراسة الفولكلور فى التراث العربى ، مجلة عالم الفكر م٢١ ، ع ٢ ، أكتوبر ١٩٩١ . الكويت .

محمد مسكين : المسرح العربى الحديث ، مجلة الوحدة ع ٩٤ يوليو ١٩٩٢ المجلس القومى للثقافة العربية .

مصطفى رمضانى : توظيف التراث وإشكالية التأصيل فى المسرح العربى ، مجلة عالم الفكر ، م١٧ ع ٤ يناير ١٩٨٧ . الكويت .

مفيد الخوامدة : المسرح العربى ومشكلة التبعية ، مجلة عالم الفكر م ١٧ ع ٤ يناير ١٩٨٧ ، الكويت .

نديم معلا : التجريب فى المسرح العربى ، تبعية أم تشاقتف ، مجلة الكويت ع ١٩٣ ، نوفمبر ١٩٩٩ . الكويت .

## المحتوى

### الصفحة

إضاءة وتأسيس :	٥
أولاً : التكوين الفولكلورى للحكيم :	٢٣
- مرحلة التنشئة الاجتماعية ( فولكلورياً ) :	٢٣
- مرحلة التنشئة الثقافية ( فولكلورياً ) :	٢٩
ثانياً : الحكيم والبحث عن منابع جديدة لمشروعه المسرحى :	٣٥
- الحكيم والوعى التاريخى والمعرفى بالأدب الشعبى :	٣٥
- الحكيم والوعى الفنى والنقدى بالفن الشعبى :	٤٢
- تجليات الاستجابة الفولكلورية فى المشروع المسرحى :	٦١
ثالثاً : أنماط من التناص الفولكلورى :	٨٥
- مسرحية نهر الجنون وغط التماهى النصى :	٨٩
- مسرحية مجلس العدل وغط التوالد النصى :	١٠٥
- مسرحية السلطان الحائر وغط التناص المضمير :	١٢٠
- مسرحية يا طالع الشجرة وغط الميتا-تناص :	١٣٢
* فعل التجريب المسرحى وتجاوز عقدة الاتباع :	١٣٤
* الفرق بين مسرح الميث العربى ومسرح اللامعقول العربى :	١٣٩
* حدود العقل وآفاق الإيمان عند توفيق الحكيم :	١٤٣
* مسرحية يا طالع الشجرة والبحث عن المعنى :	١٥٧
* آفاق التناص بين المسرحية وأغنية يا طالع الشجرة :	١٨٦
التفسير الميثولوجى لأغنية يا طالع الشجرة :	١٩٢
التفسير الصوفى لأغنية يا طالع الشجرة :	١٩٥
التفسير الفولكلورى للسحلية ( الشيخة خضرة ) :	٢٠٥
خلاصة وتركيب :	٢١٧
المصادر والمراجع :	٢١٩





رقم الإيداع ٤٢٩٤ / ٢٠٠١

الترقيم الدولي 4- 052 - 322 - 977 I.S.B.N.

دار روتاهرينت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤  
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق





دكتور محمد رجب النجار



# توفيق الحكيم والأدب الشعبي

أنماط من التناسق الفولكلورى

Bibliotheca Alexandrina



0354153



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES